أزهار الرياض فى أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الثانى

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمسانى ، تحقيق: على عمر
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
2مج ، سم
تدمك : 2-496-341-977-978
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر،على (محقق)
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16752

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم

القاضى النباهى

أما القاضى النباهى فهو على بن عبد الله بن محمد بن محمد[1] بن عبد الله بن الحسن الجذامى المالقى النباهى، أبو الحسن الشهير بابن الحسن، قاضى الجماعة بغرناطة، الإمام العالم العلامة، كان رحمه الله من أكابر المشهورين بها، ممن له الفصاحة والبلاغة والجلالة، إلى الاتصاف بالعلم والمعرفة، والتفنن فى العلوم معقولها ومنقولها.

ذكره ابن الخطيب فى الإحاطة وأثنى عليه، وذكر أن ولادته عام ثلاثة عشر وسبع مئة، على ما ذكره بعضهم، وتأخرت وفاته عن ابن الخطيب، بحيث إنه كان حيًا عام اثنين وتسعين وسبع مئة.

وقال ابن الخطيب فى ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصه[2]:

ثم قدم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن، وهو عين الأعيان بمالقة، المخصوص برسم التجلة، والقيام بالعقد والحل، فسدد وقارب، وحمل الكل، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطة، وأكرم المشيخة، مع النزاهة، ولم يقف فى حسن التأتى على غاية؛ فاتفق على رجاحته، ولم يقف فى النصح عند غاية؛ أعانه الله. انتهى ملخصا[3].

---

(١) فى سائر الأصول: «على بن محمد بن عبد الله» والمثبت رواية ابن الخطيب فى الإحاطة ج٤ ص ٨٨، والمقرى فى نفح الطيب ج٦ ص ١١٩.

(٢) انظر فى ذلك: نفح الطيب ج٥ ص ١٢١.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ١٢١.

وكم بين ما قال فيه هنا وبين ما فى «الكتيبة الكامنة» من تلقيبه بجعسوس، ووصمه بما لا يليق سماعه. وعلى كل حال فقد انتصف كل واحد منهما من صاحبه بلسانه، وعفو الله وراء الجميع[1].

وقال فى حقه الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج فى فهرسته:

الشيخ الفقيه الراوية، قاضى الجماعة بالأندلس وخطيبها، أبو الحسن؛ أخذ عن أبى محمد عبد الله بن أحمد التجيبى الموطأ والشفاء وأكثر الصحيحين؛ وعن الخطيب أبى جعفر الطنجالى، والقاضى العارف أبى القاسم بن سعيد الحميدى، والوزير أبى بكر بن الحكيم، والقاضى أبى جعفر أحمد بن عبدالحق، والحاج الراوية أبى القاسم بن المهنى[2]؛ وقرأ على الفقيه الحاج أبى القاسم بن أحمد بن محمد بن عمران الحضرمى بعض مختصر ابن الحاجب، والتسهيل البديع فى اختصار التفريع؛ والحاج أبى عبد الله محمد ابن على السكونى، والخطيب أبى عبد الله الساحلى، والقاضى أبى الحجاج المنتشاقرى. قدم رسولاً لفاس عام سبعة وستين، ثم عام ثمانية وثمانين. انتهى.

قلت: تقدم من كلام ابن خلدون أنه جاء رسولا فى شأن ابن الخطيب، وذلك خلاف هذين التارخين معًا، فتأمله.

وله رحمه الله بحث فى مسألة الدعاء بعد الصلاة، رام فيه الرد على الشيخ الإمام أبى إسحاق الشاطبى، حسبما نقله صاحب المعيار. ومن تآليفه رحمه الله: «كتاب المرقبة العُليا، فى مسائل القضا والفتيا» فى جزأين، وهو

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٢١، والكتيبة الكامنة ص ١٤٦.

(٢) انظر فى ابن المهنى: نفح الطيب ج٥ ص ٦٠٤.

كتاب ممتع إلى الغاية، وقفت على الجـزء الأول منه، وقد ذكر فى أثنائه أخبار سلفه رحـمه الله، ولم أقف من أمره على غـير ما ذكـرته فى هذا الموضوع. وقد قدمنا أنه كان مع السلطان أبى عـبدالله بن الأحمر المخلوع حين رجع إلى طلب ملكه من المغرب؛ ورأيت لبـعض المتأخرين وصفـه بالقاضى الأجل ذى الوزارتين. والله أعلم.

ابن زمرك

وأما ابن زمرك فهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى، أبو عـبد الله، ويعرف بابن زَمْرك. هكذا ذكر غـير واحد من المحققين، وسيأتى فى كلام ابن الأحمر حـذف «محمد» فيما بين «أحمد» و«يوسف»، ولعله من باب النسبة إلى الجد، والله أعلم.

قال ابن الخطيب فى الإحاطة[1]: ولد هذا الفاضل بغرناطة، ونشأ بها، وهو من مفـاخرها، وكان صدرًا من صـدور طلبة الأندلس، وأفراد نجبـائها، مختصا مقبولاً، هشـا خلوبا، عذب الفكاهة، حلو المجالسة، حسن التوقيع، خـفيف الروح، عظيم الانطبـاع، شره المـذاكرة، فطنًا بالمعـاريض، حاضـر الجواب، شعلة من شعل الذكاء، تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة، فكهًا غزلا، مع حياء وحشمة، جوادًا بما فى يده، مشاركًا لإخوانه؛ نشأ عفا طاهرا، كلفًا بالقراءة، عظيم الدؤب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ، ظاهر النبل، بعيد مدى الإدراك، جيد الفهم؛ اشتهر فضله، وذاع أرجه، وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض، وشـارك فى جملة من الفنون، فـأصبح متلقف كـرة البحث،

(١) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٠.

وصارخ الحلقة، وسابق الحلبة، ومظنة الكمال؛ ثم ترق فى درج المعرفة والاطلاع، وخاض لجة الحفظ، وركض قلم التسويد والتقييد والتعليق، ونصب نفسه للناس متكلمًا فوق الكرسى [المنصوب][1]، وبين الحفل المجموع، مستظهرًا بالفنون التى بعد فيها شأوه، من عربية وبيان، وما تقذف به لجة النقل من أخبار وتفسير، متشوفا مع ذلك إلى السلوك مصاحبًا للصوفية، آخذًا نفسه بارتياض ومجاهدة؛ ثم عانى الأدب، فكان أملك به. ورحل فى طلب العلم والازدياد، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبى سالم بن أبى الحسن، وعرف فى بابه بالإجادة، ثم رجع مع السلطان ابن الأحمر فى طلب ملكه، فلطف محله منه، وخصه بكتابة سره، [وثابت الحال، ودالت الدولة، وكانت له الطائلة، فأقره على رسمه][2]، معروف الانقطاع والصاغية، كثير الدالة، مضطلعًا بالخطة: خطا، وإنشاء، ولسنًا، ونقدًا؛ فحسن منابه، واشتهر فضله، وظهرت مشاركته، وحسنت وساطته، ووسع الناس تخلقه، وامتد فى ميدان النظم والنثر باعه، فصدر عنه من المنظوم قصائد بعيدة الشأو فى مدى الإجادة، من الأغراض المتعددة، من ميلاديات وغيرها، وهو بحاله الموصوفة إلى الآن، أعانه الله وسدده.

وأخذ العربية[3] عن رحلة الوقت فى فنها، أبى عبد الله بن الفخار؛ ثم على إمامها القاضى الشريف، إمام الفنون اللسانية، أبى القاسم محمد بن أحمد الحسنى؛ والفقه والعربية على الاستاذ المفتى أبى سعيد بن لب؛

(١) تكملة عن الإحاطة ٢/ ٣٠٢، والنفح ٧/ ١٤٦.

(٢) ما بين الحاصرتين من الإحاطة ج٢ ص ٣٠٢.

(٣) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٢.

واختص بالفـقيه المحـدث الصدر أبى عبـد الله بن مرزوق، روى عنه كثـيرًا؛ ولقى الحافظ القـاضى أبا عبـد الله المقرى لما قدم الأندلس رسـولا، وذاكره؛ وقرأ الأصول على أبى على منصور الزواوى؛ وروى عن القاضى أبى البركات ابن الحـاج، والمحدث أبى الحـسين بن التلـمسـانى، والخطيب ابن اللوشى، والمقرئ أبى عبد الله بن بيبش؛ وقرأ بعض الفنون العقلية بفاس على الشريف الرحلة أبى عبد الله العلوى التلمسانى، واختص به اختصاصًا لم يخل فيه من استفادة، وحنكة فى الصناعة.

وأما شعره فـمترامٍ[1] إلى نمط الإجادة خفـاجى النزعة، كلف بالمعانى البديعة، والألفاظ الصقيلة، غزير المادة.

مولده فى رابع عشر شوال عام ثلاثة وثلاثين وسبع مئة.

انتهى كلام ابن الخطيب.

وأورد له ابن الخطيـب فـيـمـا يرجـع إلى الفـخـر قـولـه - قـال ابن الخطيب[2]: ولقد صدق -:

ولائمتى فى الجود والجـود شيمتى جـبلت على إيثـارها يوم مـولدى
ذريـنى فـلو أنـى أُخلـد بالـغنـى لكنـت ضنينًـا بالذى ملـكت يدى

وأورد له أيضًا قوله[3]:

لقـــــد علم الله أنـى امـــــرؤ أجـرر ثوب العـفـــاف القـشـيب

(١) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٣.
(٢) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٩.
(٣) الإحاطة ج٢ ص ٣٠٩.

فكم غـــمض الدهر أجـــفـــانه وفـازت قـداحى بوصل الحـبـيب
وقـــيل رقـــيـــبك فى غـــفلة فـــقلت أخـــاف الإلـه الرقـــيب

وله أيضًا رحمه الله[1]:

مـــا لـى بحـــمل الهـــوى يدان من بعـــد مـــا أعـــوز التـــدانى
أصـــبـــحتُ أشكو مـن زمـــانٍ مـــا بـتُّ منـه علـى أمـــانِ
مـــا بال عـــينيك تـسـجـــمـــان والدمـعُ يرفضّ كـــالجُـمـــان
مـــــا ذاك والإلـف عنـك وانٍ والبـــعـــدُ من بـعـــده كَـــوانى؟
يـا شِـــــقـــــوة من هـوانٍ لجـــجتُ فى أَبحُـــر الهـــوان
لـم يَـثـنِـنِـــى عـن هـواك ثـانٍ يا بُغـيـــةَ القلب قـد كـفـانى

انتهى.

ثم أظلم الجـو بينه وبين ابن الخطـيب، وتولى مكانه بعـد فـراره كمـا قدمناه؛ وحظى عند ابن الأحمر جدا، وبقى على ذلك مدة.

قلت: وقد رأيت بتلمسـان كتابًا ملوكيًا من تأليـف بعض سلاطينها بنى الأحمر، وهو حـفيد ابن الأحمـد المخلوع، سلطان الأندلس، الذى كتب له ابن زمرك المذكور بعد ابن الخطيب، أورد فيه كلام ابن زمرك، وسماه: «البقية والمدرك، من شعر ابن زمـرك»، وهو سفر ضخم، ليس فيـه إلا نظمه فقط؛ وذكر فيه أن ابن زمرك مات قتيـلاً بعد التسعين وسبع مئة، فكان ذلك الواقع له مساويًا لما وقع لابن الخطيب شيخه، حسبما قدمناه.

(١) الإحاطة ج٢ ص ٣١٠.

ونص ما قيدت من ذلك الكتاب من أوله:

«أما بعد[1] ما يجب من حمد الله تعالى فى كل حال، وشكره على ما أولى ويسر من صلاح الأحوال؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء، وسيد الأرسال، والرضا عمن له من صحب وأنصار وآل؛ فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان، وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة بلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان؛ ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس، الغنى بالله، تولاه الله برضوانه، كانت غررًا فى وجوه الأيام، ومواسم تجمع الطم والرم من الرؤساء الأعلام؛ الآخذين بأعنة الكلام، السابقين فى حلبة النثار والنظام؛ وأن الفقيه الرئيس المدرك، الناظم الناثر أبا عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك؛ عفا الله عنه - وحسبك بمن ارتضاه مولانا [الجد][2] رحمه الله لكتابته، وصرفه فى الوجوه المتعددة من رسالته وحجابته؛ فكان بذلك خليقًا، لما جمع فيه من أدوات الكمال علمًا وتحقيقا؛ وإدراكًا ونُبلا، وفقها وأوصولاً، وفروعًا وأدبًا وتحصلا، وبيانًا وتفسيرًا ونظما وترسيلا - لما كان قد أخفت الأيام سنى صبحه، وخابت وسائل نصحه، وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه؛ وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أى ذخر فقدوا، ولا أى مطلق من تصرفاته الجميلة قيدوا؛ مستبصرين بالجهل فى دياجى غيهم، معجبين بما ارتكبوه من جياد بغيهم؛ جميعهم يلحظه بمقل دامية، وألفاظ حامية؛ يصابحونه بأوجه خلت عن الوجاهة، سيماها الحسد، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد.

(١) أورده المقّرى فى نفح الطيب ج٧ ص ١٦٢.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٣.

[فـخـرّ على الألاءة لم يُوَسَّـد كـأن جَـبِـينَه سـيفٌ صَـقـيلُ

فـيا لله من أشـلاء هنالك ضـائعة، وأعـلاق غيـر مـصونة، ووسـائل مخفـورة؛ وأذمة قطعت أرحامهـا، ولم يرع ذمامها؛ وعـاثت الأيدى الفاتكة حينئذ على بنيه، وارتكبوها شنعاءَ فى أهله وذويه][1].

هل كـان إلا حيـا تحيـا العبـادُ به هل كان إلا قذى فى عين ذى عَوَرِ[2]

إن قال قـولا تَرَ الأبصـارَ خاشـعةً لِمَـا يُخـبِّـر من وَحـيٍ ومن أثَر

يا لَهف نفسىَ لو قـد كنتُ حاضرَه غـداةَ جُـرِّعـه أدهى مِنَ الصَّـبـر

لَمـا تركتُ له شِـلوا بِمَـضـيـعـةٍ ولا تولّى صـريعَ الـناب والظُّفُـر

وكـان مـا كـان ممـا لست أذكـره فظُنّ خـيـرًا ولا تسـأل عن الخَـبـر

وإن سأل سائل عن الخبـر الذى ألمعنا بذكره، وضمنا هذا البيت ذَرْوًا[3] من فظيع أمـره؛ فـذلك عند مـا نسب صـاحب الأمـر إليـه مـا راب، وتله [وابنيه][4] للجبين مـعفرين بالتراب؛ وصدمـه فى جنح الليل والمصحف بين يديه، يتـوسل بآياته، ويتشـفع بعظيم بركاتـه، فأخذته الـسيوف، وتعـاورته الحتوف؛ وأذهبه سليبًا قتيلا، مُصَيِّرا مصراع منزله كثيبًا مهيلا، وكنا على بُعد من هذه الآزفـة التى أورثت القلـوب شجنًـا طويلا؛ وذكـرتنا بعناية مـولانا [الجد][5] الغنى بالله بجانبه أعظم ذكرى، فأغرينا برثائه خلدا وفكرا؛ وارتجلنا

(١) التكملة من نفح الطيب ج٦ ص ١٦٣.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٤.

(٣) ذَرْوًا: طَرَفًا.

(٤) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٤.

(٥) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٤.

عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارة مقنعة، وكناية فى السلوان مطمعة؛ وأرضينا بالشفقة أَوِ دّاءَه، وأرغمنا بتأبينه أعداءه. ولما تبلج الصبح لذى عينين، وتلقينا راية الفرج بالراحتين؛ عطفتنا على أبنائه عواطف الشفقه، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدى عليه صلةً لرحم طالما أضاعها من جهل الأذمة، وأخفر عهود تخدمه لمن سلف من الأئمة؛ وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا، وجعلنا ضم ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا؛ وكان تعلق بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه، مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه؛ فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه، الحائلة المنتهبة بأيدى النوائب، الدائرة المستلبة بتعدى النواهب؛ فخلص من الجملة قلائد عقيان، وعقود در ومرجان؛ ترتاح النفوس النفيسة لإنشادها، وتحسد الأبصار الأسماع عند إيرادها؛ إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا، والإشادة بعظيم ملكنا؛ فشرعنا فى تقييد أوابدها الشاردة، وإحياء رسومها البائدة؛ كلفا بالأدب؛ لوضوح فضله، وتأدية لما يجب من رعاية أهله.

ولنبدأ بالتعريف[1] بحال هذا الرئيس المنبه عليه، ونظهر ما كنا نضمره من الميل إليه، فى كل ما له أو عليه، فنقول:

هو الفقيه الكاتب، الفذ الأوحد، أبو عبد الله، محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحى، ويعرف بابن زمرك؛ أصله من شرق الأندلس، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة، وبها ولد؛ فنشأ ضئيلاً كالشهاب يتوقد، مختصر الجرم والأعين بإطالة فواضله تشهد، ومكتب الفئة القرآنية يؤثره بالجناب الممهد، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم، والدءوب على

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٥.

القـراءة، وأخـذ نفـسه بملازمـة حلقـات التـدريس، ولم يبلغ حـد وجـوب المفترضات إلا وهو متحـمل الرواية، وملتمس لفائد الدراية، مصابح كل يوم أعلام العلوم، ومـستـهدٍ بمصابيح الحـدود العلمية والـرسوم. فافـتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبى عبد الله ابن الفخار، الآية الكبرى فى فن العربية، وتردد الأعوام الـعديدة إلى قـاضى الجماعـة أبى القاسـم الشريف؛ فـأحسن الإصغـاء، وبذ النحـاة البلغاء، بما أوجب رثاءه عند الوقـوف على ضريـحه بالقصيدة الفريدة، التى أولها:

«أغرى سراة الحى بالإطراق»

حسـبما تأتى مـستوفـاة إن شاء الله تعالى. واهتـدى إلى طريق الخطبة ومناهج الصـوفيـة، بالخطيب المعظم أبى عـبـد الله بن مرزوق، الوافـد على مولانا الجـد أبى الحجاج رضى الله عنه فى عـام ثلاثة وخمسين وسـبع مائة، وإليه جنح، وإياه قصد، عند تغربه إلى المغرب، فى دولة السلطان أبى سالم، فَتَوَّجَهُ بالعمامة التى ارتجل بين يديه فيها:

توجـــتنـى بعـــمـــامـــهْ تـوجـت تاج الـكـرامـــــــهْ

فـــروض حـــمـــدك يـزهى منـى بســـجع الحـــمـــامـــهْ

وأخذ علم الأصلـين عن الحافظ الناقد أبى المنـصور الزواوى، وبرع فى الأدب، أثناء الانقطـاع وأول الطلب لأبى عـبـد الله بن الخطـيب، ولكن لم يحـمد بينـهمـا المآل. واقتـدى فى العلوم العـقليـة بالشـريف أبى عبـد الله التلمسانى، قـدوة الزمان؛ وحصلت له الإجازة والتحديث بقـاضى الجماعة، وشـيخ الجـملة، أبـى البكرات بن الحـاج، وبالخطيب البـليغ أبى عـبـد الله اللوشى، وبالخطيب الورع أبى عـبد الله بن بيـبش العبـدرى، رضى الله عن

جميعهم. وبواجب محافظتنا على عهدهم، إذ نحن واردون بالإجازة التامة عذب وردهم، وصل سببنا بهم الكثير من شيوخنا، مثل الإمام المعظم أبى محمّد عبد الله بن جزى، ومعلمنا الثقة المجتهد أبى الله الشريشى، والقاضى الإمام أبى عبد الله محمّد بن على بن علاق، وغيرهم رحمة الله عليهم. لذلك صار صدرًا فى نوادى طلبة الأندلس، وأفراد نجبائها؛ فما شاءه المحاضر يجده فى خضله[1]، ويتلقاه من باهر فضله؛ فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة، ومحادثة أريضة مزهرة، وجوابًا مطبقا للمفصل، وذهنا سابقا لإيضاح المشكل؛ مع انقياد الطبع، وإرسال الدمعة، فى سبيل الخشوع والرقة، ورشح الجبين عند تلقى الموعظة، وصون الوجه بجلباب الحياء، ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام، والمبادرة للاستدعاء، على طهارة، وبذل وسع، وكرم نفس، لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه، ولا أمتع منه بجاهه، إلى مبالغة فى الهشة والمبرة والإيثار بما منح، وجنوح إلى حب الصالحين، ذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية، الولى أبى جعفر بن الزيات، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبى مهدى، قدس الله مغناه، وسواهما من أهل الأندلس والعدوة، وحَمْله أشد الحمل على كل مُلَبِّس[2] كأبى زكرياء البرغوطى وسواه.

ومن تنديراته[3] - زعموا - على أبى الحسن المحروق لميله عنه:

ولد الفقر والرباط ولكن نفسه للسلوك ذات افتقار

وخطب الأدب يافعا وكهلا، وحاز علمه إدراكًا ونبلاً.

---

(١) الخضل: اللؤلؤ.

(٢) ملبس: مخلط. وفى الأصل: متلبس.

(٣) فى الأصل: «تنديداته» والمثبت رواية المقرى فى نفح الطيب ج٧ ص ١٦٧.

ولّما كانت الحادثة على مولانا الجد رحمه الله، واجتاز إلى المغرب، كما تقرر فى غـير هذا، كلف به، وأنس إليه، لحـلاوة منطق، ورفع استيـحاش، ومراوضة خلق؛ ثم كـرم الله وجهه فى صحبة ركـابه، فعلت منزلته، ولطف محله.

وقفنا[1] على رقعة من رقاعه وهو يبدئ فيـها ويعيد، ويقول: «خدمته سبـعًا وثلاثين سنة، ثلاثة بالمغـرب، وباقيهـا بالأندلس، وأنشدته فـيها سـتًا وستـين قصـيدة، فى ستّـة وستين عـيدًا، وكل مـا فى منازله السعـيدة، من القصـور والرياض والدشار[2] والسبـيكة، من نظم رائق، ومـدح فائق، فى القباب والطاقات والطرز وغـير ذلك [فهو لى][3]، وكانت أؤاكله وأؤاكل ابنه مولاى أبا الحجاج وهما كبـيرا ملوك أهل الأرض. وهنأته بكذا وكذا قصيدة، وفوض لى فى عـقد الصلح بين الملوك بالعـدوتين، وصلح النصارى عـقدته تسع مرات، أَلخِسَّةٍ فوض إلى ذلك»؟

قلنا: صدق فى جميع ما ذكره، والعقود بذلك شاهدة له.

وخصه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره، واستعمله بعد أعوام فى السفارة بينه وبين ملوك عـصره، فـحمد منابـه، ونمت أحواله، ورغد جنـابه. وكان هنالك بعض تقـولات تشـين وجه اجـتهـاده، وتومئ بما احـتقـبه من سـوء مقاصده، وما صرفه من قبيح أغراضه، وهاجت الفتنة، فكانت سفارته أعظم أسبابها[4].

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٧.

(٢) الدشار: القرية أو الكفر.

(٣) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٧.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

وعند الأشد من عمره عرضت لأفكاره تقلبات، وأقعدته عن قداح السياسة آفات مختلفات، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط[1] فى أشراك وقعات؛ فقد بجامع مالقة، ثم بمسجد الحمراء، ملقيا على الكرسى فنونا جمة، وعلوما لم يزل يتلقاها عن أولياء التعظيم والتجلة، فانحاز إلى مادة أمم بمالقة طما منهم البحر، وتراءى لأبصارهم وبصائرهم الفخر؛ وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه، وما [كان][2] قيده وحصله أيام قراءته [وإقرائه][3]؛ فما شئت من بيان، وإعجاز قرآن؛ وآيات توحيد وإخلاص، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص، يوم الأخذ بالنواص. مرارًا عدة سمع ما يلقيه ولى الأمر ويا شدة البلوى التى أذاقه مرها، وأمطاه إلى طية الهلاك ظهرها، ويا قرب ما كان الفوت، والحسام الصلت، من تباعد هذه القرب التى ألغيت[4].

قلنا[5]: لقد جمع جواد القلم، فأطلقنا[6] ونحن نشير إلى هذا الرئيس وتبدل طباعه، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاعه؛ وإحراز شيم أدت إلى علو مقداره، واستقامة مداره؛ فآل عمر مولانا جدنا إلى النفاد، ورمت رئيس كتابه هذا أسهم الحساد؛ فظهر الخفى، وسقط به الليل على سرحان قد طالما جرب الوفى والصفى.

---

(١) فى الأصل: «أنه متخبط» والمثبت رواية نفح الطيب ٧/ ٢١٨.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ٢١٨.

(٣) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

(٤) فى الأصل: «التى ألفيت» وبهامشه: «وفى العبارة غموض» والمثبت من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

(٥) نفح الطيب ج٧ ص ١٦٨.

(٦) يعنى أطلقنا له العنان.

وكـان من شـأنه الاسـتـخفـاف بأوليـاء الأمـر من حـجـاب الدولة، والاسترسال فى الرد عليـهم بالطبع والجـبلة مع الاستـغراق فى غمـار الفتن أندلسًا وغـربًا، ومراعاة حظوظ نفسـه استيلاء وغـصبا؛ أما الجراءة فـانتضى سيوفها، وأما إكفاء السـماء على الأرض فقواصم نوع صنوفها، وأما المجاهدة فوقف بميدان الاعتراض صفوفهـا، وأما المجاملة فنكر معروفها. أدَّاه هذا النبأ العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة ألمرية، وعلى الأثر كان الفرج قريبا، وسطور المؤاخذة قـد أوسعها العـفو تضريبًـا. ونالته هذه المحنة عند وفاة مـولانا الجد الغنى بالله وكـانت وفاته غرة شـهر صفـر عام ثلاثة وتسـعين وسـبع مائة - لأسـباب يطول شـرحهـا، أظهرها شـراسة فى لسـانه، واغتـرار[1] بمكانه، وتضريـب بين خدام السلكان وأعـوانه، فكبا لليـدين وللفم، إلى أن منَّ الله يسراحه، وأعاده إلى الحضرة فى أوّل شهـر رمضان المعظم عام أربعة وتسعين وسبع مـائة، فكان ما كان من وفـات مولانا الوالد رحـمه الله، وقيـام أخينا [محمّد][2] مقامه بالأمر، فاستمر الحـال أياما قلائل، وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام، ثم أعـاد المذكور إلى خطته، وقد دمـثت بعض أخلاقه، وخمدت شراسته. وحلا بعض مذاقه، فما كان إلاّ كلا ولَيتْ، وإِذَابِهِ قد ساء مشـهدًا وغيـبًا، وأوسع الضـمائر شكا وريبا، وغلبت الإحـن عليه. وغلت مراجلها لديه؛ وصار يتقلب على جمر الغضى، وتبرم بالقضا؛ ويظهر النصح وفى طيه التشفى، ويسم نفسه بالصلاح، ويعلن بالخشوع، ويشير بأنه الناصح الأمـين، ويتلـو قـول الله سـبـحـانه: ﴿ ...وَلَكِن لاَّ تُحِبُّـونَ النَّاصِـحِينَ (٧٩) ﴾

(١) فى الأصل: «واعتزاز» والمثبت رواية نفح الطيب ج٧ ص ١٦٩.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٩.

[الأعراف]. ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوبًا لم يقترفوها، ونسب إليهم نسبا من التضييع لم يعرفوها، وانهم احتجنوا الأموال، وأساءوا الأعمال والأقوال؛ فلم يظفر من ذلك بكبير طائل، ولا حصل على تفاوت أعداده على حاصل؛ هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية، وعدم اضطلاعه بالأمور [الجبائية][1] فمن نفس يروع سرابها، ويكدر بالامتحان والامتهان شربها؛ ومن ضارعة خاشعة لله سلبت، وطولبت بغير ما اكتسبت، وتعدت الأيدى إلى أقوام جلة سعدوا بشقائه، وامتحنوا وهم المبرءون من تزويره واعتدائه وسيسألون يوم لا يغنى مال ولا بنون؛ وصار يصرف أغراضه، ويظهر أحقاده بين إفصاح بما كان الإعجام خيرًا من إلقائه، وأن عمر المسكين المستضعف لا حاجة فى طول بقائه؛ إلى مجاهرة عهد منه أيام شبيبته نقيضها، وانعكس فى شاخته تصريحها المنغص وتعريضها؛ لا يريح نفسه من جهد ولا يقف من اللجاجة عند حَدّ. وقد كان ثقل سمعه فساءت إجابته وطغت أخلاقه فسئم الناس وساطته وربما استحلف؛ فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلاّ الحنث عن قصد وغير قصد، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعد وأن يقيض الله ولهم قاتل عمد. فسبحان القاهر فوق عباده، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده.

فاستمر[2] على ذلك إلى إحدى الليالى، فهلك [فى جنح الليل][3] فى جوف داره على يدى مخدومه؛ تلقاه - زعموا - عند الدخول عليه وهو بالمصحف رافع به يديه؛ فجدَّلته السيوف، وتناولته الحتوف؛ فقضى عليه

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٦٩.

(٢) النفح ٧/ ١٧٠.

(٣) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٠.

وعلى من وجد من خدامه وابنيه: كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته، ولم يتقوا الله فيه حق تقاته؛ فكانت أنكى الفجائع وأفظع الوقائع؛ وساءت القالة وعظم المصاب وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب[1].

ولمّا تلخصت هذه المقدمة بين يدى نظامه، وتم جميع ما أبرزه البحث والاجتهاد من خير كلامه؛ اخترنا له اسمًا يوافقه، ويوضح مشارقه، وهو «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك». أما البقية فلما بقى بعد هلاكه وتخطته الحوادث وشح الدهر بإمساكه؛ والمدرك: لأجل ما ترك فى مبيضاته، ولم يخرجه فى حياته. وهانحن ننظم درره الرائقة ونطلع فى مراتب التأليف كل شارقة.

فمن ذلك قوله[2] فى ذكر غرناطة العلية، وتهنئة مولاه الجد رحمه الله عليه ببعض المواسم العيدية؛ ووصف كرائم من جياده وآثار ملكه وجهاده:

يا من يحن إلى نجد ونـاديهـا ... غرناطة قد ثوت نجد بواديهـا

قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها ... عقيلة والكثيب الفرد جاليها

تقلدت بوشاح النهر وابتسمت ... أزهارها وهى حلى فى تراقيها

وأعين النرجس المطلول يانعة ... ترقرق الطل دمعًا فى مآقيها

وافْتَرَّ ثغر أقاحٍ من أزهارها ... مقبلاً خد وردٍ من نواحيها

[كأنما الزهر فى حافاتها سحرًا ... دراهم والنسيم اللدن يَجْبيها][3]

---

(١) بعدها فى نفح الطيب: «انتهى كلام ابن الأحمر فى كتابه» وهو الذى سبق باسم «البقية والمدرك من شعر ابن زمرك».

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٧١.

(٣) ما بين حاصرتين تكملة من نفح الطيب.

وانظر إلى الدوح والأنهار تكنفها [مثل الندامى سواقيها][1] سواقيها

كم حولها من بدور تجتنى زهرا فتحسبت الزهر قد قبلن أيديها

حصباؤها لؤلؤ قد شف جوهره والنهر قد سال ذوبا من لآليها

[نهر المَجَرَّة][2] والزهر المطيف به زهر النجوم إذا ما شئت تشبيها

يزيد حسنًا على نهر المجرة قد أغناهه در حبابٍ عن درارِيها

يدعى المنجم رائيه وناظره مسمياتٍ أبانتها أساميها

إنَّ الحجاز مغانيه بأندلسٍ ألفاظها طابقت منها معانيها

فتلك نجد سقاها كل منسجم [من الغمام يحييها فيحيها][3]

[وبارق وعذيب كل مبتسم][4] من الثغر يحليها مجليها

وإن أردت ترى وادى العقيق فرد دموع عشاقها حمرًا جواريها

وللسبيكة تاج فوق مفرقها تود در الدرارى لو تحليها

كأن حمراءها والله يكلؤها ياقوتة فوق ذاك التاج يعليها

إنَّ البدور لتيجان مكللة جواهر الشهب فى أبهى مجاليها

لكنها حسدت تاج السبيكة إذ رأت أزهاره زهرًا يجليها

بروجها لبروج الأفق مخجلة فشهبها فى جمال لا تضاهيها

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١.

(٣) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١.

(٤) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧١.

تلك القصـور التى راقت مظاهرها تهوى النجـوم قصورًا عن معـاليها
لله لله عـينـا من رأى سـحـرًا تلك المنارة قـد رقت حـواشـيـهـا
والصبح فى الشرق قد لاحت بشائره والشهب تستن سـبقًا فى مجـاريها
تهوى إلى الغـرب لما هالها سـحر وغمض الفجر من أجـفان واشيها
وسـاجع العـود فى كف النديم إذا ما استوقفت ساجعات الطير يغريها
يبـدى أفـانين سـحـر فى ترنمه يصبى العقـول بها حسنا ويسبـيها
يجـسـه ناعم الأطراف تحـسبـهـا لآلئـا وهـى نور فى تلالـيـهـا
مـقاتـل بلحاظٍ قـوس حـاجـبهـا ترمى القلوب بها عـمدًا فتصمـيها
فـباكـر الروض والأغـصان مـائلة يثنى النفـوس لهـا شـوقا تثنـيهـا
لم يرقص الدوح بالأكـمام من طرب حتى شـدا من قيان الطير شـاديها
وأسمـعتـها فنون السحـر مبـدعة ورق الحـمـام وغناها مـغنيـهـا
غـرناطة آنس الرحـمن سـاكنهـا باحت بسـر مـعـانيـها أغـانيـهـا
أعـدى نسيـمـهم لطفـا نفوسـهم فـرقـة الـطبع طبع منه يعـديهـا
فـخـلد الله أيام السـرور بـهـا صـفرًا عـشيـاتهـا بيضًـا ليـاليهـا
وروض المحل منهـا كـل منبـجسٍ إذا اشـتكت بغليل الجدب يرويهـا
يحكى الخليـفة كـفا كلمـا وكفت بالجود فوق موات الأرض يحـييها
تغنى العُـفـاة وقـد أمت مكارمـه عن السـؤال وبالإحـسان تغنـيهـا
لهـا بنان فـمـا غـيث يسـاجلهـا جـودًا ولا سحـبـه يوما تـدانيهـا

فإن تصب سحبه بالماء حين همت ... بسجد ولُجينٍ صاب هاميها

يأيها الغيث أنت الغوث فى زمن ... ملوكه تلفت لولا تلافيها

إنَّ الرعايا جزاك الله صالحة ... ملكت شرقا وغربا من يراعيها

إنَّ الخلائق فى الأقطار أجمعها ... سوائم أنت فى التحقيق راعيها

فكل مصلحة للخلق تحكمها ... وكل صالحة فى الدين تنويها

إذا تيممت أرضًا وهى مجدبة ... فرحمة الله بالسقيا تحييها

يا رحمة بثت الرُّحْمَى بأندلس ... لولاك زلزلت الدنيا بمن فيها

فى فضل جودك قد عاشت مشيختها ... فى ظل أمنك قد نامت ذراريها

فى طول عمرك يرجو الله آمالها ... بنصر ملكك يدعو اللهَ داعيها

عوائد الله قد عودت أفضلها ... لتبلغ الخلق ما شاءت أمانيها

سل السعود وخل البيض مغمدة ... واضرب بها فرية التثليث تفريها

لله أيامك الغر التى اطردت ... فيها السعود بما ترضى ويرضيها

لله دولتك الغراء إن لها ... لكافلاً من إله العرش يكفيها

هيهات أن تبلغ الأعداء مأربة ... فى جريها وجنود الله تحميها

هذى سيوفك فى الأجفان نائمة ... والمشركون سيوف الله تفنيها

سريرة لك فى الإخلاص قد عرفت ... حسنى عواقبها حتى أعاديها

لم تحتجب شهب الآفاق عن بصر ... إلاّ وهديك الأبصار يهديها

يا بن الملوك وأبناء الملوك إذا ... تدعو الملوك إلى طوع تلبيها

أبناء نصـــر ملوك عـــز نصـــرهم وأوسـعوا الخلق تنويـها وترفـيها
هم المصـــابيح نور الله مـوقـــدها تضئ للدين والدنـيا مـشـاكـيها
هم النجـوم وأفق الهدى مطلعـها فـوزا لمـهـديها عـــزا لهـاديـها
هم البـدور كـمـال ما يـفارقـها هم الشـمـــوس ظلام لا يواريها
قضت قـواضيها أن لا انقضـاء لها وأمضت الحكم فى الأعداء مـواضيها
وخلدت فى صفـاح الهند سيـرتها وأسنت عن عـواليـها مـعاليـها
وأورثتك جـــهـــادًا أنت ناصـــره والأجـر منك يرضيـها ويحظيها
كم موقف ترهـب الأعداء موقـفه والخيل تـردى ووقع السمر يـرديها
ثارت عجـاجته والـيوم محـتجب والنقع يؤثر غـمـا من دياجـيـها
وللأسنة شـــهب كلـمـا غـــربت فى الدارعـين تجلت من عـواليها
وللســـيـــوف بريق كـلمـــا لمعت تزجى الدماء وريح النصر يزجـيها
أطلعت وجهًا تريـك الشمس غرته تبـارك الله مـا شـمس تسـاميـها
من أين للشـمس نُـطْق كله حكم يعـيـدها كل حيـن منك مبـديها
لك الجـيـاد إذا تجـرى سـوابقـها فللريـاح جـيـــاد مـــا تجـاريهـــا
إذا انبـرت يوم سـبق فى أعنتـها ترى البـروق طلاحًـا لا تبـاريها
من أشهب قـد بدا صبـحا تراع له شهب السمـاء فإنَّ الصبح يخفـيها
إلاّ التى فى لجـــام منه قـــيـــدها فـإنـه سـامـهـــا عـزًا وتنويـها

أو أشقر مَرَّعن[1] شقر البروق وقد أبقى لهـا شفـقا فـى الجو تنبـيهـا

أو أحمـر جمره فـى الحرب متـقد يعلو لهـا شرر مـن بأس مذكـيهـا

لون العقـيق وقد سال العقـيق دما بعطفـه من كـمـاة كَـرّ يدمـيـهـا

أو أدهم مـــثل صـدر الليل تـنعله أهله فـوق وجـه الأرض يبـديهـا

إن حارث الشـهب ليلا فى مـقلده فـصـبـح غـرته بالنور يهـــديهـا

أو أصفـر بالعشيات ارتدى مـرحًا وعـرفـه بتـمـادى الليل ينبـيـهـا

مموهٍ بـنضـــار تاه مـن عـــجب فليس يـعـدم تمويهـــا ولا تيـــهـا

ورُبَّ نهـــر حـســـام راق رائقـــه مـتى ترده نفـوس الـكفـر يرديهـا

تجرى الرءوس حبابًا فـوق صفحته وما جـرى غيـر أنَّ البأس يجـريها

وذابل من دم الـكفـار مـــشـــربه يجنى الفتـوح وكف النصر تجنيـها

وكم هلال لقـوس كـلمـا نبـضت ترى النجـوم رجوما فى مـراميـها

أئمـة الكفر مـا يمـمت ساحـتهـا إلاّ وقد زلزلت قـسرا صـياصيـها

يا دولة النصـر هل من مـبلغ دولاً مَـضَيْـن أنك تحيـيـهـا وتنسـيهـا

[أو مـبلغ سالف الأنـصار مَـألُكَةً والله بالخلد فى الفردوس يجزيها][2]

أنَّ الخـلافـــة أعلى الله مظهـــرها أبقت لنا شـــرفًـا والله يبـقـيـهـا

يا بن الذيـن لهم فى كل مكرمـــة مـفـاخـر ولسـان الدهر يمليـهـا

---

(١) فى الأصل: «أو أشـقر مُـرْعِبٍ شقـر» ولا وجه له. والمثبت رواية نفح الطيب ج٧ ص ١٧٤.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٥.

أنصار خير الورى مختار هجرته ... جيران روضته أكرم بأهليها

أسمتهم الملة السمحاء تكرمة ... أنصارها وبهم عزت أواليها

ففى حنين وفى بدر وفى أحد ... تلفى مفاخرهم مشهورةً فيها

ولتسأل السير المرفوع مسندها ... فعن مواقفهم تروى مغازيها

مآثر خلد الرحمن أثرتها ... [ينصُّها][1] من كتاب الله قاريها

ماذا يجيد بليغ أو ينمقه ... من الكلام ووحى الله تاليها

له الجهاد به تسرى الرياح إلى ... ممالك الأرض من شتى أقاصيها

تحدى الركاب إلى البيت العتيق به ... فمكة عمرت منه نواديها

بشائر تسمع الدنيا وساكنها ... إذا دعا باسمك الأعلى مناديها

كفى خلافتك الغراء منقبة ... أنَّ الإله يوالى من يواليها

وقد أفاد بنيه الدهر تجربة ... أنَّ السعود تعادى من يعاديها

إذا رميت سهام العز صائبة ... فما رميت بل التوفيق راميها

شكرًا لمن عظمت منا مواهبه ... وإن تعد فليس العد يحصيها

عما قريب ترى الأعياد مقبلة ... من الفتوح ووفد النصر حاديها

وتبلغ الغاية القصوى بشائرها ... فقد أظلت بما ترضى مباديها

فاهنأ بما شئت من صنع تُسَرّ به ... وانو الأمانى فالأقدار تدنيها

مولاى خذها كما شاءت بلاغتها ... ولو تباع لكان الحسن يشريها

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٥.

أرسلتـها حـيثـما الأرواح مـرسلة نوادرا تنشـر البـشـرى أهاليـهـا
جاءت تهنيك عـيد الفطر معجـبة بحـسنهـا ولسان الصـدق يطريهـا
البشر فى وجهـها واليمن فى يدها والسحر فى لفظهـا والدر فى فيها
لو رصع البـدر منهـا تاج مـفرقـه لم يرض در الدرارى أن تحلـيـهـا
فإن تكن بنت فـكرى وهو أوجدها نعـماك فى حـجره كـانت تربيهـا
فى روض جـودك قـد طوقنى مننا طوق الحمـام فما سجـعى موفيـها
ولو أعـرت لسـان الدهـر يشكرها لكان يقـصـر عن شكر يوفـيـهـا
بقـيت للديـن والدنيـا إمـام هدى مـبلغ النفس مـا ترجـو أمانـيهـا
والسـعد يـجرى لغـايات تؤملهـا ما دامت الشمس تجـرى فى مجاريها

ومن ذلك أيضًا قوله هناء لمولانا الجد رحمه الله بالفتح المغربى للسلطان أبى العباس بن السلطان أبى سالم المرينى[1]:

هى نفـحـة هبت من الأنصـار أهدتك فـتح ممالـك الأمـصـار
فى بشـائرها وبـشـارة الدنيـا بهـا مـسـتـمـتع الأسـمـاع والأبصـار
هبت على قطر الجـهـاد فـروحت أرجـاءه بالنـفـحـة المعـطار
وسـرت وأمـر الله طـى برودها يهـدى البـرية صنع لطف البـارى
مـرت بأدواح المنـابر فـانبـرت خطبـاؤها [مـفـتنة][2] الأطيـار

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٧٢.
(٢) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٣.

حنت معارجها إلى أعشارها ... لما سمعن بها حنين عشار

لو أنصفتك لكللت أدواحها ... تلك البشائر يانع الأزهار

فتح الفتوح أتاك فى حلل الرضا ... بعجائب الأزمان والأعصار

كم آيةٍ لك فى السعود جليَّةٍ ... خلدت منها عبرة استبصار

كم حكمة لك فى النفوس جليَّةٍ ... خفيت مداركها عن الأفكار

كم من أمير أم بابك فانثنى ... يدعى الخليفة دعوة الإكبار

أعطيت أحمد راية منصورة ... بركاتها تسرى من الأنصار

أركبته فى المنشآت كأنما ... جهزته فى وجهة لمزار

من كل خافقة الشراع مصفقٍ ... منها الجناح تطير كل مطار

ألقت بأيدى الريح فضل عنانها ... فتكاد تسبق لمحة الأبصار

مثل الجياد تدافعت وتسابقت ... من طافح الأمواج فى مضمار

لله منها فى المجاز سوابح ... وقفت عليك الفخر وهى جوارى

لما قصدت بها مراسى سبتة ... عطفت على الأسوار عطف سوار

لما رأت من صبح عزمك غرة ... محفوفة بأشعة الأنوار

ورأت جبينا دونه شمس الضحى ... لبّتك بالإجلال والإكبار

فأفضت فيها من نداك مواهبا ... حسنت مواقعها على التكرار

وأريت أهل الغرب عزم مغرب ... قد ساعدته غرائب الأقدار

وخطبت من فاس الجديدة عقيلة ... لبتك طوع تسرع وبدار

ما صدقوا متن الحديث بفتحها حتى رأوه فى متون شفار

وتسمعوا الأخبار باستفتاحها والخبر قد يغنى عن الأخبار

قولوا لقرد فى الوزارة غره حلم مننت به على مقدار

أسكنته من فاس جنة ملكها متنعما منها بدار قرار

حتى إذا كفر الصنيعة وازدرى بحقوقها ألحقته بالنار

جرعت نجل الكأس كأسا مرةً دست إليه الحتف فى الإسكار

كفر الذى أوليته من نعمة لا تأنس النعماء بالكفّار

فطرحته طرح النواة فلم يفز من عز مغريه بغير فرار

لم يتفق لخليفة مثل الذى أعطى الإله خليفة الأنصار

لم أدر والأيام ذا عجائب ترادها يحلوا على التذكار

ألواء صبح فى ثنيه مشرق أم راية فى جحفل جرار

وشهاب أفق أم سنان لامع ينقض نجما فى سماء غبار

ومناقب مولى الإمام محمّد قد أشرقت أم هن زهر درارى

فاق الملوك بهمة علوية من دونها نجم السماء السارى

لو صافح الكف الخضيب بكفه فخرت بنهر للمجرة جارى

والشهب تطمع فى مطامع أفقها لو أحرزت منه منيع جوار

سل بالمشارق صبحها عن وجهه يفتر منه عن جبين نهار

سل بالغمام صوبها عن كفه ... [تنبيك عن بَحْرٍ بِهَا زخار][1]

[سل بالبروق صفاحها عن عزمه][1] ... تُخبرك عن أمضى شبا وغرار

قد أحرز الشيم الخطيرة عندما ... أمطى العزائم صهوة الأخطار

إن يلق ذو الإجرام صفحة صفحه ... فسح القبول له خطا الأعمار

يا من إذا هبت واسم حمده ... أزرت بعرف الروضه المعطار

[يا من إذا افترت مباسم بشره ... وهب النفوس وعاش فى الإقتار][2]

يا من إذا طلعت شموس سعوده ... تعشى أشعتها قوى الأبصار

قسما بوجهك فى الضياء وإنه ... شمس تمد الشمس بالأنوار

قسما بعزمك فى المضاء وإنه ... سيف تجرده يد الأقدار

لسماح كفك كلما استوهبته ... يزرى بغيث الديمة المدرار

لله حضرتك العلية لم تزل ... يلقى الغريب بها عصار التسيار

كم من طريد نازح قذفت به ... أيدى النوى فى الفقر رهن سفار

بلغته ما شاء من آماله ... فسلا عن الأوطان بالأوطار

صيرت بالإحسان دارك داره ... متعت بالحسنى وعقبى الدار

والخلق تعلم أنك الغوث الذى ... يضفى عليها وافى الأستار

كم دعوة لك فى المحول مجابة ... أغرت جفون المزن باستعبار

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٤ .

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٤ .

جادت[1] مجارى الدمع من قطر الندى فرعى الربيع لها [حقوق الجار][2]

فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا متضاحكا بمباسم النوار

يا من مآثره وفضل جهاده تحدى القطار بها إلى الأقطار

حطت البلاد ومن حوته ثغورها وكفى بسعدك حاميا لذمار

فلرب بكر للفتوح خطبتها بالمشرفية والقنا الخطار

وعقيلة للكفر لما رعتها أخرست من ناقوسها المهذار

أذهبت من صفح الوجود كيانها ومحوتها إلاّ من التذكار

عمروا بها جنات عدن زخرفت ثم انثنوا عنها ديار بوار

صبحت منها روضة مطلولة فأعدتها للحين موقد نار

واسودّ وجه الكفر من خزى متى ما احمر وجه الأبيض البتار

ولرب روض للقنا متأود ناب الصهيل به عن الأطيار

مهما حكت زهر الأسنة زهره حكت السيوف معاطفها الأنهار

متوقد لهب الحديد بحدِّه تصلى به الأعداء لفح أوار

فبكل ملتفت صقال مشهر قداح زند للحفيظة وارى

فى كف أروع فرق نهد سابح متموج الأعطاف فى الإحضار

من كل منحفز بلمحة بارق حمل السلاح به على طيار

من أشهب كالصبح يطلع غرة فى مستهل العسكر الجرار

(١) فى الأصل: «جارت» والمثبت من نفح الطيب.

(٢) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٥.

أو أدهم كالليل إلاّ أنه ... لم يرض بالجوزاء حلى عذار

أو أحمر كالجمر يذكى شعلة ... وقد ارتمى من بأسه بشرار

أو أشقر حلى الجمال أديمَه ... وكساه من زهو جلال نضار

أو أشعل راق العيون كأنه ... غلس يخالط سدفة بنهار

شهب وشقر فى الطراد كأنها ... روض تفتح عن شقيق بهار

عودتها أن ليس تقرب منهلا ... حتى يخالط [بالدم الموار][1]

يأيها الملك الذى أيامه ... غرر تلوح بأوجه الأعصار

يهنى لواءك أن جدك زاحف ... بلواء خير الخلق للكفار

لا غرو أن فقت الملوك سيادة ... إذ كان جدك سيد الأنصار

السابقون الأولون إلى الهدى ... والمصطفون لنصرة المختار

متهللون إذا النزيل عراهم ... سفروا له عن أوجه الأقمار

من كل وضاح الجبين إذا احتبى ... تلقاه معصوبا بتاج فخار

قد لاث صبحا فوق بدر بعدما ... لبس المكارم وارتدى بوقار

فاسأل ببدر عن مواقف بأسهم ... فهم تلافوا أمره ببدار

لهم العوالى عن معالى فخرها ... نقل الرواة عوالى الأخبار

وإذا كتاب الله يتلو حمدهم ... [أودى القصور بمنة الأشعار

يا بن الذين إذا تذوكر فخرهم ... فخروا بطيب أرومة ونجار

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٥ .

حقا لقد أوضحت من آثارهم][1] لمّا أخذت لدينهم بالثار

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم ومشرف الأعصار والأمصار

صادرا فى الفتح عن ورد المنى رِدْ ناجح الإيراد والإصدار

واهنأ بفتح جاء يشتمل الرضا جذلان يرفل فى حلى استبشار

وإليكها ملء العيون وسامة حييتك بالأبكار من أفكارى

تجرى حداة العيس طيب حديثها يتعللون به على الأكوار

إن مسهم لفح الهجير أبلهم منه نسيم ثنائك المعطار

وتميل من أصغى لها فكأننى عاطيته منها كئوس عقار

قذفت بحور الفكر منها جوهرا لما وصفت أنامِلا ببحار

لا زلت للإسلام سترا كلما أمّ الحجيج البيت ذا الأستار

وبقيت يا بدر الهدى تجرى بما شاءت علاك سوابق الأقدار

انتهى ما تعلق به الغرض من هذا التأليف الملوكى وقد أتيت به بحروفه من أوله إلى هذا الموضع وتتبعه يطول ولكنى أنتقى منه نبذة زائدة على ما سبق من مواضيع شتى فنقول:

قال المؤلف رحمه الله: ومن ذلك[2] أثناء وجهه مولانا الجد رحمه الله لتجديد الدولة الأحمدية صدر عام تسعة وثمانين وسبع مئة:

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٥.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ١٧٧.

هب النسيم على الرياض مع السحر فاستيقظت فى الدوح أجفان الزهر
ورمى القضيب دراهما من نوره فاعتاض من طل الغمام بها درر
نثر الأزهار بعد ما نظم الندى يا حسن ما نظم النسيم وما نثر
قم هاتها والجو أزهر باسم شمسا تحل من الزجاجة فى القمر
إن شجها بالماء كف مديرها ترمى من شهب الحباب بها شرر
نارية نورية من ضوئها يقد السراج لنا إذا الليل اعتكر
لم يبق منها الدهر إلاّ صبغة قد أرعشت فى الكأس من ضعف الكبر
من عهد كسرى لم يفض ختامها إذ كان يذخر كنزها فيما ذخر
كانت مذاب التبر فيما قد مضى فأحالها ذوب اللجين لمن نظر
جدد بها عرس الصبوح فإنها بكر تحييها الكرام مع البكر
وابلل بها رَمَقَ[1] الأصيل عشية والشمس من وعد الغروب على خطر
محمرة مصفرة قد أظهرت خجل المريب يشوبه وجل الحذر
من كف شفاف تجسد نوره من جوهر لألاء بهجته بهر
تهوى البدور كمالها وتود أن لو أوتيت منه المحاسن والغرر
قد خط عذاره فى خده قلمان من آس هناك ومن شعر
والى عليك بها الكئوس وربما يسقيك من كأس الفتور إذا فتر
سكر الندامى من يديه ولحظه متعاقب مهما سقى وإذا نظر

(١) فى الأصل: «ريق» والمثبت رواية نفح الطيب ج٥ ص ١٧٨.

حيث الهديل مع الهدير تناغيا ... فالطير تشدو فى الغصون بلا وتر

والقضب مالت للعنان كأنها ... وفد الأحبة قادمين من السفر

متلاعبات فى الحلى ينوب فى ... وجناتهن الورد حسنا عن خفر

والنرجس المطلول يرنو نحوها ... بلواحظ دمع الندى منها انهمر

والنهر مصقول الحسام متى يرد ... درع الغدير مصفقا فيه [صدر][1]

تجرى على الحصباء وهى جواهر ... متكسرا من فوقها مهما عثر

هل هذه أم روضة البشرى التى ... فيها لأرباب البصائر معتبر

لم أدر من شغف بها وبهذه ... من منها فتن القلوب ومن سحر

جاءت بها الأجفان[2]ملء ضلوعها ... ملء الخواطر والمسامع والبصر

ومسافر فى البحر ملء عنانه ... وافى مع الفتح المبين على قدر

قادته نحوك بالخطام كأنه ... جمل يساق إلى القياد وقد نفر

وأراه دين الله عزة أهله ... بك يا أعف القادرين إذا قدر

يا فخر أندلس وعصمة أهلها ... لله سرٌّ فى اختصاصك قد ظهر

كم معضل من دائها عالجته ... فشفيت منه بالبدار وبالبدر

ماذا عسى يصف البليغ خليفة ... والله ما أياميه إلاّ غرر

ورثت هذا الفخر يا ملك الهدى ... عن كل من آوى النبى ومن نصر

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٨ .

(٢) الأجفان: المراكب.

من شاء يعـرف فخرهم وكـمالهم فليـتل وحى الله فـيـهم والسـيـر
أبنـاؤهم أبناء نـصـــر بعـــدهم بسـيـوفهم ديـن الإله قد انتـصـر
مـولاى سعـدك والصـباح تشـابه وكلاهمـا فى الخافقـين قد اشتـهر
هذا وزير الـغـــرب عـــبـــد آبق لم يلف غيرك فى الشدائد من وزر
كـفـر الـذى أوليـتـه من نعـــمـة والله قـد حـتم العذاب لمن كـفـر
إن لم يمت بالسـيف مات بغـيظه وصلى سـعـيـرا للتـأسف والفكر
ركب الفـــرار مطيـة ينجـــو بهـا فجرت به حـتى استقر علـى سقر
وكـذا أبو حـمـو وكان حِـمـامـه قد حم وهـو فى الحياة عـلى غرر
بلغـتـه - والله أكـــبـر شـاهد - مـا شـاء من وطن يعـز ومن وطر
حـتى إذا جـحـــد الذى أوليـتـه لم تبـق منه الحـــادثـات ولم تذر
فى حـــاله واللهِ أعـظمُ عـــبـــرة لله عـبد فـى القضـاء قـد اعـتبـر
فـاصـبـر تنل أمـثـالهـا فى مـثله إنَّ العواقـب فى الأمور لمن صـبر
رد حيث شـئت مسـوغا ورد المنى فالله حسـبك فى الورود وفى الصَّدَر
لا زلت مـحـروسـا بعـين كـلاءة ما دام عين الشـمس تعشى من النظر

ومنها، وقـد أضاف إلى ذلك من التـغزل طوع بداره، وحـجة اقـتداره فقال:

والعـود فى كف الـنديم بسـر مـا تلقى لنا منه الأنامل قـد جهـر[1]

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٧٩.

غنى عليه الطير وهو بدوحه والآن غنى فوقه ظبى أغر

عود ثوى حجر القضيب رعى له أيام كانا فى الرياض مع الشجر

لا سيما لما رأى من ثغره زهرا وأين الزهر من تلك الدرر

ويظن أن عذاره من آسه ويظن تفاح الخدود من الثمر

يسبى القلوب بلفظه وبلحظه [وَافِتْنَتِى][1] بين التكلم والنظر

قد قيدته لأنسنا أوتاره كالظبى قيد فى الكناس إذا نفر

لم يبل قلبى قبل سمع غنائه بمعذر سلب العقول وما اعتذر

جس القلوب بجسه أوتاره حتى كأن قلوبنا بين الوتر

نمت لنا ألحانه بجميع ما قد أودعت فيه القلوب من الفكر

يا صامتا والعود تحت بنانه يغنيك نطق الخُبْر فيه عن الخَبَر

أغنى غناؤك عن مدامك يا ترى هل من لحظك أم بنانك ذا السكر

باحت أناملك الِّلدانُ بكل ما كان المتيم فى هواه قد ستر

ومقاتل ما سل غير لحاظه والرمح هز من القوام إذا خطر

دانت له منا القلوب بطاعة والسيف يملك ربه مهما قهر

ثم قال بعد إيراد جملة من كلامه:

وقال شاكرا لنعمة وصلته من مولانا رحمه الله عليه فى عاشوراء:

مولاى يابن السابقين إلى العلا والرافعين لواءها المنشورا

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ١٧٩.

إن لوحقوا فى المعلوات فإنهم طلعوا بآفاق العلاء بدورا
أو فوخروا فى المكرمات فإنهم نظموا بأسلاك الفخار شذورا
أبناء أنصار النبى وصحبه فى الذكر أصبح فجرهم مذكورا
والمؤثرين وربنا أثنى بها فى الحشر خلد وصفهم مسطورا
فاضت علينا من نداك غمائم وتفجرت من راحتيك بحورا
من كف شفاف الضياء تخاله لصفاء جوهره تجسد نورا
نِعَمٌ منوعة تعدد وفرها أعجزت عنها شكرى الموفورا
فى موسم للدين قد جددته وأقمت فينا عيده المشهورا
أضعاف ما أهديتنا من منة تهدى إليك ثوابها عاشورا
وعلى الطريق بشائر محمودة ألقاك جذلانا بها مسرورا

ثم قال: ومن لفظه فى وصف القرنفل الصعب الاجتناء بجبل الفتح وقد وقع له مولانا الغنى بالله بذلك فارتجل قطعا منها:

أتونى بنوار يروق نضارة كخد الذى أهوى وطيب تنفسه
وجاءوا به من شاهق متمنع تمنع ذلك الظبى فى ظل مسكنه
رعى الله منى عاشقا متقنعا بزهر حكى فى الحسن خد مؤنسه
وإن هب خفاق النسيم بنفحة حكت عرفه طيبًا قضى بتأنسه

ومنها:

رعى الله زهرًا ينتمى لقرنفل حكى عرف من الهوى وإشراق خده

ومنبتــــه فى شـاهق مـــتـــمنع كـمـا امتنـع المحبـوب فى صـده
أميل إذا الأغـصان مـالت بروضة أعـانق منها القـضب شـوقًا لقـده
وأهفـو لخـفاق النسـيم إذا سـرى وأهوى أريج الطيب من عـرف نده

ومنها:

يقـر بـعـينى أنَّ أرى الزهر يـانعًـا وقد نازع المحبوب فـى الحسن وصفه
ومـا أبصرت عـينى كزهر قـرنفل حكى خد من يسبى الفـؤاد وعرفه
تمنع فـى أعلى الهـــضـــاب لمجتنٍ تمنـعـــه منـى إذا رمت إلـفـــه
وفى جـبل الفـتح اجـتنوه تفـاؤلا بفـتح لبـاب الوصل يمنح عطفـه
[وما ضـر ذاك الغصن وهو مـرنح إذا مـا ثنى نحو المـتيم عطفـه][1]

ثم قال[2]: ومن قصـائده التى يود الصباح سناها، والنسـيم اللدن رقة معناها يهنئ مـولانا الجد رضى الله عنه، عند وصول خالصـة مقامه، وكـبير خدامه، القائد خالد، رحمه الله تعالى، من تلمسان بالهدية، وتجديد المقاصد الودية، ووافق استئناف راحة من الذات العلية، ومن فروع دوحتها الزكية:

أدرها ثلاثا من لحـــاظك واحـبس فقد غـال منها السُّكر أبناء مجلس
إذا ما نهانى الشيب عن أكؤس الطلا تدير علىَّ الخـمـــر منهـا بأكـؤس
عذيرى من لحظ ضعـيف وقد غدا يُحكَّـم منا فى جـســـوم وأنفس
وروض شبـاب ماس غصن قـوامه وفـتح فـيـه اللـحظ أزهار نرجس

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٧.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٧٨.

وما زال ورد الخد وهو مضعف ... يعير أقاح الثغر طيب تنفس

وكم جال الطرف فى روض حسنه ... يقيده فيه العذار بسندس

أما وليالى الوصل فى روضة الصبا ... ومألف أحبابى وعهد تأنسى

لئن نسيت تلك العهود أحبتى ... فقلبى عهود العامرية ما نسى

وحاشا لنفسى بعد ما افتر فودها ... من الشيب عن صبح به متنفس

وألبسها ثوب الوقار خليفة ... [به لبس الإسلام أشرف ملبس][1]

وجدد للفتح المبين مواسما ... أقام بها الإيمان أفراح معرس

وأورثه العلياء كل خليفةٍ ... نماه إلى الأنصار كل مقدس

فيا زاجر الأظعان وهى ضوامر ... بغير الفلا والوحش لم تتأنس

إذا جئت من دار الغنى بربه ... مناخ العلا والعز فانزل وعرس

فإن شئت من بحر السماحة فاغترف ... وإن شئت من نور الهداية فاقبس

أمولاى والى السعد منك ولاية ... أنارت بها الأكوان جذوة مقبس

إذا شئت أن ترمى القَصِىَّ من المنى ... تدور لك الأفلاك مرفوعة القسى

فترمى بسهم من سعودك صائب ... سديدٍ لأغراض الأمانى مقرطس

أهنيك بالإبلال ممن شفاؤه ... شفاؤك فاشْكر مَنْ تُلاَقِى وقدس

ودعنى أرد يمناك فهى غمامة ... تبخل صوب العارض المتبجس

أقبل منها راحة إثر راحةٍ ... أتتك بها الركبان من بيت مقدس

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٨ .

ومن نسب الفتح المبين ولادة إليه بغير الفخر لم يتأسس
فَيَأَيُّها المولى الذى بكماله خلائف هذا العصر فى الفخر تأتسى
[لآمَنْتَ][1] موسى من عوادى سميه ولولاك لم يبرح بخفية موجس
بعثت بميمون النقيبة، فى اسمه خلود لعز ثابت متأسس
فجاءك بالمال العريض هدية بها الدين أثواب المسرة يكتسى
وشفعها بالصافنات كأنها وقد راق مرآها جآذر مكنس
تنص من الإشراف جيد غزالة وترنو من الإيجاس عن لحظ أشوس
لك الخير، موسى مثلُ موسى كلاهما بغير شعار الود لم يتلبس
فلا زلت فى ظل النعيم وكل من يعاديك لا ينفك يشقى بأبؤس
عليك سلام مثل حمدك عاطر تنفس وجه الصبح عنه بمعطس

ثم قال بعد ذكر كثير من نظمه وبعض ميلادياته[2]:

وأنشد فى مولد عام خمسة وستين:

لعل الصبا إن صافحت روض نعمان تؤدى أمان القلب عن ظبية البان
وماذا على الأرواح وهى طليقة لو احتملت أنفاسها حاجة العانى
وما حال من يستودع الريح سره ويطلبها وهى النموم بكتمان
وكالطيف أستقريه فى سنة الكرى وهل تنقع الأحلام غُلة ظمآن

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٧٩.
(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٤٦.

أسائل عن نجد ومرمى صبابتى ... ملاعب غزلان الصريم بنعمان

وأبدى إذا ريح الشمال تنفست ... شمائل مرتاح المعاطف نشوان

عرفت بهذا الحب لم أدر سلوة ... وإنى لمسلوب الفؤاد بسلوان

فيا صاحبى نجواى والحب غاية ... فمن سابق جلى مداه ومن وانى

وراءكما ما اللوم يثنى مقادتى ... فإنى عن شان الملامة فى شان

وإنى وإن كنت الأبى قياده ... ليأمرنى حب الحسان وينهانى

ولا زلت أرعى العهد فيمن يضيعه ... وأذكر إلفى ما حييت وينسانى

فلا تنكر ما سامنى مضض الهوى ... فمن قبل قد أودى بقيس وغيلان

لى الله إما أومض البرق فى الدجى ... أقلب تحت الليل مقلة وسنان

وإن سل من غمد الغمام حسامه ... برى كبدى الشوق الملم وأضنانى

تراءى بأعلام الثنية باسمًا ... فأذكرنى العهد القديم وأبكانى

أسامر نجم الأفق حتى كأننا ... وقد سدل الليل الرواق حليفان

ومما أناجى الأفق أعديه بالجوى ... فأرعى له سرح النجوم ويرعانى

ويرسل صوب القطر من فيض أدمعى ... ويقدح البرق من نار أشجانى

وضاعف وجدى رسم دار عهدتها ... مطالع شهب أو مراتع غزلان

على حين شرب الوصل غير مصرد ... وصفوف الليالى لم يكدر بهجران

لئن كدرت عينى الطلول فإنها ... تمت إلى قلبى بذكر وعرفان

ولم أر مثل الدمع فى عرصاتها ... سقى تربها حين استهل وأظمانى

ومما شجانى أن سرى الركب موهنًا تقـــاد به هوج الرياح بـأرســان

غوارب فى بحـر السراب تخـالها وقد سـبحـت فيه مـواخر غـربان

علـى كل نِضـــو مـــثله فكـأنما رمى منهـما صدر المفـازة سهـمان

ومن زاجر كـوماء مخطفـة الحشى توسـد منها فـوق عـوجاء مـرنان

نشـاوى غرام يسـتـميل رءوسـهم من النوم والشـوق المبـرح سكران

أجـابوا نداء البـين طوع غـرامـهم وقـد تبلغ الأوطـار فـوقـة أوطان

يؤمـون من قـبـر الشفـيع مـثـابة تطـلع منـهـــا جنة ذات أفـنان

إذا نزلوا مـن طيـبـــة بـجـــواره فـأكرم مـولى ضم أكرم ضـيفـان

[بحـيث علا الإيمـان وامتـد ظله وزان حلى التوحيد تعطيل أوثان][1]

مطالـع آيات مـــثـــابة رحـــمـــةٍ مـــعـاهد أمـــلاك مظاهر إيمـــان

هنالك تصـفـــو للقـبـول مـوارد يسقـون منها فـضل عفو وغـفران

هنـاك تؤدى للـســـلام أمـــانة يحـــيـهم عنـهـا بروح وريحـــان

يناجون عن قـربٍ شفيـعهم الذى يؤمله القـاصى مـن الخلق والدانى

لئـن بلغـــوا دونـى وخلفـت أنه قضـاء جرى من مـالك الأمر ديان

وكم عزمـةٍ مَنَّيْتُ نفـسى صرفـها وقـد عـرفت منـى مـواعـد ليـان

إلى الله نشكـوها نفـــوسـا أبيـــه تحـيد عـن الباقى وتـغتـر بالفـانى

ألا ليت شعرى هل تساعدنى المنى فـأترك أهلى فى رضـاه وجيـرانى

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ٤٨.

وأقضى لُبانات الفؤاد بأن أرى ... أعفر خدى فى ثراه وأجفانى

إليك رسول الله دعوة نازحٍ ... خفوق الحشى رهن المطامع هيمان

غريب بأقصى الغرب قيد خطوه ... شباب تَقَضَّى فى مراح وخسران

يجد اشتياقا للعقيق وبانه ... ويصبو إليها ما استجد الجديدان

وإنَّ أومض البرق الحجازى موهنا ... يردد فى الظلماء أنّه لهفان

فيا مولى الرحمى ويا مذهب العمى ... ويا منجد الغرقى ويا منقذ العانى

بسطت يد المحتاج يا خير راحم ... وذنبى ألجانى إلى موقف الجانى

وسيلتى العظمى شفاعتك التى ... يلوذ بها عيسى وموسى بن عمران

فأنت حبيب الله خاتم رسله ... وأكرم مخصوص بزلفى ورضوان

وحسبك أنَّ سماك أسماءه العلا ... وذاك كمال لا يشاب بنقصان

وأنت لهذا الكون علة كونه ... ولولاك ما امتاز الوجود بأكوان

ولولاك للأفلاك لم تجل نيرًا ... ولا قلدت [لباتهن بشهبان][1]

خلاصة صفو المجد من آل هاشم ... ونكتة سر الفخر من آل عدنان

وسيد هذا الخلق من نسل آدمٍ ... وأكرم مبعوث إلى الإنس والجان

وكم آية أطلعت فى أفق الهدى ... يَبِين صباح الرشد فيها ليقظان

وما الشمس يجلوها النهار لمبصر ... بأجلى ظهورًا أو بأوضح برهان

وأكرم بآيات تحديتنا بها ... ولا مثل آيات لمحكم فرقان

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٥ ص ٤٨.

وماذا عسى يثنى البليغ وقد أتى ... ثناؤك فى وحى كريم وقرآن

فصلى عليك الله ما انسكب الحيا ... وما سجعت ورقاء فى غصن البان

وأيد مولانا ابن نصر فإنه ... لأشرف من ينمى لملك وسلطان

أقام - كما يرضيك - مولدك الذى ... به سفر الإسلام عن وجه جذلان

سَمِيُّ رسول الله ناصر دينه ... معظمه فى حال سر وإعلان

ووارث سر المجد من آل خزرج ... وأكرم من تنمى قبائل قحطان

ومرسلها ملء الفضاء كتائبًا ... تدين لها غُلب الملوك بإذعان

حدائق خضر والدروع غدائر ... وما أنبتت إلا ذوابل مران

تجاوب فيها الصاهلات وترتمى ... جوانبها بالأسد من فوق عقبان

فمن كل خوار العنان قد ارتمى ... به كل مطعام العشيات مطعان

وموردها ظمآى الكعوب ذوابلا ... ومصدرها من كل أملد ريان

ولله منها والربوع مواحل ... غمام ندى كفت به المحل كفان

إذا أخلفت الناس الغمام وأمحلوا ... فإن نداه والغمام لسيان

إمام أعاد الملك بعد ذهابه ... إعادة لا نابى الحسام ولا وانى

فغادر أطلال الضلال دوارسًا ... وجدد للإسلام أرفع بنيان

وشيدها والمجد يشهد دولةً ... محافلها تزهى بيمن وإيمان

وراق من الثغر الغريب ابتسامه ... وهز له الإسلام أعطاف مزدان

لك الخير ما أسنى شمائلك التى ... يقصر عن إدراكها كل إنسان

ذكـاء إياس فى سـمـاحـة حـاتم وإقدام عـمرو فى بلاغـة سحـبان
أمـولاى مـــا أنسى مناقـــبك التى هى الشهب لا تحصى بَعِدٍّ وحسبان
فـلا زلت يا غوث الـبلاد وأهلهـا مـــــبلغ أوطـار ممهـــــد أوطان

ثم قال بعد سرد ميلادية، وأنشد ذلك فى مولد سنة سبع وستين وسبع مئة وألم فى أخرياتها بوصف المَشْوَر الأسنى، الرفيع المبنى:

زار الخـــيـــــال [بأيمـن الزوراء] فـجلا سنـاه غيـاهب الظلمـاء[1]
وسرى مع الـنسمات يسـحب ذيله فـــأتـت تنم بعـنبـــر وكـــبـــاء
هذا ومـــــا شىء ألـذ من المـنى إلاّ زيارتـه مع الإغـــــفـــــاء
بتنا خـيـــالين التـحـفنـا بالضنى والسـقم مـا نخـشى من الرقـبـاء
حـتى أفـاق الصـبح من غـمـراته وتجـــاذبت أيدى النســـيم ردائى
يا سـائلى عن سـر من أحـببـتـه الســـر عندى مـــيت الأحـــيـــاء
تالله مـا أشكو المحـــبـة والهـوى لسـوى الأحـبـة أو أمـوت بدائى
يا زين[2] قلبى لست أبرح عـانيًـا أرضى بسـقمى فى الهـوى وعنائى
أبكى ومـا غيـر النجـيع مدامـعى أذكى ولا ضـرم سـوى أحـشـائى
أهفـو إذا تهـفـو الـبـروق وأنثنى لســرى النواسم من ربـا تيـمـاء
بالله يا نفـس الحـمى رفـقـا بمن أغـــريتـــه بتنفس الـصـعـــداء

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٧٩ وما بين حاصرتين منه.
(٢) فى نفح الطيب ج٧ ص ١٨٠ «يادين قلبى».

عـجبـا له يندى على كـبدى وقـد ... أذكى بقلـبى جـمـــرة البـرحـــاء

يا ســـاكنى الـبطحـــاء أى لبـــانةٍ ... لى عندكـم يا سـاكـنى البطحـــاء

أترى النوى يومـا تخيب قـداحهـا ... ويفـــوز قـــــدحى منكم بـلقـــاء

فى حـيكم قـــمـر فـؤادى أفـقـه ... تفـــديه نفـــسى من قـــريب نائى

لم تـنسـنى الأيام يـوم وداعـــــه ... والركب قـــد أوفى علـى الزوارء

أبكى ويبـــسم والمحـاسن تـنجلى ... فـــعلـقت بيـن تبـــسم وبـكاء

يا نظرة جـــادت بهـــا أيدى النوى ... حـتى اسـتـهلـت أدمـعى بدمـاء

من لى بـشـانيـــة تنـادى بالأسى: ... «قـدك اتئـد أسـرفت فى الغلواء»

ولرب ليـل بالوصـــال قطعـــتـــه ... أجلو دجـــــاه بأوجـــه النـدمـــاء

أنسـيت فـيـه القلب عـادة حلمـه ... وحـثـــثت فـيـه أكـــؤس السـراء

وجريت فى طلق التصـابى جامحا ... لا أنثنـى لمقـــادة الـنصـــحـــــاء

أطوبى شـبابى للمـشيب مـراحلا ... برواحل الإصـــبـاح والإمـــسـاء

يا ليت شعرى هل أُرَى أطوى إلى ... قـبر الرسـول صـحائـف البيـداء

فـتطيب فى تلك الربوع مـدائحى ... ويطـول فى ذلك المقـــام ثـوائى

حـــيث النبـــوة نورها مـــتـــألق ... كـالشـمس تزهى فـى سنى وسناء

حـيث الرسـالة فى ثنيـة قدسـهـا ... وفـعت لهـدى الخـلق خـيـر لواء

حـيث الـضـريح أكـرم مـــرسل ... فـخـر الجـود وشـافع الشـفـعـاء

المصطـفى والمرتضى والمجـتـــبى ... والمنتـــقـى من عنصـــر الـعليـــاء

خـيـر البـرية مجـتـبـاها ذخـرها ... ظل الإلـه الوارف الأفـــيـــاء

تاج الرسـالة خـتمـهـا وقـوامهـا ... وعـمـادها السـامى عـلى النظراء

لولاه للأفــلاك مــا لاحت بهــا ... شــهب تنيــر دياجـى الظلمــاء

ذو المعـجـزات الـغـر والآى التى ... أكـبـرن عن عــدٍ وعن إحـصـاء

وكـفاك رد الشـمس بعـد غروبهـا ... وكـفاك مـا قـد جاء فى الإسـراء

والبـــــدر شق لـه وكم مـن آيةٍ ... كـــأنـامل جـــادت ينبـع الماء

وبليلـة الميـلاد كـم من رحـمـــة ... نشـــر الإله بهـــا ومن نعـــمـــاء

قـد بشـر الرسل الـكرام ببـعـثـه ... وتقـــدم الـكهـــان بـالأنبـــاء

أكـرم بها بشـرى على قدرٍ سـرت ... فى الكون كـالأرواح فى الأعضـاء

أمـسى بهـا الإسـلام يشـرق نوره ... والكفـر أصـبـح فـاحم الأرجـاء

هـو آيـــه الله الـتـــى أنـوارهـــا ... تجلـو ظلام الـشك أى جـــلاء

والشـمس لا تخفى مـزية فضلهـا ... إلاّ على ذى المـقلة العـمـيـــاء

يا مـــصطفى والكون لم تـعلق به ... من بعـــد أيدى الخـلق والإنشـــاء

يا مظهـــر الحق الجلى ومطـلع النـ ... ـور السـنى السـافـــر الأضـــواء

يا ملجـــأ الخلق المشـــفع فـيـــهم ... يا رحـمـة الأمـــوات والأحـيـاء

يا آسى المرضـى ومنتـجع الـرضـا ... ومـؤاسى الأيـتـام والضـعـــفـاء

أشكو إليـك وأنت خـيـر مـــؤمل ... داء الـذنوب وفـى يـديك دوائـى

إنى مـــددت يدى إليك تضـــرعـا ... حـاشى وكـلا أن يخـيب رجـائى

إنَّ كنت لـم أخلص إليـك فـإنما خلصت إلـيك مـحـبـتى وندائى

وبسـعـد مـولاى الإمام مـحـمّـد تعـد الأمـانى أنَّ يـتـاح لقـائى

ظل الإله عـلى البـلاد وأهلهـا فـخـر الملوك السـادة الخلفـاء

غوث العـباد وليث مـشتجـر القنا يوم الطـعـان وفـارج الغـمـاء

كـالدهر فى سـطواته وسـمـاحـه تجـرى صـبـاه يزعـزع ورخـاء

رقت سـجـاياه وراقـت مـجـتلى كـالنهـر وسط الروضـة الفيـحـاء

كـالزهر فى إيراقـه والبـدر فى إشـراقـه والزهر فـى اللألاء

يا بن الأُلى إجـمالـهم وجمـالهم فلق الـصـبـاح وواكف الأنواء

أنصـار دين الله حـزب رسـوله والسـابقـين بحـلبـة العليـاء

يا بن الخلائف من بـنى نصر ومن حـاطوا ذمـار الملة السـمـحـاء

من كـل من تقف المـلوك ببـابه يسـتـمطرون سـحـائب النعـمـاء

قوم إذا قـادوا الجيـوش إلى الوغى فـالرعب رائـدهم إلى الأعـداء

والعـز مـجلوب بكل كـتـيـبـة والنصـر مـعـقـود بـكل لواء

يا وارثا عنـهـا منـاقـبـهـا التى تسـمـو مـراقـيـهـا على الجـوزاء

يا فـخـر أندلس وعـصمـة أهلهـا يجـزيك عنـهـا الله خـيـر جـزاء

كم خضت طوع صلاحهـا من مَهْمَهٍ لا تهـتـدى فـيـه القطا للـمـاء

تهـدى بها حـادى السرى بعـزائم تهـدى نجـوم الأفق فضل ضـيـاء

يا رافع لواء الفـخـر غيـر مـدافع واسـحب ذيول العـزة القـعـسـاء

واهنأ بمبناك السعيد فإنه كهف ليوم مشورة وعطاء
لله منه هالة قد أصبحت حرم العفاة ومصرع الأعداء
تنتابها طير الرجاء فتجتنى ثمر المنى من دوحة الآلاء
لله منه قبة مرفوعة دون السماء تفوت لحظ الرائى
راقت بدائع وشيها فكأنها وشى الربيع بمسقط الأنداء
عظمت ميلاد النبى محمّد وشفعته بالليلة الغراء
أحييت ليلك ساهرا فأفدتنا قوت القلوب بذلك الإحياء
يا أيها الملك الهمام المجتبى فاتت علاك مدارك العقلاء
من لى بأن أحصى مناقبك التى ضاقت بهن مذاهب الفصحاء
وإليك منى روضة مطلولة أرجت أزهارها بطيب ثناء
فافسح لها أكناف صفحك إنها بكر أتت تمشى على استحياء

قال: وأنشد من ذلك فى مولد عام ثمانية وستين وقد كان مولانا رضى الله عنه أبى أن يرسل العنان فى مدح مقامه مبالغة فى توقير جانب المصطفى ﷺ وإعظامه فلهذا القصد الأدبى الكريم أتى من المدح السلطانى فى آخرها الملتمح القريب واكتفى من القلادة بما أحاط بالتريب ومدّ القول فى ذكر الرسول وعجائب مجده حسبما اقتضاه الاختيار من مولانا كافأ الله جميل قصده، آمين:

هذا الصباح صباح الشيب قد وضحا سرعان ما كان ليلا فاستنار ضحى
للدهر لونان من نور ومن غسق هذا يعاقب هذا كلما برحا

وتلك صبغته أعدى بنيه بها ... إذا تراخى مجال العمر وانفسحا
ما ينكر المرء من نور جلا غسقا ... ما لم يكن لأمانى النفس مطرحا
إذا رأيت بروق الشيب قد بسمت ... بمفرق فمحيا العيش قد كلحا
يلقى المشيب بإجلال وتكرمة ... مَنْ قد أعدَّ من الأعمال ما صلحا
أما ومثلى لم يبرح يُعلِّله ... من النسيم عليل كلما نفحا
والبرق ما لاح فى الظلماء مبتسما ... من جانب السفح إلا دمعه سفحا
فما له بقريب الشيب من قبل ... من بعد ما لام فى شأن الهوى ولحا
يأبى وفائى أن أصغى لِلائِمَةٍ ... وأن أطيع عذولى غش أو نصحا
يأهل نجد سقى الوسمى ربعكم ... غيثا ينيل غليل الترب ما اقترحا
ما للفؤاد إذا هبت يمانية ... تهديه أنفاسها الأشجان والبرحا
يا حبذا نسمة من أرضكم نفحت ... وحبذا ربرب من جوكم سنحا
يا جيرة تعرف الأحياء جودهم ... ما ضر من ضن بالإحسان لو سمحا
ما شملت بارقة من جو كاظمة ... إلاّ وبت لزند الشوق مقتدحا
فى ذمة الله قلبى ما أعلله ... بالقرب إلاّ وعاد القرب منتزحا
كم ليلة والدجى راعت جوانبها ... قلب الجبان فما ينفك مطرحا
سريتها ونجوم الأفق فيه طفت ... جواهرا وعباب الليل قد طفحا
بسابح أهتدى ليلا بغرته ... والبدر فى لجو الظلماء قد سبحا
والسحب تنثر در الدمع من فرق ... والجو يخلع من برق الدجى وشحا

ما طالبت همتى دهرى بمعلوة إلاّ بلغت من الأيام مقترحا

ولا أدرت كئوس العزم مغتبقا إلاّ أدرت كئوس العز مصطبحا

هذا وكل الذى نلت من أمل مثل الخيال تراءى ثمت انتزحا

كم يكدح المرء لا يدرى منيته أليس كل امرئ يجزى بما كدحا

وارحمتا لشبابى ضاع أطيبه فما فرحت به قد عاد لى ترحا

أليس أيامنا اللائى سلفنا لنا منزلا أعلمت فيها الخطا مرحا

إنا إلى الله، ما أولى المتاب بنا لو أن قلبا إلى التوفيق قد جنحا

الحق أبلج والمنجاة عن كثب والأمر لله والعقبى لمن صلحا

يا ويح نفس توانت عن مراشدها وطرفها فى عنان الغى قد جمحا

نرجو الخلاص ولم تنهج مسالكها من باع رشدا بغى قلما ربحا

يا رب صفحك يرجو كل مقترف فأنت أكرم من يغفو ومن صفحا

يا رب لا سبب أرجو الخلاص به إلاّ الرسول ولطفا منك إن نفحا

فما لجأت له فى دفع معضلة إلاّ وجدت جناب اللطف منفسحا

ولا تضايق أمر فاستجرت به إلا تفرج باب الضيق وانفتحا

يا هل تبلغنى مثواه ناجية تطوى بى القفر مهما امتد وانفسحا

حيث الربوع بنور الوحى آهلة من حلها احتسب الآمال مقترحا

حيث الرسالة تجلو من عجائبها من الجمال بنور الله متضحا

حيث النبوة تتلو من غرائبها ذكرا يغادر صدر الدين منشرحا

حيث الضريح بما قد ضم من كرم ... قد بذ فى الفخر من ساد ومن نجحا
يا حبذا بلدة كان النبى بها ... يلقى الملائك فيها أيّةً سرحا
يا دار هجرته يا أفق مطلعه ... لى فيك بدر بغير الفكر ما لمحا
من هاشم فى سماء العز مطلعة ... أكرم به نسبا بالعز متشحا
من آل عدنان فى الأشراف من مضر ... من محتد تطمح العلياء إن طمحا
من عهد آدم ما زالت أوامره ... تسام بالمجد من آبائه الصرحا
عناية سبقت قبل الوجود له ... والله لو ووزنت بالكون ما رجحا
يا مصطفى وكمام الكون ما فتقت ... يا محبتى وزناد النور ما قدحا
لولاك ما أشرقت شمس ولا قمر ... لولاك ما راقت الأفلاك ملتمحا
صدعت بالنور تجلو كل داجية ... حتى نهج الحق واتضحا
يا فاتح الرسل لو يا خاتمها شرفا ... بوركت مختتما قدست مفتتحا
دنوت للخلق بالألطاف تمنحها ... والقلب فى العالم العلوى ما برحا
كالشمس فى الأفق الأعلى مجرتها ... والنور منها إلى الأبصار قد وضحا
كم آية لرسول الله معجزة ... تكل عن منتهاها ألسن الفصحا
إن ردت الشمس من بعد الغروب له ... قد ظللته غمام الجو حيث نحا
يا نعمة عظمت فى الخلق مِنّتها ... ورحمة تشمل الغادين والروحا
الله أعطاك ما لم يؤته أحد ... والله أكرم من أعطى ومن منحا
حبيبه مصطفاه مجتباه وفى ... هذا بلاغ لمن حلاّك ممتدحا

أثنى عليك كتاب الله ممتدحا ... فأين يبلغ فى عليـاك من مـدحـا

قد أبعدتنى ذنوبى عنك يا أملى ... فجهدى اليوم أن أهدى لك المدحا

لعل رحماك والأقدار سابقة ... تدنى محبا بأقصى الغرب منتزحا

نفس شعاع وقلب خان أضلعه ... مما يعانى من الأشواق قد برحا

إذا البروق أضاءت والغمام هَمَتْ ... فزفرتى أُذْ كِيَتْ أو مدمعى سفحا

لم لا أحن وهذا الجذع حن له ... لما تباعد عن لقياه وانتزحا

كم ذا التعلل والأيام تمطلنى ... كأنها لم تجد عنك منتدحا

ما أقدر الله أن يدنى على شحط ... وأن يقرب بعد البين من نزحا

يا سيد الرسل يا نعم الشفيع إذا ... طال الوقوف وحر الشمس قد لفحا

أنت المشفع والأبصار شاخصة ... أنت الغياث وهول الخطب قد فدحا

جاش العلا وجميل الظن يشفع لى ... أن يخفق السعى منى يعد ما نجحا

عساك يا خير من ترجى وسائله ... تنجى غريقا ببحر الذنب قد سبحا

ما زال معترفا بالذنب معتذرا ... لعلّ حبك يمحو كل ما اجترحا

عسى البشر غداة الروح يسمعنى ... بشرى تعود لى البؤسى بها فرحا

لا تيأسن فإن الله ذو كرم ... وحبك العاقب الماحى الذنوب محا

صلى الإله على المختار صفوته ... ما العارض انهل أو ما البارق التمحا

وأيد الله مولانا بعصمته ... بأى باب إلى العلياء قد فتحا

وهنأ الدين والدنيا على ملك ... لسعده الطائر الميمون قد سنحا

أنا الضـــمين لمكحـول بغـــرته ألا ترى عـــينه بؤسـا ولا تـرحـا
مولاى خذهـا كما شاءت بلاغـتها غراء لم تعـدم الأحجال والقـزحا
كـأن سرب قـوافـيهـا إذا سنحت طير على فنن الإحســان قد صدحا

قال: ومن إعذارياته المحكمـة نسقا ورصفا، المتنـاهية فى كل فن حسن تحلية غريبة ووصـفا - حسبما اقـتضاه ملاحظة النسبة الرفيـعة لصنائع مولانا رحمـة الله عليه، واحتـفاله المناسب لعـز ملكه من تعميم الخلـق بالجفلى فى دعواهم واسـتدعاء أشـرف الأمم من أهل المغرب وسـواهم، تفننا فى مكارم متعـددة أيامها على أصـالة المجد معربة وإغـراء لهم الملك بما يتمم الأمن من أوضاع مغربة ومباهاة بعرض الجيوش للعدو الكافر، ومكاثرا من مماليك دولته بالعدد الوافر، مما ألجم اللسن الذكى عيا، وغادر الإعذار الذنونى منسيا، كافأ الله أبوته المولوية عنا وعن آبائنا، وتلقى بالقبول الكفـيل بتجديد الرضوان، ما نصل إليه من خالص دعائـنا إنّه منعم جواد قوله فى الصنيع المخلص من ذلك بمولانا الوالد قدس الله روحه وذلك سنة أربع وستين وسبع مئة:

معاذ الهوى أن أصـحب القلب ساليا وأن يشـغل اللوم بالعـذل باليـا[1]
دعـانى أعط الحب فـضل مقـادتى ويقضى على الوجد ما كـان قاضيا
ودون الذى رام العـواذل صـــبـوة رمت بى فى شـعب الغرام المراميا
وقلب إذا مـا البرق أومض مـوهنا قـدحت به زندا من الشـوق واريا
خليلـى إنى اليـوم طارقـــة النوى شـقـيت بمن لو شـــاء أنعم باليـا
وبالخـيف يوم الـنفـر يا أم مـالك تخلفت قلبـى فى حبـالك عـانيـا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٤٨.

وذو أُشُرٍ عذب الثنايا مخصر ... يسقى به ماء النعيم الأقاحيا

أحوم عليه مادجا الليل ساهرا ... وأصبح دون الورد ظمآن صاديا

يمضى ظلام الليل ما بين أضلعى ... إذا البارق النجدى وهنا بدا ليا

أجيرتنا بالرمل والرمل منزل ... مضى العيش فيه بالشبيبة حاليا

ولم أر ربعا منه أقضى لبانة ... وأشجى حمامات وأحلى مجانيا

سقت ظله الغر الغوادى ونظمت ... من القطر فى جيد الغصون لآليا

أبثكم أى على النأى حافظ ... ذمام الهوى لو تحفظون ذماميا

أناشدكم والحر أوفى بعهده ... ولن يعدم الإحسان والخير جازيا

هل الود إلاّ ما تحاماه كاشح ... وأخفق فى مسعاه من جاء واشيا

تأوبنى والليل يذكى عيونه ... ويسحب من ذيل الدجنة ضافيا

وقد مثلت زهر النجوم بأفقها ... حبابا على نهر المجرة طافيا

خيال على بعد المزار ألم بى ... فأدركنى من لم أكن عنه ساليا

عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعى ... ولم يبق منى السقم والشوق باقيا

رفعت له نار الصبابة فاهتدى ... وخاض لها عرض الدجنة ساريا

ومما أجد الوجد سرب على النقى ... سوانح يصقلن الطلى والتراقيا

نزعن عن الألحاظ كل مسدد ... فغادرن أفلاذ القلوب دواميا

ولما تراءى السرب قلت لصاحبى ... وأيقنت أنَّ الحب ما عشت دائيا

حذارك من سقم الجفون فإنه ... سيعدى بما يعيى الطبيب المداويا

وإنَّ أمـيـر المـسلمـين مـحـــمّـدا ... ليـعدى نداه السـاريات الهـواميـا

تضئ النـجـوم الزاهرات خـــلاله ... وينفث فى روح الـزمـان المعـاليـا

مـعال إذا مـا النجم صوب طالبـا ... مـبـالغـهـا فى العـز خلف وانيـا

يســـابق علوى الريـاح إلى الندى ... وتفـضح جدوى راحتـيه الغـواديا

ويغضى عن الـعوراء إغضـاء قادر ... ويرجح فى الحلم الجـبال الرواسـيا

هما يروع الأسد فـى حومة الوغى ... كمـا راعت الأسد الظبـاء الجوازيا

مناقب تســـمـو للفـخـــار كـأنما ... تجـرى إلى المجد النـجوم الجـواريا

إذا اسـتـبق الأمـلاك يومـا لغـاية ... أبيت وذاك المجـــد إلاّ التـناهيـــا

بهـرتَ فـأخفـيتَ الملوكَ وذكـرها ... ولا عجب فالشـمس تخفى الدرايا

جلوت ظلام الظلم من كل مـعتـد ... ولا غرو أن تجلـو البدور الدياجـيا

هديت سـبيل الله من ضل رشـده ... لا زلت مـــهـديا إلـيـهـــا وهاديا

أفـــدت وحـتـى الملك مما أفـــدته ... وطوقت أشـــراف الملوك الأيـاديا

وقـد عرفت منهـا مـرين سوابقـا ... تقـر لها بالفـضل أخـرى الليـاليـا

وكـان أبو زيـان جـيـدا مـــعطلا ... فـزينته حـتى اغـتـدى بك حاليـا

لك الخيـر لم تقصد بما قد أفـديته ... جـزاء ولكـن همـة هى مـــا هيـا

فـما تكـبر الأمـلاك غـيرك آمـرا ... ولا ترهب الأشـراف غيرك ناهـيا

ولا تشـكى الأيام من داء فـــتـنة ... فقـد عرفت منك الطبـيب المداويا

وأندلسًـــا أوليتَ مـــا أنـت أهله ... وأوردتهـا وردا من الأمن صـافيـا

تلافيت هذا الثغـر وهو على شفى وأصبـحت من داء الحوادث شافـيا
ومن بعـد ما ساءت ظنون بأهـلها وحاموا على ورد الأمـانى صواديا
فـمـا يأملـون العـيـش إلاّ تعللا ولا يعـرفـون الأمن إلاّ أمـانـيـا
عطفـت على الأيام عـطف راحم وألبـستـها ثوب امـتنانك ضـافيـا
فـآنس من تلـقـائك الملك رشـده ونال بك الإسـلام ما كـان راجيـا
وقفت على الإسـلام نفسا كـريمة تصـد عـدوا عن حـمـاه وعـاديا
فرأى كـما انشق الصـباح وعـزمة كمـا صقل القين الحـسام اليمـانيا
وكانت رمـاح الخط خمـصا ذوابلا فـأنهلت منهـا فى الدماء صـواديا
وأوردت صفح السيف أبـيض ناصعا فـأصدرته فى الروع أحـمـر قانيـا
لك العزم تستـجلى الخطوب بهديه ويلفى إذا تنبـو الصـوارم مـاضيـا
إذا أنت لم تفـخـر بمـا أنت أهله فمـا الصبح وضاح المشارق عـاليا
ويهنيك دون العـيد عـيد شـرعتـه تبث به فى الخـالـقـين التـهـانيـا
أقـمت بـه من فطرة الديـن سنة وجـددت من رسم الهداية عـافيـا
صنيع تولى الله تـشيـيـد فـخـره وكـان لما أوليـت فـيـه مـجـازيا
تود النجـوم الزهر لو مـثلت به وقـضت من الزلفى إليك الأمانيـا
وما زال وجه اليوم بالشمس مشرقا سـرورا به والليل بالشـهب حاليـا
على مـثله فليـعقـد الفـخر تاجـه ويسـمو به فـوق النجـوم مـراقيـا
به يعـمـر الأنواء كل مـفـوه ويحدو بـه من بات بالفقـر ساريا

ويوسف فيه بالجمال مقنع ... كأن له من كل قلب مناجيا

وأقبل قد شاب الحياء مهابة ... ويقلب وجه البدر أزهر باهيا

وأقدم لا هيابة الحفل واجما ... ولا قاصرا فيه الخطا متوانيا

شمائل فيه من أبيه وجده ... ترى العز فيها مستكنا وباديا

فيا علقا أشجى القلوب لَوَ اننا ... فديناك بالأعلاق ما كنت غاليا

جريت فأجريت الدموع تعطفا ... وأطلعت فيها للسرور فواشيا

وكم من ولى ددون بابك مخلص ... يفديه بالنفس النفيسة واقيا

وصِيدٍ من الحَيَّين أبناء قَيْلَةٍ ... تكف العوادى أو تبيد الأعاديا

بهاليل غر إن أعدوا لغارة ... أعادوا صباح الحى أظلم داجيا

فو الله لولا أن توخيت سنة ... رضيت بها أن كان ربك راضيا

لكانت بها للأعوجيات جولة ... تشيب من الغلب الشباب النواصيا

وتترك أوصال الوشيج مقصدا ... وبيض الظبى حمر المتون دواميا

ولما قضى من سنة الله ما قضى ... وقد حسدت منه النجوم المساعيا

أفضنا نهنى منك أكرم منعم ... أبى لعميم الجود إلاّ تواليا

فيهنى صفاح الهند والبأس والندى ... وسمر العوالى والعتاق المذاكيا

ويهنى البنود الخافقات فإنها ... سيعقدها فى ذمة النصر غازيا

كأنى به يشفى الصوارم والظبى ... ويحطم فى لأم الضلال العواليا

كأنى به قد توج الملك يافعا ... وجمع أشتات المكارم ناشيا

وقضى حقوق الفخر فـى ميعة الصبا وأحسن من دين الكمـال التقاضـيا
ما هو إلاّ الـسعد إن رمت مطـلعا وسـددت سهـما كـان ربك راميـا
فـلا زلت يا فخـر الخلافـة كافـلا ولا زلت يا خـيـر الأئمـة كافـيـا
ودمت قـريـر العـين منه بغـبطة وكـان له رب البـرية واقـيـا
نظمـت له حـر الكلام تمـائمـا جـعلت مكان الدر فيـها القـوافيـا
لآل بهـا باهـى الملوك نفـاسـة وجلت لعـمـرى أن تكون لآليـا
أرى المال يرميـه الجـديدان بالبلى ومـا إن أرى إلاّ المحـامـد باقـيـا

ثم قال: ومن ذلك ما أنشـد فى الصنيع الثانى المختص بعمَّـيْنا السيدين الأَمِيـرَيْنِ سعد ونصـر، رحمة الله عليـهما، وأجـاد فى وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع[1].

أللمـحـة من بارق مـتـبـسم أرسلتـه دمـعـا تضـرج بالدم
ولنفـحـة تهـفـو ببـانات اللوى يهـفو فـؤادك عن جـوانح مغـرب
هى عـادة عـذرية مـن يوم أن خلق الهـوى تعـتـاد كل مـتـيم
قد كنت أعذل ذا الـهوى من قبل أن أدرى الهـوى واليـوم أعـذل لُوَّمى
كم زفـرة بين الجـوانح مـا ارْتقت حـذر الرقيب ومـدمع لم يسـجم
إن كان واشى الدمع قد كتم الهوى هيـهـات واشى السـقم لمـا يكتم
ولقـد أجـد هواى رسم دارس قـد كـاد يخـفى عن خـفى توهم

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٨٤.

وذكرت عهدا فى حماه قد انقضى ... فأطلت فيه ترددى وتلومى

ولربما أشجى فؤادى عنده ... ورقاء تنفث شجوها بترسم

لا أخرب الله الطلول فطالما ... أشجى الفصيح بها بكاء الأبكم

يا زاجر الأظعان يحفزها السرى ... قف بى عليها وقفة المتلوم

لترى دموع العاشقين برسمها ... حمرا كحاشية الرداء المعلم

دمن عهدت بها الشبيبة والهوى ... سقيا لها ولعهدها المتقدم

وكتيبة للشوق قد جهزتها ... أغزو بها السلوان غزو مصمم

ورفعت فيها القلب بندا خافقا ... وأريت للعشاق فضل تهمم

فأنا الذى شاب الحماسة بالهوى ... لكن من أهوى مضايق مقدمى

فطعنت من قد القوام بأسمر ... ورميت غنج اللحاظ بأسهم

يا قاتلَ اللهُ الجفون فإنها ... مهما رمت لم تخط شاكلة الرمى

ظلمت قتيل الحب ثم تبينت ... للسقم فيها فترة المتظلم

يا ظبية سنحت بأكناف الحمى ... سقى الحمى صوب الغمام المسجم

ما ضر إذ أرسلت نظرة فاتك ... أن لو عطفت بنظرة المترحم

فرأيت جسما قد أصيب فؤاده ... من مقلتيك وأنت لم تتأثمى

ولقد خشيت بأن يقاد[1] بجرحه ... فوهبت لحظك ما أحلك من دمى

كم خضت دونك من غمار مفازة ... لا تهتدى فيها الليوث لمجثم

---

(١) يقاد: من القود، وهو القصاص.

والنجم يسرى من دجاه بأدهم[1] رحب المقلد بالثريا ملجم
والبدر فى صفح السماء كأنه مرآة هند وسط لج ترتمى
والزهر زهر والسماء حديقة فتقت كمائم جنحها عن أنجم
والليل مربد الجوانح قد بدا فيه الصباح كغرة فى أدهم
فكأنما فلق الصباح وقد بدا مرأى ابن نصر لاح للمتوسم
ملك أفاض على البسيطة عدله فالشاة لا تخشى اعتداء الضيغم
هو منتهى آمال كل موفق هو مورد الصادى وكنز المعدم
لاحت مناقبه كواكب أسعد فرأت ملامح نوره عين العمى
ولقد تراءى بأسه وسماحه فأتى الجلال من الجمال بتوءم
مثل الغمام وقد تضاحك برقه فأفاد بين تجهم وتبسم
أنسى سماحة حاتم وكفاك فى يوم اللقاء ربيعة بن مكدم
سير تسير النيرات بهديها وتعير عرف الروض طيب تنسم
فالبدر دونك فى علا وإنارة والبحر دونك فى ندى وتكرم
ولك القباب الحمر ترفع للندى فترى العمائم تحتها كالأنجم
يذكى الكباء بها كأن دخانه قطع السحاب بجوها المتغيم
ولك العوالى السمر تشرع للعدا فتخر صرعى لليدين وللفم
ولك الأيادى البيض قد طوقتها صيد الملوك ذوى التلاد الأقدم

(١) الأدهم: الأسود، وهو من أوصاف الخيل.

شيم يقر الحاسدون بفضله والصبح ليس ضياؤه بمكتم
ورث السماحة عن أبيه وجده فالأكارم ابن الأكرم ابن الأكرم
نقلوا المعالى كابرا عن كابر كالرمح مطرد الكعوب مقوم
وتسنموا رتب العلاء بحقها بأب وجد فى الخلافة وابنم
يا آل نصر أنتم سرج الهدى فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عوابس والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبى وحزبه وذوى السوابق والجوار الأعصم
سل عنهم أحدا وبدرا تلفهم أهل الغناء بها وأهل المغنم
وبفتح مكة كم لهم فى يومه بلواء خير الخلق من متقدم
أقسمت بالحرم الأمين ومكة والركن والبيت العتيق وزمزم
لولا مآثرها وفضل علاهم ما كان يعزى الفضل للمتقدم
ماذا عسى أثنى وقد أثنت على علیائهم آى الكتاب المحكم
يا وارثا عنها مآثرها التى قد شيدت للفخر أشرف معلم
يا فخر أندلس لقد مدت إلى علياك كف اللائذ المستعصم
أما سعودك فى الوغى فتكفلت بسلامة الإسلام فاخلد واسلم
وافيت هذا الشعر وهو على شفى فشفيت معضل دائه المستحكم
ورعيته بسياسة دارت على مخطته دور السوار بمعصم

كم ليلة قد بت فيها ساهرا تهدى الأمان إلى العيون النوم
يا مظهر الألطاف وهى خفية ومهب ريح النصر للمتبسم
للهِ دولتك التى آثارها سير الركاب لمنجد أو مُتْهِم
ما بعد يومك فى المواسم بعد ما أتبعت عيد الفطر أكرم موسم
وافتك أشراف البلاد بيومه من كل ندب للعلا مُتَسَنِّمِ
صرفوا إليك ركابهم وتيمموا من بابك المنتاب خير ميمم
وتبوءوا منه بدار كرامة فالكل بين مقرب ومنعم
ودت نجوم الأفق لم مثلت به لتفوز فيه برتبة المستخدم
والروض مختال بحلة سندس من كل موشى الرقوم منعنم
ورياحه نسمت بنشر لطيمة وأقاحه بسمت بثغر مُلَثَّمِ(١)
وأريتنا فيه عجائب جمة لم تجر فى خلد ولم تتوهم
أرسلت فيه سرعان الجياد كأنها أسراب طير فى التنوفة حوم
من كل منحفز بخطفة بارق قد كاد يسبق لمحة المتوهم
طرف يشك الطرف فى استثباته فكأنه ظن بصدر مرجم
ومسافر فى الجو تحسب أنه يرقى إلى أوج السماء بسلم

(١) فى الأصل: «مثلم» وبهامشه: «فى الأصلين وبعض نسخ نفح الطيب: مسلم، وفى النسخة الخطية من نفح الطيب «ملثم» وظاهر أن كلا اللفظين محرف عما أثبتناه. والمثلم: المفلج الأسنان.
هذا والمثبت من نفح الطيب ج٧ ص ١٨٧ (ت: إحسان عباس) وبهامشه: «فى أصول أزهار الرياض وفى التجارية: مسلم، وصححه محققو الأزهار: «مثلم» وأثبتنا ما فى ق، لكونه أقرب إلى الصواب.

رام استـــراق الســمـع وهو ممنع فأصيب من قـضب العصى بأسهم
رجمته من شهب النصال حواصب لولا تعـــرضـــه لهـــا لـم يرجم
ومـدارة الأفـلاك أعـجـز كنهـهـا إبداع كـل مـــهنـدس ومـــهـندم
يمشى الرجال بـجوفها وجمـيعهم عن مـسـتوى قـدمـيه لم يـتقـدم
ومنوع الحـركات قـد ركب الهـوا يمـــشى علـى خط به مـــتـــوهم
فـإذا هوى من جـوه ثم اسـتـوى أبصـرت طيـــرا حل صـورة آدمى
يمـــشى على فنن الـرشـاء كـــأنه فـــيـــه مـــســـاور ذابل أو أرقم
وإليك من صـوب العقـول عقـيلة وقـفـت ببـابك وقـفـة المسـتـرحم
ترجـو قـبـولك وهو أعظم منحـة فـاســمح به خلدت من مـــتكرم
طارت فـيـهـا وصف كل غـريبـة فنـظمت شـــارده الذى لم ينـظم
ودعـــوت أرباب البـيـــان أريهم «كم غـادر الشـعراء من مـتـردم»
مـــا ذاك إلاّ بعض أنعـــمك التى قـد عـلمـتنـا كـيف شكـر المنعم

ثم قال: وأنشد من ذلك فى الـصنيع المخصوص بعمنا الأميـر أبى عبد الله رحـمة الله تعـالى عليـه، وأطنب فى وصف دار الملك وغـيـر ذلك من ضخامة آثار مولانا الجد رضى الله عنه[1]:

سل الأفق بالزهر الكواكـب حاليـا فـإنى قـد أودعـته شـرح حـاليـا
وحـملت مـعـتل الـنسـيم أمـانة قطعت بهـا عـمـر الزمان أمـانيـا
فيا من رأى الأرواح وهى ضـعيفة أحـملها مـا يسـتـخف الرواسيـا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٨٨.

وساوس كم جدت وجد بى الهوى ... فـــعـد بهـــا القلب المقـلب هازيا

ومن يطع الألحاظ فى شرعة الهوى ... فلا بد أن يعـصى نصيحا ولا حـيا

عـدلـت بقلبى عن ولاية حكـمـه ... غداة ارتضى من جـائر اللحظ واليا

ومـا الحب إلاّ نظرة تبعث الهـوى ... وتعـقب ما يعـيى الطبـيب المداويا

فـيا عـجـبا لـلعين تمشى طـليقـة ... ويصـبح من جرائهـا القلب عانيـا

ألاَ فى سـبـيل الله نفس نفـيـسـة ... يرخص منهـا الحب ما كـان غاليـا

ويا رب عـهد للشـبـاب قضـيتـه ... وأحسنت من دين الوصال التقاضيا

خلوت بمن أهوى من غـيـر رقبـة ... ولكن عـفافى لم أكـن عنه خاليـا

ويوم بمسـتن الظبـاء شـــهـدته ... أجـد وصـالا بـاليـا فـيـه بـاليـا

ولم أصح من خمر اللحاظ وقد غدا ... به الجـو وضـاح الأَسـرَّة ضاحـيـا

وجرد من غـمد الغـمامة صـارما ... من البرق مـصقول الصفيح يـمانيا

تبـسم فاسـتبـكى جفـونى عبـرة ... مـــلأت بُدّر الدمع منهـــا ردائيـــا

وأذكـــرنى ثغـــرا ظمـــئت لورده ... ولا والهوى العذرى مـا كنت ناسيا

وراح [خفوق][1]القلب مثلى كأنما ... ببرق الحـمى من لوعة الحب مـابيا

وليلة بات البـدر فيهـا مضـاجعى ... وباتت عيون الشـهب نحوى روانيا

كـرعت بهـا بيـن العـذيب وبارق ... بمورد ثغـــر بـات بالدر حـــاليـــا

رشفت بهـا شهد الرضاب سـلافة ... وقـبلت فى ماء النـعيم الأقـاحيـا

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٨٩ .

فيا برد ذاك الثغر رويت غلتى ... ويا حر أنفاسى أذابت فؤاديا

وروضة حسن للشباب نضيرة ... هصرت بغصن ألبان فيها المجانيا

وقد بت أسقى وردة الخد أدمعى ... فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاويا

ومالت بقلبى مائلات قدودها ... فما للقدود المائلات ومالیا

جزى الله العهد عودا فطالما ... أعاد على ربع الظباء الجوازيا

وقل لليال فى الشباب نعمتها ... وقضيتها أنسا سُقِيتِ لياليا

ويا واديا رفت على ظلاله ... ونحن نديرِ الوصل فُدِّيت واديا

رمتنى عيون السرب فيه وإنما ... رمين بقلبى فى الغرام المراميا

فلولا اعتصامى بالأمير محمّد ... لما كنت من فتك اللواحظ ناجيا

فقل لذى يبنى على الحسن شعره ... عليه مع الإحسان لا زلت بانيا

فكم من شكاة فى الهوى قد رفأتها ... ورقَّعتها بالمدح إذ جاء تاليا

وكم ليلة فى مدحه قد سهرتها ... أباهى بدر النظم فيه الدراريا

ولاح عمد الصبح مثل انتسابه ... رفعت عليه للمديح المبانيا

إمام أفاد المكرمات زمانه ... وشاد له فوق النجوم المعاليا

وجاوز قدر البدر نورا ورفعة ... ولم يرض إلاّ بالكمال موالیا

هو الشمس بثت فى البسيطة نفعها ... وأنوارها أَهْدَتْ قريبا وقاصيا

هو البحر بالإحسان يزخر موجه ... ولكنه عذب لمن جاء عافيا

هو الغيث مهما يمسك الغيث سحبه ... يروى بسحب الجود من كان صاديا

شـمـائله لو أنَّ الرياض بحـسنهـا ... لمّا صـار فيـهـا زهرها الغض ذاويا

فيا بن الملوك الصـيد من آل خزرج ... وذا نسب كـالصـبح عز مـسـاميـا

ألست الذى ترجـــو العـفـاة نواله ... فتـخجل جدواه السحـاب الغواديا

ألست الذى تخـشى البغـاة صيـاله ... فـتنزل عليـاه الصـعـاب العـواديا

وهديك مهما ضلـت الشهب قصدها ... تولـتـــــه فى جنح الـدجنة هـاديا

[وعزمك أمضى من حسامك فى الوغى ... وإن كان مصقول الغرارين ماضيا][1]

فكم قـــادح فى الدين يكفـــر ربه ... قـــدحت له زند الحـــفـيـظة واريا

ومـا راعـه إلاّ حـســـام وعـزمـة ... يضيـئان فى ليل الخطوب الدواجـيا

فلولاك يا شـمس الخـلافـة لم يبن ... سبـيل جهـاد كان من قـبل خافـيا

ولولاك لم ترفع سـمـاء عـجاجـة ... تلوح بهـــا بيض النصـــول درايا

ولولاك لم تنهل غـصـون من القنا ... وكـانت إلى ورد الـدمـاء صـواديا

فـأثمر فـيهـا النصل نصرا مـؤزرا ... فـأجنى قطاف الفتح غـضا ودانيـا

ومهـما غـدا سفـاح سيفـك عاريا ... يغـادر وجـه الأرض بالدم كاسـيـا

قـضى الله من فوق الـسمـوات أنه ... على من أبى الإسلام فى الأرض قاضيا

فكم مـعقل للكفـر صبـحت أهله ... بجـيش أعـاد الصبح أظلـم داجيـا

رقـيت إليـه والسيـوف مـشيحـة ... وقـد بلغت فيـه النفوس التـراقيـا

فـفـــتـحت مَـــرْقـاه الممـنع عنوة ... وبات به التـــوحـــيـد يعلـو مناديا

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٩٠.

وناقوسه بالقسر أمسى معطلا ومنبره بالذكر أصبح حاليا
عجائب لم تخطر ببال وإنما ظفرنا بها عن همة هى ماهيا
فمنك استفاد الدهر كل عجيبة يباهى بها الأملاك أخرى لياليا
وعنك يروى الناس كل غريبة تخط على صفح الزمان أماليا
ولله مبناك الجميل فإنه يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للأبصار من متنزه تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا
ولو مثلك فى ساحتيه لسابقت إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة جللته بحليها من الوشى تنسى السبارى اليمانيا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح إذ لاح باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجلو قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها على عظم الأجرام منها لآليا
به البحر دفاع العباب تخاله إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيدى الصبا صفح متنه أرتنا دروعا أكسبتنا الأياديا
وراقصة فى البحر طوع عنانها تراجع ألحان القيان الغواليا

إذا مـا علت فى الجـو ثم تحـدرت تحلى بمرفض الجـمـان النواحـيـا
يذوب لجـين سـال بين جـواهر غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشـابه جـار للعيـون بـجـامـد فلم أدر أيا مـنهـمـا كـان جـاريا
فإن شءت تشـبيهـا له عن حقيـقة تصيـب بها المرمى وبوركت رامـيا
فقـل أرقصت منهـا البحـيرة بنتـها كمـا يرقص المولود من كـان لاهيا
أرتنا طـبـاع الجـود وهى وليـدة ولم ترض فى الإحـسان إلاّ تغـاليا
سقت ثغر زهر الروض عذب برودها وقامت لكى تهدى إلى الزهر ساقيا
كـأن قد رأت نهـر المجـرة ناضبـا فـرامت بأن تجـرى إليـه السواقـيـا
وقـامت بنات الدوح فـيـه مـواثلا فـرادى ويتلو بعـضـهن مـثـانيـا
رواضع فى حجر الغـمام ترعرعت وشـبت فشـبت حبـها فى فـؤاديا
بهـا كل مـلتف الغـدائر مـسـبل تجـيل به أيدى النسـيم مـداريا
وأشرف جيـد الغصن فيهـا معطلا فـقلدت النوار مـنه التـراقـيـا
إذا مـا تحلت در زهر غـروسـه يبـيت لهـا النمام بالـطيب واشيـا
مـصـارفة الـنقدين فـيـهـا بمثلهـا أجاز بهـا قاضى الجمـال التقاضـيا
فإن ملأت كف النسـيم مع الضحى دراهم نور ظل عـنهـا مـكافـيـا
فيملأ حجـر الروض حول غصونها دنانير شـمس تترك الروض حـاليا
تغـرد الطيـر فى أفـنانهـا كلـمـا تجس به أيدى الـقـيـان الملاهيـا
تراجـعهـا سجعـا فتـحسب أنـها بأصـواتهـا تملى عليـهـا الأغـانيـا

فلم ندر روضـــا منه أنعم نـضـرة وأعطر أرجـــاء وأحلى مـجـــانيـا
ولم نر قـــصـرا منه أعلـى مظاهرا وأرفع آفـــاقـــا وأفـــسح نـاديا
معـانى من نفس الكمال انتـقيتـها وزينت منهـــا بالجـمـال المغـــانيـا
وفـاتحت مـبناها بعـيـد شـرعـتـه تبث به فى الخـافـقـين التـهـانيـا
ولما دعـوت الناس نـحـو صنيـعـه أجـابوا له من جانب الغـور داعيـا
وأمـوه من أقـــصى البـلاد تـقـربا وما زال منك السعد يدنى الأقاصيا
وأذكرت يوم الـعرض جودا ومنـعة بموقف عـرض كنت فـيه المجـازيا
جـزيت به كلا على حـال سـعيـه فـما غـرست يمناه أصـبح جـازيا
وأطلعت من جزل الوقـود هو ادجا تذكـر يوم النفـر من كان سـاهيـا
وحـين غـدا يذكى ببـابك للقـرى فـلا غرو أن أجـريت فيـه المذاكيـا
وطامـحـة فى الجـو غـــيـر مطالة يرد مـداها الطرف أحـسـر عـانيـا
تمد لهـــا الجـوزاء كف مـصـــافح ويدنو لهـا بدر الـسـمـاء مناجـيـا
ولا عجب أن فاتت الشـهب بالعلا وأن جـاوزت منهـا المدى المتناهيـا
فـبين يـدى مثـواك قـامت لخدمـة ومن خـدم الأعلى استـفاد المعالـيا
وشـــاهـد ذا أنى ببـــابك واقف وقـد حسـدت زهر النجوم مكانيـا
وقد أرضـعت ثدى الغمـائم قبلـها رياض كـن فـيـــه نواشـــيـــا
فلمـــا أُبينت عـن قـرارة أصلهـــا أرادت إلى مـرقى الغـمام تعـاليـا
وعدت لقاء السحب عـيدا وموسما لذاك اغتـدت بالزمر تلهى الـغواديا

فـأضحك البـرق الطروب خلالهـا وبات لأكـواس الدرارى مـعـاطيـا
رأت نفـسـهـا طالت فظنت بأنهـا تفـوت على رغم اللحـاق المراميـا
فـخـفت إليـهـا الذابلات كـأنهـا طيـــور إلى وكـــر أطلن تهـــاويا
حنكت شبهـا للنحل والنحل حوله عـصى إلى مـثواه نـهوى عـواليـا
فـمن مثـبت منهـا الرمـية مـدرك ومن طائش فى الجـــو حلق وانيـا
وحـصن منيـع فى ذراه قـد ارتقى فـأبعد فى الجـو الفـضـاء المراقيـا
كـأن بروج الأفق غارت وقـد رأت بروج قـصـور شـدتهن سـوامـيـا
فـأنشـأت برجـا صـاعـدا مـتنزلا يكـون رســولا بيـنهن مـــداريا
تظورت حـالات أتى فى ضروبهـا بأنواع حلـى تستـــفـز الغـوانـيـا
فحـجل برجليهـا وشاح بخـصرها وتاج إذا مـا حل منـهـا الأعـاليـا
ومـا هـو إلاّ طيـر سـعـــد بذروة غدا زاجرا من أشـهب الصبح بازيا
أ مـولاى يا فـخـــر الملوك ومن به سـيـبلغ دين الله مـا كـان راجـيـا
بنوك على حكم السـعادة خـمسـة وذا عـدد للعـيـن مـا زال واقـيـا
تبـيت لهم كـف الثـريا مـعـيـذة ويصـبح مـعـتل النسـيم رواقـيـا
أسـام عليـهـا لـلسـعـادة مـيـسم ترى العـز فـيـهـا مـسـتكنا وباديا
جعلت أبا الحـجاج فـاتح طرسهم وقد عـرفت منك الفـتوح التوالـيا
وحـسـبك سعـد ثم نصـر يليـهم محـمّد الأرضى فـما زلت راضـيا
أقـــمت به من فـطر الدين سـنة وجـددت من رسم الهداية عـافيـا

وجاءوا به ملء العيون وسامة ... يقلب وجه البدر أزهر باهية

فيا عاذرًا ما كان أجرأ مثله ... فمثلك لا يدمى الأسود الضواريا

وجاءتك من مصر التحايا كرائما ... كما فتقت أيدى التجار الغواليا

ووافتك من أرض الحجاز تميمة ... تتمم صنع الله لا زال باديا

وناداك بالتهويل سلطان طيبة ... فيا طيب ما أهدى إليك مناديا

وقام وقد وافى ضريح محمّد ... لسلطانك الأعلى هنالك داعيا

سريرتك الرحمى جزاك بسعيها ... اله يوفى فى الجزاء المساعيا

فوالله لولا سنة نبوية ... عهدناه مهديا إليها وهاديا

وعذر من الإعذار قرر حكمه ... من الشرع أخبار رفعن عواليا

لراعت بها للحرب أهوال موقف ... تشيب بمبيض النصول العواليا

لك الحمد فيه من صنيع تعده ... فثالثه فى الفخر عزز ثانيا

تشد له الجوزاء عقد نطاقها ... لتخدم فيه كى تنال المعاليا

وهنيت بالأمداح فيه وقد غدا ... وجودك فيه بالإجادة وافيا

ودونك من بحر البيان جواهرا ... كرمن فما يشرين إلاّ غواليا

وطاردت فيها وصف كل غريبة ... فأعجزت من يأتى ومن كان ماضيا

فيا وارث الأنصار لا عن كلالة ... تراث جلال يستخف الرواسيا

بأمداحه جاء الكتاب مفصلا ... يرتله فى الذكر من كان تاليا

لقد عرف الإسلام مما أفدته ... مكارم أنصارية وأياديا

عليك سلام الله فاسم مخلدا تجدد أعياد وتبلى أعاديا

ثم قال: ومن ذلك أيضًا فيما اعتمدنا به نحن وأخونا المتولى بالأمر بعد مولانا الوالد رحمة الله على الجميع من تلك الصنائع وهى جامعة لجم الأوصاف والبدائع:

نجوم أمدتها بدور كوامل لها النور من شمس الخلافة شامل
وفى الشهب من بدر السماء مشابه وفى البدر من شمس النهار مخايل
وتعرف فيها من أبيها شمائل كما فى أبيها من أبيه شمائل
مراتب فى عدد الحساب ثلاثة وهن لأقمار العلاء منازل
طلعن على حكم السعود أهلة وسرعان ما تبدو وهن كوامل
تجلت إلى الأبصار من أفق الهدى وبثت إلى الأنصار منها وسائل
فيأيها المولى الذى شاد آخرا من الفخر ما لم تستطعه الأوائل
بنوك كأمثل الأنامل عدة فزانت يد الإسلام تلك الأنامل
غصون بروض الجود منك ترعرعت وقد جادها من صوب نعماك وابل
فوا ما أدرى إذا ما تذوكرت أأخلاقها تجلى لنا أم خمائل
غيوث سماح والعفاة مسايل ليوث كفاح والكماة تنازل
سيوف محلاة على عاتق الهدى إذا تنتضى تمضى وتنبو المناصل
تخاف عداة الدين منهم وتتقى كما تتقى الأسد الظباء الجوافل
وإنَّ أبا الحجاج وهو كبيرهم محل كثير دونه متضائل
مليك إذا اتقبلت غزة وجهه تخليت أنَّ الشمس فيما تقابل

إذا استمطرت فى المحل سحب بنانه فهن لمستجد هوام هوامل

وإن سال ماء البشر فوق جبينه فليس بمدفوع عن الورد سائل

تقلد منه عاتق الملك صارما له العزم نصل والسعود حمائل

وأبناؤه در تناسق عقده يحلى بهم من لبة الفخر عاطل

أزهار فى روض المحاسن أينعت فلا روضها ذاو ولا الزهر ذابل

زواهر فى أفق العلاء تطلعت يشابه بعض بعضها ويشاكل

فما منهم إلاّ أغر محجل بورد المعالى فى الشبيبة ناهل

أقمت لها الإعذار موسم رحمة تسنت به للمتقين المآمل

وما هو إلاّ مورد لسعادة تفيض لها منه المنى والفواضل

وأجريت سرعان الجياد بملعب تذكر فيه موقف الجد هازل

نجوم وآفاق الطراد مشارق عليها بدور من وجوه كوامل

مفاتيح أبواب الفتوح فطالما أبيحت بها للكافرين المعاقل

فأشهب كالإصباح راق أديمه وغالت به شهب السماء الغوائل

ألم تر أنَّ الشهب فى الأفق كلما تجلى له الإصباح فهى أوائل

وأحمر زان الورد منه خميلة يحف به نهر من السيف سائل

جرت لونه من فوقه مهج العدا فلله منه الجامد المتسايل

تلاقى به أمثاله فكأنها جمار وقد أذكى بها البأس باسل

إذا قبست بالركض فى حومة الوغى تنير بها ليل القتام مشاعل

وأشقر مهما جاول البرق فى مدى ... يفوت جواد البرق منه المجاول

تحلى بمحلول النضار أديمه ... فكل محلى دونه فهو عاطل

وأدهم فى مسح الدجى متلفع ... وقد خاض منه فى الصباح الأسافل

يكلل بالجوزاء حلى لجامه ... فدر الدرارى من حلاه عواطل

ولم يرضه سرج الهلال مفضضا ... فأعرض عنها للأهلة ناعل

وأصفر فى ثوب الأصيل قد ارتدى ... وربتما ودت حلاه الأصائل

وقد قُدّ من برد العشى جلاله ... وفى ذيله صبغ من الليل حائل

وصاعدة فى الجو ملء عنانها ... تسامت أعنان السما وتطاول

طلعت تحيى البدر منها بصعدة ... عليها لواء الصبح فى الأفق ماثل

وقد أعربت بالرفع عن طيب فخرها ... متى نصبتها فى الفضاء العوامل

يمد لها الكف الخصيب بساعد ... ويشكى السماك الأعزل الرمح عامل

وتنتابها هيف العصى كأنها ... سهام وعاها للرمية نابل

تراوغها طورا وطورا تضيفها ... فسام لأعلى مرتقاها ونازل

وبالأمس كانت بعض أغصان دوحها ... فنقلها عنها على الرغم ناقل

فحنت إلى أوطانها وتسابقت ... تعارد مسراها بها وتواصل

وبرج منيف فى ذراها قد ارتقى ... لترفع منه للبروج الرسائل

تطور حالات أتى فى جميعها ... بأوضاع حلى وصفه متغافل

فتاج بأعلاها وشاح بخصرها ... وفى الساق منه قد أديرت خلاخل

وما هو إلاّ قائم مد ملكه ... إلى الله فى البقايا لما صد سائل

ولله عينا من رأى القصر حوله ... منازل فيها للسعود منازل

تروقك فيه للبدور مطالع ... إذا مثلت فى ساحتيه الأماثل

مظاهر أقمار مراتب أنجم ... منازل بالنصر العزيز أواهل

وقد كان هول الحفل روع أهله ... وأشعرت الإشفاق تلك المحافل

فأبدت به أبناء نجلك أوجها ... تبين إلى السارين منها المجاهل

فلا الحفل مرهوب ولا الخطو قاصر ... ولا السرب مرتاع ولا الروع هائل

ولا القلب منخوب ولا الحلم طائش ... ولا العقل معقول ولا الفكر ذاهل

أولئك أبناء الخلافة بوكروا ... وتجرى على أعدائهن الصواهل

هنيئا بها من سنة نبوية ... زها الفخر محصول لديها وحاصل

ورحمى له من عاذر بان عذره ... وأوهم نقصا فضله متطاول

فنقص الهلال الأفق ما زال مؤذنا ... لمرآه أن يبدو لنا وهو كامل

ومن نقص ظل الشمس تزداد رفعة ... إلى أن ترى والظل فى الشرق مائل

وإن تابع النقص الشهور فإنها ... على إثره تأتى وهن كوامل

ونقص صلاة الظهر يوم عروبة ... لمعنى كمال أوضحته الدلائل

وإن نقص البازى رياش جناحه ... يزيد استباقا وهو للصيد خاتل

وتستفرغ الأنعام ما فى ضروعها ... عَشِيًّا لتغدو والضروع حوافل

ونقص زكاة المال فيه وفوره ... ومشق ذباب السيف يخشاه صاقل

لك الخير من صنع جلوت محاسنا يحدى بها حدى السرى ويناقل
ألا هكذا فليعقد الفخر تاجه ويسمو إلى أوج العلا ويطاول
بأبلج غار الصبح منه بطلعة لها البدر تاج والنجوم قبائل
إذا خطب العليا تخطت بركبه على خطر المسعى القنا والقنابل
ولو رام إدراك النجوم بحيلة لأحرز من إدراكها ما يحاول
وإن طلبت زهر النجوم لحاقه فمن دون ما تبغى المدى المتطاول
وتخفق بالنصر العزيز بنوده إذا خفقت فيها الصبا والشمائل
وليل جهاد بات يرعى نجومه فلا الليل منجاب ولا النجم آفل
يراعى حماة الدين فيه بمقلة يرعى بها الإسلام كاف وكافل
إذا اشتاق هز الريح خافق بنده وإن حن غنته الجياد الصواهل
وفى الله عن وصل الأحبة مرغب وفى الغزو عن ذكر المنازل شاغل
من الخزرجيين اللذين نمتهم عشائر من قحطانها وفصائل
تسامى إلى ماء السماء فجوده بماء السماء فى البسيطة حائل
أقول لمستام الربيع وقد غدا يرود مصاب الغيث والعام ماحل
أمامك دار للغنى بربه بأرجائها للمعتفين مناهل
تجر من كفيه عشرة أبحر يغص بهن البحر وهى أنامل
فتجرى بها سفن الرجاء إلى مدى وليس إلى الجودى من الجود ساحل
فراجيه تستجدى العفاة نواله وسائله تزجى إليه الوسائل

أحاديث عنه فى السماح غريبة ... يروى عواليها عطاء وواصل

لك الله من تول غمام بنانه ... أقامت فروض البر منها النوافل

طلعت بأفق الغرب نير رحمة ... وقد شرقت منك العلا والفضائل

فحمدك أحرى ما أفادت حقائب ... وذكرك أسنى ما أقلت رواحل

تروم جوارى الشهب شأوك فى العلا ... ومن دونه للنيرات مراحل

وفى الصبح من ذاك الجبين أشعة ... وفى الشمس من ذاك المحيا دلائل

وفى الروض من رياك عرف ونفحة ... وفى الغيث من يمناك جود ونائل

إذا أنت لم تزج الجنود إلى العلا ... فإنَّ جنود الله عنك تقاتل

وإن لم تقومها سهاما مريشة ... فإن سهام الله عنك تناضل

تريش لك الأقدار أسهم أسعد ... تصاب بها للدار عين مقاتل

لك العز تستجلى الخطوب بنوره ... فليس له إلاّ الصباح مماثل

إذا العزم لم يصقل حسام كَمِيِّه ... فما نافع ما قد جلته الصياقل

فقبل مضاء السيوف تمضى عزائم ... وبعد بناء الرأى تبنى المعاقل

وما يستوى - والعلم لله وحده - ... عليم بأعقاب الأمور وجاهل

تظلل سحب الطير جيشك حيثما ... تميل به الرايات وهى حوامل

فلاقى بها عقبان طير وراية ... تبدى الأعادى والرماح حبائل

فقل لعميد الروم دونك فارتقب ... طلائع فيها للمنايا رسائل

وشم بارق السيف اللموع جفونه ... سحاب قتام تحته الدم سائل

ولا تزجر الغربان فى البحر إنها سفائن والبحر المذلل حامل
ولكنها والله ينجز وعده جوار بآساد الرجال حوامل
ومخضرة الأرجاء فى جنباتها مارح تحميها الرماح الذوابل
ترى الدوح منها بالأسنة مزهرا إذا ما سقته للسيوف الجداول
تبل غليل الرمح من مهج العدا إذا ما كست منها الرماح غلائل
فيا عجبا للرمح رويته دما وقد راق منه العين ريان ذابل
لقد كملت فيك المحاسن كلها وما كل من يعطى الخلافة كامل
فعند جميع الخلق شكرك عاجل وعند الإله الحق أجرك آجل
ودونك من نظمى جوهر حكمة يفاخر منها السحر بالشعر بابل
وما هو إلاّ ذكر أوصافك العلا فتفعل يا مولاى والعبد قائل
فتتلى على الأسماع منها بدائع وتجلى على الأبصار منها عقائل
ولو أننى أدركت أعصار من مضى لمّا قال فيها الشاعر المتخايل
«وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل»
ولافتخرت قدما إياد بقسها ولا استصحبت سحبان فى الفخر وائل
فلا زلت يا مولاى مورد رحمة عطاش الأمانى فى رضاك نواهل
تقيم رسوم المعلوات بمغرب وذكرك فى أقصى البسيطة حائل
وأدركت فى الأعداء ما أنت طالب وبلغت فى الأبناء ما أنت آمل

ثم قال: ومن ذلك فى الصنيع المختص بالأمراء الجلة، أخينا المعز لدولتنا أبى الحسن، وأخينا أبى العباس، وابن عمنا أبى عبد الله، وصل الله سعودهم، ولقد أبدع فى تشييده وتأسيسه، وبسط يد الحسن من براعة تخميسه، وذلك عام عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبتة لما عادت إلى ملكه، قال:

أرقت لبرق مثل جفنى ساهرا ينظم من قطر الغمام جواهرا[1]

فأضحك زهر الروض منه أزاهرا وصبح حكى وجه الخليفة باهرا

تجسم من نور الهدى وتجسدا

شفائى معتل النسيم إذا انبرى وأسند عن دمعى الحديث الذى جرى

وقد فتق الأرجاء مسكا وعنبرا كأن الغنى بالله فى الروض قد سرى

فهبت به الأرواح عاطرة الردا

عذيرى من قلب إلى الحسن قد صبا تهيجه الذكرى ويصبو إلى الصبا

ويجرى جياد اللهو فى ملعب الصبا ولولا ابن نصر ما أفاق وأعتبا

رأى وجهه صبح الهداية فاهتدى

إليك أمير المسلمين شكاية جنى الحسن فيها للقلوب جناية

وأعظم فيها بالعيون نكاية وأطلع فى ليل من الشعر آية

محيا جميلا بالصبح قد ارتدى

بهديك تهدى النيرات وتهتدى وأنوارها جدوى يمينك تجتدى

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٩٦.

وعـدلك للأمـلاك أوضح مرشـد بآثار فى مـشـكل الأمـر تقـتـدى

فما بال سلطان الجمـال قد اعتدى

تحكم منا فـى نفـوس ضـعـيـفـة وسل سـيوفا مـن جفـون نحيـفة

ألم يدر أنـا فى ظلال خلـيـــفـــة ودولة أمـن لا تراع منـيـــفـــة

بهـا قـد رسا دين الهـدى وتمهـدا

خـذوا بدم المشـتـــاق لحظا أراقـه وبرقـــا بأعـــلام الثنيـــة شـاقـــه

وإن كلفـوه فـوق مـا قـد أطاقـه يبث حـديـثـا مـا ألذ مـســـاقـه

خليـفـتنا المولى الإمـام مـحـمّـد

تقلد حكـم العـدل دينا ومـذهبـا وجـور الليـالـى قـد أزاح وأذهبـا

فـيا عـجبـا للشـوق أذكى وألهبـا وسل صبـاحا صارم البرق مـذهبا

وقد بات فى جفن الغمـامة مغمدا

يذكـرنـى ثغـرا لأسـمـاء أشـنبـا إذا ابتسـمت تجلو من الليل غيهـبا

كـعزم أمـير المسلمـين إذا احتـبى وأجرى به طرفا من الصـبح أشهبا

وأصـــــدر فـى ذات الإله وأوردا

فسـبحان من أجـرى الرياح بنصره وعطـر أنفـــاس الرياض بشـكره

فبرد الصـبا يطوى على طيب نشره ومهـما تجلى وجـهه وسط قـصره

ترى هالة بـدر السـمـاء بـهـا بدا

إمـــام أفـــاد المـعلوات زمـــانه فـمـا لحـقت زهر الـنجـوم مكانه

ومـدّ على شـــرق وغـرب أمـانه ولا عـيب فـــيـه غـيـــر أنَّ بنانه

تغرق مـستجـدية فى أبحر الندى

هو البـحـر مدّ العـارض المتـهللا هو البـدر لكـن لا يزال مكتـمـلا

هو الدهر لا يخشى الخطوب ولا ولا هو العلم الخفـاق فى هضبـة العلا

هو الصارم المشهور فى نصرة الهدى

أمـا والذى أعطى الوجود وجـوده وأوسع من فـوق البـسيطة جـوده

لقـد أصحب النصـر العـزيز بنوده ومـدينة بأمـلاك الـسـمـاء جنوده

وأنجـز للإسـلام بالنصـر موعـدا

أمـولاى قـد أنجـــحت رأيا ورواية ولم تبق فـى سـبق المكارم غـــاية

فتـهدى سـجاياك ابن رشـد نهاية وإن كـان هذا السـعـد منك بداية

سـيبـقى على مـر الزمان مـخلدا

سـعودك تغنى عـن قراع الكتـائب وجودك يزرى بـالغمام الـسواكب

وإن زاحـمتـها شـهـبهـا بالمناكب ووجـــهك بدر المنتـــدى والمواكب

وقد فسـحت فى الفخر أبناؤك المدى

بنوك كـــأمـــثـــال الأنامل عـــدة أعـدت لّما يخشى من الدهر عـدة

وزيد بهـم برد الخـــلافـــة جـــدة أطال لهـم فى ظل ملـكك مـــدة

إله يطيـل العـمـــر منك مـــؤبدا

يدور بأوصاف الكمال استقلت غمام بفياض النوال استهلت

سيوف على الأعداء بالنصر سلت نجوم بآفاق العلاء تجلت

ولاحت كما شاءت سعودك أسعدا

وإنَّ أبا الحجاج سيفك منتضى وبدر بآفاق الجمال تعرضا

بنورك يا شمس الخلافة قد أضا وراقت على أعطافه حلل الرضا

فحل محلا من رضاك ممهدا

مليك له تعنو الملوك جلالة يجرر أذيال الفخار مطالة

وتفرق أسد الغاب منه بسالة وترضاه أنصار الرسول سلالة

فأبناؤه طابوا فروعا ومحتدا

أزاهر فى روض الخلافة أيعنت زواهر فى أفق العلاء تطلعت

جواهر أعيت فى الجمال وأبدعت وعن قيمة الأعلاق قدرا ترفعت

يسر بها الإسلام غيبا ومشهدا

بعهد ولى العهد كرم عهده وأنجز فى تخليد ملكك وعده

تنظم منهم تحت شملك وعقده وأورثهم فخرا أبوه وجده

فأعلى عليا حين أحمد أحمدا

تحوط بهم ملكا عزيزا وملة وتلحظ عين السعد منهم أهلة

ستبدو على أفق العلا مستقلة وسحبها بفياض الندى مستهلة

تفجر بحرا للسماحة مزبدا

ونجلك نصر يقتفى نجل رسمه أمير يزين العقل راجح حلمه
أتاك بنجل يستضاء بنجمه لحب رسول الله سماه باسمه
وباسمك فى هذى الموافقة اقتدى

أقمت بإعذار الإمارة سنة وطوقها من حلى فخرك منة
وأسكنتها فى ظل برك جنة وألحفتها برد اعتنائك جنة
وعمرت منها بالتلاوة مسجدا

فلله عينا من رآهم تطلعوا غصونا بروض الجود منك ترعرعوا
وفى دوحة العلياء منك تفرعوا ملوك بجلباب الحياء تقنعوا
أضاء بهم أفق قصرك منتدى

وقد أشعروا الصبر الجميل نفوسهم وقد أفرغوا فوق الحلى لبوسهم
وقد زينوا بالبشر فيه شموسهم وعاطوا كئوس الأنس فيه جليسهم
وأبدوا على هول المقام تجلدا

شمائل فيهم من أبيهم وجدهم تفصل آى الفخر فيها بحمدهم
وتنسبها الأنصار قدما لسعدهم تضئ بها نورا مصابيح سعدهم
ولم لا ومن صحب الرسول توقدا

فو الله لولا سنة قد أقمتها وسيرة هدى للنبى علمتها
وأحكم عدل للجنود رسمتها لجالت بها الأبطال تقصد سمتها
وتترك أوصال الوشيج مقصدا

ويا عـاذرا أبدى لنـا الشـرع عـذه طرقت حـمى قـد عظم الله قـدره
وأجريت طيبا يحـسد الطيب نشره لد جئت مـا تستطعم الصيـد أمره
وتفـديه إن يقـبل خليـفـهـا فـدا
رعى الله منهـا دعـوة مـستـجـابة أفـادت نـفـوس المخلصـين إنابة
ولم تلف من دون القـبول حـجابة وعـاذرها لم يبـد عـذرا مـهـابة
فـأوجب عن نقص كـمـالا تزيدا
فنقص زكـاة المال وفـر نصـابه ومـا السيف إلاّ بعـد مـشق ذبا به
ومـا الزهر إلاّ بعـد شـق إهابه بقطع يـراع الخط حـسن كـتـابه
وبالـنقص يزداد الـذبال توقـدا
ولّما قـضوا من سنة الشـرع واجبـا ولم نلق من دون الخـلافة حاجـبا
أفـضـنا منك جـذلان واهـبـا أفـاض عليـنا أنعـمـا ومـواهبـا
تعـود بذل الجـود فـيـمـا تعـودا
هنيـئـا بهـذا قـد بلغت مـؤمـلا وأطلعت نـورا يبـهـر المتـأمـلا
وأحـرزت أجر المـنعمـين مكمـلا تبـارك من أعطى جـزيلا وأجمـلا
وبلغ فـيك الدين والملك مقـصدا
أَلا فى سبـيل العز والفخـر موسم يظل بـه ثغـر المسـرة يبـسم
وعـرف الـرضـا من جـوه يَـتَنَسَّم وأرزاق أرباب السـعـادة تقـسم
فـفى وصـفـه ذهن الـذكى تبلدا

وجللت فى هذا الصنيع مصانعا تمنى بدور التم منها مطالعا

وأبديت فيها للجمال بدائعا وأجريت للاحسان فيها مشارعا

يود بها نهر المجرة موردا

وأجريت فيها الخيل وهى سوابق وإن طلبت فى الروع فهى لواحق

نجوم وآفاق الطرد مشارق يفوت التماح الطرف منها بوارق

إذا ما تجارى الشهب تستبق المدى

وتطلع فى ليل القتام كواكبًا وقد وردت نهر النهار مشاربًا

تقود إلى الأعداء منها كتائبًا فترسم من فوق التراب محاربا

تخر رءوس الروم فيهن سجدا

سواج بالنصر العزيز سوانح وهن لأبواب الفتوح فواتح

توقد إليك النصر والله مانح فما زلت باب الخير والله فاتح

وما ثم شىء قد عدا بعد ما بدا

رياح لها مثنى البروق أعنة ظباء فإن جن الظلام فجنة

تقيها من البدر المتمم جنة وتشرع من زهر النجوم أسنة

فتقذف شهب الرجم فى ثغر العدا

فأشهب من نسل الوجيه إذا انتمى جرى فشأى شهب الكواكب فى السما

وخلف منها فى مقلد أنجما تردى جمالا بالصباح وربما

يقول له الإصباح نفسى لك الفدا

واحمـر قد أذكى به البأس جـمرة وقد سلب اليـاقوت والورد حـمرة
أدار به سـاق من الحـرب خـمـرة وأبدى حـبـابا فوقـهـا ألسن غـرة
يزين بهـا خـــدًا أسـيـلا مـوردا
وأشـقـــر مـهـمـا الركـض برقـه أعار جـواد البرق فى الأفق سبـقه
بدا شـفقـا قد جلل الحـسن أفقـه ألـم تر أنَّ الله أبـدع خلـقـــــه
فسأل على أعطافه الحـسن عسجدا
وأصـفـر قد وَدّ الأصـيل جـمـاله وقـــد من برد الـعـــشى جـــلاله
إذا أســـرجـوا جنح الـظلام ذباله فـــغـــرتـه نجم تضئ مـــــجـــاله
وفى ذيله ذيل الـظلام قـد ارتدى
وأدهم فى مـسح الدجى مـتجـرد يجـيش به بحـر مـن الليل مـزبد
وغـــــرته نجم بـه مـــتـــــوقـــد له البـدر سـرج والنـجـوم مـقلد
وفى فلق الصـبـح المبـين تقـيـدا
وأبيض كـالقرطاس لاح صـباحـه على الحـسن مغـداه وفيـه مراحـه
وللظبـــيـات الآنسـات مـــراحـه تراه كنـشـــوان أمـــالتـــه راحـــه
وتحـسبـه وسط الجـمـال معـربدا
وذاهبـــة فى الجـــو ملء عنانهـــا وقـد لفعـتهـا السحب برد عنانهـا
يفـوت يرتداد الطرف لمح عـيانهـا وخـتـمت الجـوزاء سـبـط بنانهـا
وصاغت لهـا حلى النجوم مقـيدا

أراها عمـود الصبح علو المصـاعد وأوهمـهـا قـرب المدى المتبـاعـد

ففـاتته سـبقـا فى مجـال الرواعد وأتحـفت الكف الخضـيب بساعـد

فطوقت الـزهر النجـوم بهـــا يدا

وقـد قذفـتـها للـعصى حـواصب قد انتـشرت فى الجـو منها ذوائب

تزاور منهـا فى الفـضاء حـبـائب فـبـيـنهـا من قـبل ذلـك مناسب

لأنهـمـا فى الـروض قـبل تولدا

بنات لأم قـد حـيـــين بروحـهـا دعاها الهوى من بعد كـتم لبوحها

فـأقـلامهـا تهـوى لخط بلوحـهـا فبالأمس كانت بعض أغصان دوحها

فعـادت إليها اليوم من بعـد عودا

ويا رب حصن فى ذراعهـا قد اعتلى أنارت بروج الأفق فى مظهـر العلا

بروج قـصـور شـدتـهـا مـتطولا فـأنشـأت برجـا صـاعـدا مـتنزلا

يكون رســـولا بينهـــا مـتـــرددا

وهل هى إلاّ هـالة حـــول بـدرها يصـوغ لهـا حليًـا يلـيق بنحـرها

تطور أنواعـــا تشـيـد بفـــخـرها فحـجل برجلهـا وشاح بخصـرها

وتاج بأعـلى رأســـهـــا تنضـــدا

أراد اسـتـــراق السـمـع وهو ممنع فـــقـــام بـأذيال الدجى يتـــفلح

وأصـغى لأخبـار السـمـا يتسـمع فـــأتبـــعـــه منهـــا ذوابل شـــرع

لتـقـذفه بالرجـم مثنى ومـوحـدا

ومـــا هو إلاّ قـــائم مـــد كـفـــه ليـسـأل من رب السمـوات لطفـه
لمولـى تولاه وأحكم رصـــــفـــــه وكلف أرباب البـــلاغـة وصـفـه
واكـرم منـه القـانت المتـهـــجـدا
مـــلاقى ركب من وفـــود النواسم مـقـبـل ثغـر للبـروق الـبـواسم
مـخـــتم كف بالنجـــوم العـواتم مـبلغ قـصد من حـضـور المواسم
تجـــدده مـهـــمـــا صنيع تجـــددا
ومـضطرب فى الجـو أثبت قـامـة تقـدم يمـشى فى الهـواء كـرامـة
تطلع فى غـصن الرشـاء كـمامـة وتحـسـبـه تحت الغـمام غـمـامـة
يسـيل على أعطافـه عـرق الندى
هوى واسـتـوى فى حـاله وتقلبـا كـخـــاطف برق قـد تألق خـلبـا
ونحسـبه قـد دار فى الأفق كوكـبا ومهما مشى واستـوقف العقل معجبا
تقلب فـيـه العـين لحـاظا مـرددا
لقـــد رام لـلســـمـــاء بسـلم فـيـمـشى علـى خط به مـتـوهم
أجل فى الذى بـيـديه فـكر توسم ترى طائرا قـــد حل صـورة آدمى
وجنا بمـهـــواة الفـــضـــاء تمردا
ومنتـسب للخال سـمـوه ملجمـا له حكمـات حكمـهـا فاه ألجـمـا
تخـالف جنـســا والداه إذا ابتـمى كـما جنسـه أيضًا تخـالف عنهمـا
عـــجـــبـت له إذ لم يلـد وتولدا

قـلائتهـا فى الذكر جـاءت مبـينة من اللاء ســـمـــاها لنـا الله زينة
وأنزل فـيـــهـا آية مـــسـتـبـــينة وأودع فـيـهـا للجـهـــول سكينة
وآلاءه فـيـهـا عـلى الخلق عـددا

كسـوه من الوشى اليمـانى هودجا يمد على مـا فوقه الظل سجـسجا
وكم صـورة تجلى به تبهـر الحجـا وجـزل وقـود ناره تصـدع الدجى
وقلب حسـود غاظ مذكيـه موقدا

ومـــا هى إلاّ مظهـــر لجـــهـــاده أرتنا بهـا الأفراح فـضل اجتـهاده
مـلاعـبـها هزت قـدود صـعـاده وأذكـــــرت الأبـطال يـوم طراده
فما ارتبت فـيه اليوم صدقـته غدا

أَلاَ جـدد الرحمن صنعـا حضـرته ودوح الأمـــانى فى ذراه هصـــرته
بقصر طويل الوصف فيه اختصرته يقـيد طـرف الطرف مهـمـا نظرته
«ومن وجد الإحـسان قيدا تقـيدا»

دعـوت له الأشـراف من كل بلدة فـجـاءها بآمـــال له مـسـتـجـدة
وخـصـــوا بألطاف لديه مـــعـدة أياد بفـيـاض الـندى مـسـتـمـدة
فكلـهم من فـــضلـه قـــد تزودا

وجـاءتـك من آل النبى عـصـــابة لهـا فى مـرامى المكرمـات إصـابة
أحـبتك حـبا ليـس فيـه استـرابة ولبت دواعى الخـيـر منهـا إجـابة
وناداهم التخصيص فابتدروا الندى

أجازوا إليك البحر والبحر يزخر لبحر سماح مَدُّه ليس يجيز

فرواهم من عذب جودك كوثر ووالیت من نعماك ما ليس يحصر

وعظمتهم ترجو النبى محمّدا

عليه صلاة ثم سلامه به طاب من هذا النظام اختتامه

وجاء بمحمد الله حلوا كلامه يعز على أهل البيان مرامه

وتمسى له الكواكب حسدا

أبث به حادى الركاب مشرقا حديث جهاد للنفوس مشوقا

رميت به من بالعراق مفوقا وأرسلت منه بالبديع مطوقا

حماما على دوح الثناء مغردا

ركضت به خيل البيان إلى مدى فأحرزت فضل السبق فى حلبة الهدى

ونظمت من در الدرارى مخلدا وطوقت جيد الفخر عقدا منضدا

وقمت به بين السماطين منشدا

نسقت من الإحسان فيه غرائدا وأرسلت فى روض المحاسن رائدا

وقلدت عطف الملك منه قلائدا تعودت فيه للقبول عوائدا

فلا زلت للفضل الجزيل معودا

ولا زلت للصنع الجميل مجددا ولا زلت للفخر العظيم مخلدا

وعمرت عمرا لا يزال مجددا ومتعت بالأبناء أوحد أوحدَا

وقرت بهم عيناك ما سائق حدا

ومن العيديات[1]:

هذى المعـــالم لفظ أنت مـــعناه ... كل يقـــول إذا استـنطقتـــه الله

بحـر والوجود فلك الكون جـارية ... وباسـمك الله مـــجـراه ومـرسـاه

من نور وجهك ضاء السكون أجمعه ... حـتـى تشـيـــد بالأفـلاك مـــبناه

عـرش وفـرش وأملاك مـسـخـرة ... وكلهـــا ســـاجـــد لله مـــولاه

سبحان من أوجد الأشياء من عدم ... وأوسع قـــبل الكـون نعـــمـــاه

من ينسب النـور للأفـلاك قلت له ... من أين أُطـلعت الأفـــلاك لولاه

مولاى مولاى بحـر الجود أغرقنى ... والخلق أجـمع فى ذا البحر قـد تاهوا

فالفلك تجـرى كما الأفـلاك جارية ... بحـر السمـاء وبحر الأرض أشـباه

وكلـهـــا نعـم للخـلق شـــامـلة ... تبـــارك الله لا تحـــصى عطـاياه

يا فاتق الرتق من هذا الوجـود كما ... فى سابق الـعلم قد خطت قـضاياه

كن لى كما كنت إذ كنت لا عملا ... أرجو ولا ذنـب قد أذنبت أخـشاه

وأنت فى حضـرات القدس تنقلنى ... حـتى استـقـر بهـذا الكون مثـواه

مـا أقبح الـعبـد أن ينسى وتذكـره ... وأنت باللطف والإحـسـان ترعـاه

غـفـرانك الله من جـهـل بليت به ... فـيمن أفـاد وجـودى كيف أنسـاه

منى على حـجـاب لست أرفـعـه ... إلاّ بتـــوفـيق هدى منك تـرضـاه

فـعـد على بمـا عـودت من كـرم ... فـأنت أكـــرم من أملت رحـــمـاه

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٧١.

ثم الصـــلاة صـــلاة الله دائمـــة على الذى باسمه فى الذكـر سماه
المجـتـبى وزناد النور مـا قـدحت ولا زكا من نـسيم الروض مـسراه
والمصطفى وكمام الكون مـا فتقت عن زهـر يروق العـــين مـــرآه
ولا تفـــجـر نهـــر للنهـــار على در الدرارى فـــغـطاه وأخـــفـــاه
يا فاتح الرسل أو يا خَـتْمَهَا شـرفا والله قـدس فـى الحـالين مـــعناه
لم أدخـر غيـر حب فـيك أرفعـه وســـــيـلة لريـم يوم ألـقـــــاه
صلى عـليك إله أنت صـــفـــوته مـــا يطيب بلذيـذ الذكـر أفـــواه
وعم بالروح والريحـان صـحـبتـه وجـادهم من نمير العـفـو أصفـاه
وخص أنصـاره الأعلين صـفـوته وأسكنـوا من جـــوار الله أعـــلاه
أنصـــار ملتـــه أعـلام بيـــعـتـــه مناقـب شـــرفت أثنـى بهـــا الله
وأيد الله من أحـــيـــا جـهـــادهم وأوصل الفـــخـــر أولاه بأخـــراه
المنتـقى من صمم الفـخر جـوهره مـــا بين نصـــر وأنصـار تهـــاداه
والعلم والحلم والإقـبـال شيـمتـه والبأس والجود بعـض من سجاياه

وهى طويلة، سردها هذا المؤلف كلها، ومنها:

يهنى زمـــانك أعـيـاد مـــجـددة من الفـــتح مـدى الأيام تغـــشـاه
غـضبت للدين والدنيـا بحقـهمـا يا حـبـذا غـضب فى الله أرضـاه
فـوقت للغرب سـهمـا راشه قـدر وســـدد الله للأعـــداء مـــرمـــاه
سـهم أصـاب ورامـيـه بذى سلم لقد رمى الغرض الأقـصى فأصماه

من كـان بندك يا مـولاى يقـدمـه فليـس يخلفـــه فـــتح تـرجـــاه
من كـان جندك جـند الله ينصـره أنالـه الله مـــا يرجـــو وأسـناه
ملكـتـه غَـــرْبَه خلدت مـن ملك للغـــرب والشـــرق منه مـــا تمناه
وسام أعداءك الأشـقين ما كـسبوا ومـن ترى رداء الـغـــــدر أرداه
قل للذى رمـدت جـهلا بصـيـرته فلم تر الشمس شمس الهدى عيناه
غطى الهوى عقله حتى إذا ظهرت له المراشـــد أعـــشـــاه وأعـمـــاه
هل عنده وذنـوب الغـدر توبـقـه أنَّ الذى قـد كـسـاه العـز أعـراه
لو كـان يشكر مـا أوليت من نعم مـا زلت ملجاه الأحـمى ومنجـاه
سل السعـود وخل البيض مغـمدة فالسيف مهما مضى فالسعد أمضاه
واشرع من البرق نصلا راع مصلته وارفع من الصبح بندا راق مـجلاه
فـالعدوتان ومـا قـد ضم ملكهمـا أنصـــار ملكك صـان الله علـيـاه
لا أوحش الله قطـرا أنت مـــالكه وآنس الله بـالألطـاف مـــــغـناه
لا أظلم الله أفـــقـــا أنت نيـــره لا أهمل الله سـرحـــا أنت ترعـاه
وأهنأ بشـهـر الصـيـام جـاء رائده مـستـنزلا من إله العـرش رحمـاه
أهل بالســـعـــد فـانهـلت به منن وأوسع الصنـع إجـمـــالا ووفـاه
أمـا ترى بركـــات الأرض شـاملة وأنعـم الله قـد عـــمت بـراياه
وعـادك العـيد تسـتـحلى مـوارده ويجـزل الأجر والرحـمى مصـلاه
جـهزت جـيش دعاء فـيـه ترفعـه لذى المعـــارج والإخـلاص رقـــاه

أفضت فيه من النعماء أجزلها وأحسن البر ما الإحسان زكاه
واليت للخلق ما أوليت من نعم والى لك الله ما أولى ووالاه

ثم قال بعد سرد عدة قصائد: ومن بدائعه المنيفة عيدية ميلادية، وافقتها وجهته من غزوات مولانا الجد أيضًا:

لو كنت أعطى من لقائك سولا لم أجد برق الغمام رسولا
أو كنت أبلغ من قبولك مأملى لم أودع الشكوى صبا وقبولا
لكن معتل النسيم إذا سرى ما زال يوسع ذا الهوى تعليلا
وبملتقى الأرواح دوحة أيكة جاذبتها عند الهبوب مميلا
عهدى بها سدلت على ظلالها فسدلت ظلا للشباب ظليلا
رتعت به حولى الظباء أوانسا فنعمت فيه معرسا ومقيلا
وصقلت للحسناء صفح مودتى لما اجتليت العارض المصقولا
ثم انتشيت وقد تعاطيت الهوى ريما أغر وجؤذرا مكحولا
كم فيه من ملح لمرتاد الهوى تركت فؤاد محبه متبولا
لم ترو لى عيناه حكمة بابل إلاّ أخذت حديثها مقبولا
ولقد أجد جواى لما زرته رسما كحاشية الرداء محيلا
قد أنكرته العين إلاّ لمحة عرفت به آثاره تخييلا
وإذا الطلول تعرضت لمتيمٍ غادرن دمع جفونه مطلولا
من ينجد الصبر الجميل فانه بعد الأحبة قد أجد رحيلا

كيف التجمل بعدهم وأنا الذى ... أنسيت قيسا فى الهوى وجميلا

من عاذرى والقلب أوّل عاذل ... فيمن أفند لائمًا وعذولا

اتبعت فى دين الصبابة أمة ... ما بدلوا فى حبهم تبديلا

يا موردًا حامت عليه قلوبنا ... لو نيل لم تَجْرِ المدامع نيلا

ما ضر من رَقَّت غلائله ضحًى ... لو بات ينقع للمحب غليلا

كم ذا أعلل بالحديث وبالمنى ... قلبا كما شاء الغرام عليلا

أعديت وصلة الهديل بسحرة ... شجوا وجانحة الأصيل نحولا

وسريت فى طى النسيم لعلنى ... أحتل حيا بالعقيق حلولا

هذا ووجدى مثل وجدى عندما اسـ ... ـتشعرت من ركب الحجاز رحيلا

قد سددوا الأنضاء ثم تتابعوا ... يتلو رعيل فى الفلاة رعيلا

مثل القسى ضوامر قد أرسلت ... يذرعن عرض البيد ميلاً ميلا

مترنحين على الرحال كأنما ... عاطين من فرط الكلال شمولا

إن يلتبس علم الطريق عليهم ... جعلوا التشوق للرسول دليلا

يا راحلين وما تحمل ركبهم ... إلاّ قلوب العاشقين حمولا

ناشدتكم عهد المودة بيننا ... والعهد فينا لم يزل مسئولا

مهما وصلتم خير من وَطِئَ الثرى ... أَنْ توسعوا ذاك الثرى تقبيلا

يا ليت شعرى هل أعرس ليلة ... فأشم حولى إذخرا وجليلا

أو ترونى يوما مياه مجنةٍ ... ويشيم طرفى شامة وطفيلا

وأحط فى مـثوى الرسول ركـائبى وأبيت لـلحـرم الشـريـف نزيلا
بمنزل الـوحى التى قـد شـرفت قـد شـافـهت أعـلامـهـا التنزيلا
بمعـاهـد الإيمـان والديـن التى قـد صافـحت عرصـاتهـا جبـريلا
ومـهـاجـر الدين الحنـيف وأهله حـيث استـقـر به الأمـان دخيـلا
دار الرسـول ومطلع القـمـر الذى إبداؤه مـا فـارق التـكمـيـلا
يا حـبـذى تـلك المعـالم والربا يا حـبـذا تـلك الطلـول طلولا
حـيث النبـوة قـد جلت آفـاقـهـا وجـهـا من الحق المبـين جـمـيـلا
حـيث الرسالة فـصلت أحكامهـا لتـبـين التـحـريم والتـحـليـلا
حيث الشـريعة قد رست أركـاتها فـالنص مـنهـا يعـضـد التـأويلا
حـيث الهـدى والدين والحق الذى مـحق الضـلال وأذهب التـضليـلا
حيث الـضريح يضم أكـرم مرسل وأجل خلق الله جـيـلاَ جـيـلا
إنَّ الإله اخـتـارها لمقـامـه واخـتـاره للعـالميـن رسـولا
رحم الإله الـعـالمين ببـعـثـه فـيـهم وفـضل جنسـه تفـضـيـلا
بدعـائه انقـشع الغـمـام وقـبلهـا والت بدعـوته الغـمـام همـولا
والشـمس قـد ردت له ولـطالما قـد ظلـلتـه سـحـابهـا تظـليـلا
لم لا يطاوعـه الوجـود وقد غـدا من نـوره فى خلقـه مـعـلولا
يا نكتـة الأكـوان يـا علم الهـدى آيات فـضـلك رتلت تـرتيـلا
لولاك لم يك للكـيان حـقـيـقـة ولكان باب وجـودها مـقـفـولا

لولاك لـلزهر الكـواكب لم تـلح ... مـثل الأزاهر مـا عـرفن ذبولا
لولاك لم تجعل السـماء شموسـها ... ولكان سـجف ظلالهـا مـسبـولا
لولاك مـا عـبـد الإله ومـا غـدا ... ربـع الجنـان بأهـله مـأهـولا
يا رحـمـة الله التى ألطفـهـا ... سـحـبت علينـا للقبـول ذيولا
يا حـجـة الله التى برهـانهـا ... مـا كان يـوما صـدقـه مـجهـولا
كم آيه لك قـد صـدعـت بنورها ... ليل الـضـلال وإفكه المـنحـولا
أوضحتـها كالشمس عند طـلوعها ... وعـقلـت عن إدراكـهن عـقـولا
وأتيت بـالذكـر الحكيم مـبـينا ... قـد فـصلـت آياته تفـصيـلا
أثنى علـيك بكتـبـه من أنزل الـ ... ـقـرآن والـتـوراة والإنجـيـلا
فـإذا البليغ يروم مـدحك جـاهدا ... أضـحى حـسام لسـانه مـفلولا
يا شـافـع الرسل الكـرام ومن به ... يرجـون فى يوم الحـساب قـبـولا
رفـقـا بمن ملك القـضاء زمـامـه ... فـغـدًا بقـيـد ذنوبه مـعـقـولا
وحسرتا ضيـعت عمرى فى الهوى ... والتـوب أضـحى دينـه ممطولا
وجريت فى طـلق البطالة جمـاحًا ... حـتى انثنى طرف الشـبـاب كليـلا
وعـثرت فـى طلب المفاز جـهـالة ... لكن وجـدتك لـلعـثـار مـقـيـلا
يا صـفـوة الله الأمـين لوحـيـه ... من أم جـاهك أحـرز الـتـأميـلا
والله مـالى للخـلاص وسـيلة ... إلاّ رضـاك وعـفـوك المأمـولا
إنْ كنت مـا أعـددت زادًا نافـعًـا ... أعـددت حبـك شافـعًـا مـقبـولا

صلى عليك الله ما ركب سرى ... فأجد وخدًا فى المفازة ميلا
وأعز من ولاه أمر عباده ... فحباهم إحسانه الموصولا
وأقام مفروض الجهاد بعزمةٍ ... تركت بأفئدة العداة فلولا
والله ما أدرى وقد حضر الوغى ... أحسامه أم عزمه مصقولا
ملك إذا لثم الوجود يمينه ... فالبحر عذبا والرياض بليلا
أو يخلف الناس الغمام وامحلوا ... فنداه لا يخشى العفاة محولا
من دوحة نصرية يمنية ... وشجت فروعا فى العلا وأصولا
فإذا سألت الكتب نقل فضيلة ... لم تلف إلاّ فخرها منقولا
يأيّها الملك الذى أيامه ... وضحت بأوجه طردهن محولا
والله ما آثار هديك عندنا ... إلاّ نجوما ما عرفن أفولا
لم يعرف التركيب سيفك فى الوغى ... فاعجب له قد أحكم التحليلا
كم صورةٍ لك فى الفتوح وسورة ... تجلى وتتلى بكرة وأصيلا
لم تسر سارية الرياح بطيبة ... إلاّ لتحمل ذكرك المعسولا
وكأنَّ صفح البرق سيفك ظل من ... غمد الغمامة مرهفا مسلولا
كم بلدة للكفر قد عوضت من ... ناقوسها التكبير والتهليلا
صدقت مقدمة الجيوش فصيرت ... من حينها موضوعها محْمولا
كسروا تماثيل الصليب ومثلوا ... بمن انتمى لولائه تمثيلا
لما أحطت بها وحان دمارها ... أخرجت مترفا الأعز ذليلا

تجـرى الدمـــوع ومـا تبل غـليله ... فـمـصـفـد يبكـى هناك قـتـيـلا
سلت يمين الملـك منك على العدا ... عضـبا مـهيب الشـفرتـين صقـيلا
لم يرض سيـفك أن يحلى جوهرًا ... حـتى يحلى عـــسـجـدًا مـخلولا
لم ترض همتك القـليل من التقى ... حـتى أتت بالـصـالحـات قـبـيـلا
فـأقـمت مـيـلاد الرســول بليلةٍ ... أوضـحت فيـهـا للجهـاد سـبيـلا
حيث القـباب البـيض جللت الربا ... أزهار روض مـا اكـتـــسـين ذبولا
مـواقـــد النيـران تذكى حـــولهـا ... فـينيـر مـشـعـلهـا رُبًا وسـهـولا
والأفق فـوقك قـبـة مـحـبـوكـة ... مـدت علـيك طرفـهـــا المسـدولا
ورمى إليـك ببـــدره ونجـــومـــه ... يهـــديك منـه التـــاج والإكليـــلا
حيث الكتـائب قد تلاطم موجـها ... وتدفـقت فـيهـا الخـيـول سيـولا
زخـــرت بأمـــواج الحـــديد وربما ... ضاق الفـضاء فـما وجـدن مسـيلا
يتـجـاوب التكبـيـر فى جنبـاتهـا ... فـتـعـيـد غـر الجـيـاد صـهـيـلا
حـملت من الأبطال كل مـشـمـرٍ ... لا يقـتـنى سـمـر القنـا ونصـولا
آســاد ملحمـة إذا اشـتجـر الوغى ... دخلوا من الأسل المـثـقف غـيـلا
إن شـمـروا يوم الحـروب ذيولهم ... سـحـبـوا من الزرد المفـاض ذيولا
أو قـصروا يوم الطعـان رماحـهم ... وصلوا بهـا الخطـو الوسـاع طويلا
يا ليـلة ظفـــرت يداى بـأجـــرها ... وسـهرت فـيهـا بالرضا مـشمـولا
والله لو عـوضت عنك شـبيـبـتى ... مـا كنت أرضى بـالشـبـاب بديلا

يا ناصر الإسلام يا ملك العلا ... الله يؤتيك الجزاء جزيلا

جهز جيوشك للجهاد موفقا ... وكفى بربك كافيا وكفيلا

وللتعبد الغارات فى أرض العدا ... والله حسبك ناصرا ووكيلا

وإليك من سمر الجهاد غريبة ... جاءتك تقرضك الثناء جميلا

وأطلت لكنى أطبت وعادتى ... ألفى مخيبا فى المديح مطيلا

لا زال نصرك كلما استنجدته ... لمهم دينك عائدا موصولا

ثم قال بعد ذكر جملة من قصائد:

ومن ذلك وقد عاد من وجهة للصيد أعملها، وأعنة للجياد فى ميادين ذلك الطراد أرسلها، ما أنشده[1]:

حياك يا دار الهوى من دار ... نوء السماك بديعة مدرار

وأعاذ وجه رباك طلقا مشرقا ... متضاحكا بمماسم النوار

أمذكرى دار الصبابة والهوى ... حيث الشباب يروق حسن نضار

عاطيتنى عنها الحديث كأنما ... عاطيتنى منها كئوس عقار

إيه وإن أذ كيت نار صبابتى ... وقدحت زند الشوق بالتذكار

يا زاجر الأظعان وهى مشوقة ... أشبهتها فى زفرة وأوار

حنت إلى نجد وليست دارها ... وصبت إلى هندية والقار

لكنها شامت به برق الحمى ... واعتادها طيف الكرى بمزار

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٤.

هل تبلغ الحاجات إن حملتها ... إن الوفاء سجية الأحرار

عرض بذكرى فى الخيام وقل إذا ... جئت العقيق مبلغ الأوطار

[عار][1] بقومك يا بنة الحيين أن ... تلوى الديون وأنت ذات يسار

أَمَنَعْتِ ميسور الكلام أخا الهوى ... وبخلت حتى بالخيال السارى؟

وأبان جارى الدمع عذر هيامه ... لكن أضعت حقوق ذاك الجار

هذا وقومك -ما علمت خلالهم - ... أوفى الكرام بذمة وجوار

الله فى نفس شعاع كلما ... هب النسيم تطير كل مطار

بالله يا لمياء ما منع الصبا ... إلاّ تهب بعرفك المعطار

يا بنت من تشدو الحداة بذكره ... متعللين به على الأكوار

ما ضر نسمة حاجر لو أنها ... أهدت لنا خبرًا من الأخبار

هل بَانُهُ من بعدنا متأود ... متجاوب مترنم الأطيار

وهل الظباء الآنسات كعهدها ... يَصْرَعْن أسد الغاب وهى ضوارى

يفتكن من قاماتها ولحاظها ... بالمشرفية والقنا الخطّار

أشعرت قلبى حبهن صبابة ... فرمينني من لوعتى بجمار

وعلى الكثيب سوانح حمر الحلى ... بيض الوجوه يصدن بالأفكار

أدنى الحجيج مزارهن ثلاثة ... بمنى لَوَ ان ديار قرار

لكن يوم النفر جدن لنا بما ... عودننا من جفوة ونفار

---

(١) التكملة من نفح الطيب ج٧ ص ١٥٥.

يا بن الالى قد أحرزوا فضل العلا ... وسمـوا بطيب أرومة ونجار

وتنوب عن صوب الغمام أكفهم ... وتنوب أوجههم عن الأقمار

من آل سعد رافعى علم الهدى ... المصطفين لنصرة المختار

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم ... ومشرف الإعصار والأمصار

وجه كما حسر الصباح نقابه ... ويد تند أنامـلا ببحار

جردت دون الدين عزمة أروع ... جددت منها سنة الأنصار

حطت البلاد ومن حوته ثغورها ... وكفى بسعدك حاميا لذمار

لله رحلتك التى نلنا بها ... أجر الجهاد ونزهة الأبصار

أوردتنا فيها لجودك موردا ... مستعذب الإيراد والإصدار

وأفضت فينا من نداك مواهبا ... حسنت مواقعها على التكرار

أضحكت ثغر الثغر لما جئته ... وخصصته بخصائص الإيثار

حتى الفلاة تقيم يوم وردتها ... سنن القرى بثلاثة الأثوار

وسرت عقاب الجو تهديك الذى ... تصطاد من وحش ومن أطيار

والأرض تعلم أنك الغوث الذى ... تضفى عليها وافى الأستار

ولرب ممتد الأباطح موحش ... عالى الربا متباعد الأقطار

همل المسارح لا يراع قنيصه ... إلاّ لنبأة فارس مغوار

سرحت عنان الريح فيه وربما ... ألقيت بساحته عصا التسيار

باركته والأفق قد خلع الدجى ... مسحا ليلبس خلعة الإسفار

وجرى به نهر النهار كمثل ما سكب النديم سلافة من قار

عرضت به المستنفرات كأنها خيل عراب جلن فى مضمار

أتبعتها غرر الجياد كواكبا تنقض رجما فى سماء غبار

والهاديات يومها عبل الشوى متدفق كتدفق التيار

أزجيتها شقراء رائقة الحلى فرميته منها بشعلة نار

أثبت فيه الرمح ثم تركته خضب الجوانح بالدم الموار

حامت عليه الذابلات كأنها طير أوت منه إلى أوكار

طفقت أرانبه غداة أثرتها تبغى الفرار ولات حين فرار

هل ينفع الباع الطويل وقد غدت يوم الطراد قصيرة الأعمار

من كل منحفز بلمحة بارق فاتت خطاه مدارك الأبصار

[وجوارح سبقت إليه طلابها فكأنما طالبنه بالثار

سود وبيض فى الطرد تتابعت كالليل طارده بياض نهار][1]

ترمى بها وهى الحنايا ضمرا مثل السهام نزعن عن أوتار

ظنت بأن ينجو لها كلا ولو[2] أغريته بأرانب الأقمار

وبكل فتخاء الجناح إذا ارتمت فكأنها نجم السماء السارى

زجل الجناح مصفق كمن الردى فى مخلب منه وفى منقار

أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى طيرا أتاك به على مقدار

---

(١) التكملة عن نفح الطيب ج٧ ص ١٥٧.

(٢) فى سائر الأصول: «ظنت بأن تنجو بها» والمثبت رواية نفح الطيب.

وأريتنا الكسب الذى أعـــــداده ... مـــلأت جـــمـالا أعـــين الـنظار

بيض وصفر خلت مطرح سـرحها ... روضـــا عـن شـــقـــيق بـهـــار

من كل مـــوشى الأديم مـــفـوف ... رقـــمـت بدائعـــه يـد الأقـــدار

خلط البـيـاض بـصـفـوة فى لونه ... فتـرى اللجين يشـوب ذوب نضار

أو أشـــعل راق العـــيـون كـــأنه ... غلس يـخـالط ســـدفـــة بنهـــار

سـرحت بمخـصـر الجـوانب يانع ... تنســـاب فـــيـــه أراقم الأنهـــار

قـد أرضـعتـه السـاريات لبـانهـا ... وحلـلن فـــيـــه أَزِرَّة الـنّوّار

أخذت سـعودك حذرها فـلحكمة ... أغـرت جـفون المـزن باستـعـبـار

لّما أرتك الشـمس صـفـرة حاسـد ... لجـــبـــيـنك المتـــألـق الأنوار

نفثت عـليك السحب نفث مـعوذ ... من عـــينهـــا المتـــوقع الأضـــرار

فـارفع لواء الفـخـر غيـر مـدافع ... واسـحب ذيول العـــسكر الجـرار

وأهنأ بمقـدمك السـعـيد مـخـولا ... مـا شـئت من عـــز ومن أنصـار

قـد جئت دارك مـحـسنا ومؤمـلا ... مـتـعت بالحـسنى وعـقـبى الدار

وإليكهـا من روض فكرى نفـحـة ... شف الـثناء بـهـــا علـى الأزهار

ثم قال: ومن ذلك ما أنشـده، رضى الله عنه، فى رحلة ركاب المجاهد إلى ألمرية بالقصر الصمادحى فى حدود عشر سنين وسبع مئة:

مـــا لـلحـــمـــول تحـن للأطلال ... ويشـوقـهـا ذكـر الزمـان الخـالى

يثنى أزمـــة هيـمـهـــا شـوق إلى ... ظـل الأراك وأزرق سلـســـــال

ذكرت بهـا الحى الجمـيع كعـهدها والربع منـهـا أخـضـر الـسـربال
والدار حـــاليـــة المعـاطـف والربا ومـــرادها بالروضـــة المخـضـــال
أيان مـا لعـبت بـهـا أيدى النوى وتراهنت فـى الحـال والتـــرحـال
وجـرت بسـدتهـا الحـداة كـأنهـا قطع السـفـائن خضن بـحر ليـال
دعنى أطارحـــهـــا الحنين فـــإننى لا أنثـنى لمـقـــــالة الـعـــــذال
وهى المنازل أشـــبـــهت سكانهـــا أعـمـــارها تفـضى إلـى الآجـال
بليت مـحـاسنهـا وخف أنيـسهـا والشـوق والتـذكـار لـيس ببـالى
ولقـد أقول ومـا يعنف ذو الهـوى ذهب الغـــرام بحـــيلة المحتـــال
أحـشى تذوب صـبـــابة ومـدامع تغـرى جـفـون المزن باسـتـهـلال
ووراء مطـلع الخـــدور جـــآذر تجلى شـموسـا فى غمـام حجـال
يا سـاكنى نجـد ومـا نجـد سـوى نادى الهـــوى ومـخـيـم الآمـال
مـا للـضـبـاء الآنسـات بـربعكم عطلا وهن من الجـــمـال خـوالى
أو لـلـريـاح تـهب وهـى بـلـيلـة فـتهـيج من وجـدى ومن بلبـالى
هى شـيـــمـة عـذرية عـــودتهـا قلبـا شـعـاعـا مـا يرى بالسـالى
يا بنت مـن غـمـر العـفـــاة نواله هلا سـمحت ولو بـطيف خيـالى
فلكم بعـثت مـع النسـيم تحـيـتى عودت سـارى البرق من أرسـالى
بالله يا ريـح النعـــامـى جـــررى فـــوق الخـــزامى عـــاطر الأذيال
وإذا مـررت على الكـثـيب برامـة صـافح محـيا الروضـة المخضـال

فيها المعاهد قد طلعن بأفقها ... زمنا ولم أجنح لوقت زوال

أمذكرى عهد الشبيبة جاده ... صوب العهاد بواكف هطال

عاطيتنى عنه الحديث كأنما ... عاطيتنى منه ابنة الجريال

هذا على أنى نزعت عن الصبا ... وصرمت من حب الحسان حبالى

حسبى وقارا فى الندى إذا احتبى ... وتجاولوا فى الفخر كل مجال

أنى ألوذ بدولة نصرية ... حليت محاسنها بكل كمال

حيث الوجوه صبيحة والمكرما ... ت صريحة والعز غير مزال

حيث المكارم سنها أعلامها ... من كل فياض الندى مفضال

بيض الأيادى والوجوه أعزة ... قد شيدوا العليا بسمر عوالى

هم آل نصر ناصروا دين الهدى ... والمصطفون لخيرة الأرسال

ما شئت من مجد قديم شاده ... أبناء قَيْلَةَ أشرفِ الأقيال

ما منهم إلاّ أغر محجل ... يلقى العظائم وهو غير مبالى

متبسم واليوم أكلح عابس ... والحرب تدعو بالكماة نزال

قد عودا النصر العزيز وخولوا الـ ... ـفتح المبين بملتقى الأبطال

بذلوا لدى الهيجاء كرائم أنفس ... قد أرخصت فى الله وهى غوالى

يأيها الملك الهمام المجتبى ... ومنيل دين الله خير منال

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم ... ومشرف الأمصار والأبطال

وطلعت فى أفق الخلافة نيرا ... تجلو ظلام الظلم والإضلال

فـــقت الملـوك جـلالـة وبســـالة وشـأوتهم فى الحـلم والإجـمـال

أعـدت محـاسنك المحـاسن كلهـا فـجـمـالهـا يـزرى بكل جـمـال

فالشـمس تأخذ من جـبينك نورها والروض ينفح عـن كـريم خـلال

والريح تحـمل عن ثنائك طيـبـهـا فى ملتـقـاها من صـبـا وشـمـال

والغـــيث إلاّ من نداك مـــبـــخل فـالغـيث يقلـع والندى مـتـوالى

تعـطى الذى لا فـــوقـــه لمـؤمل وتجـود بالإحـســان قـبل سـؤال

طاولت علـوى النجـــوم بهـمـــة لا فـــاقـــدا عـــزا ولا مكســـال

وبلغت من رتب السـعـادة مبلغـا أبعـدت فـيـه مـرتقـاك الـعـالى

وقـياس سـعـدك فى مـرامك كله يقـضى مـقـدمـه بصـدق التـالى

لمن الجـيـاد الصـــافنات كـأنـهـا فى الورد أسـراب الـقطا الأرسـال

من كل ملموم القـوى عبل الشوى مـرخى الـعنان مـحـفـــز جـوال

لمن القـبـاب الحـمـر ترشع للندى فـتفـيض للعـافين فـيض سجـال

لمن الخـيـام البـيض تحـسب أنهـا زهر الكـواكب أطلعـت بحـــلال

منداحـة الأرجـاء عـــاليـة الذرى فكأنهـــا فى الوهـد شم جـبـــال

هو مظهـر الملك العلى ومطلع النـ ـور الجلـى بمرقب مـتـــعـــالى

آثار مـــولانا الإمـــام مـــحـمّـــد بدر الهـدى لا زال حلف كـمـال

لله وجـــهـــتـك التى نلنـا بهـــا أجـر الجـــهـاد وبـغـيـــه الآمـال

ما شـئت من حسـن يفوق كمـاله ويروق منظـره الجـمـيل الحـــالى

كم من عجائب جمة أظهرتها ... ما كان يخطر وصفهن ببال
أمت وفود الناس منك مملكًا ... قد خص بالتعظيم والإجلال
جاءوا مواقيت اللقاء كأنهم ... وفد الحجيج برامةٍ وألال
لله عينًا من رأى ملك العلا ... حف الوقار جماله بجلال
فى موكب لبسوا الخلوص شعاره ... وتميزوا منه بزى جمال
بلغوا به العدد الكثير وكلهم ... أرضاهم إحسانك المتوالى
يهنى المرية نعمة سوغتها ... جادت بها الأيام بعد مطال
قدست واديها وزرت خلالها ... فلها الفخار بها على الآصال
وكسوتها برد الشباب مفوفًا ... وشفيت ما تشكو من الأوجال
مولاى لا أحصى ثناك إنّه ... أربى على التفصيل والإجمال
أعليت فى أفق العناية مظهرى ... وخصصته بعوارف الإفضال
ظفرت يداى بكل ما أملته ... فى النفس أو فى الجاه أو فى المال
لم تبق لى أملا وما بلغته ... بلغت ما ترجوا من الآمال

ثم قال بعد ذكر بعض العيديات: ومن ذلك[1]:

بشرى كما وضح الصباح وأجمل ... يعشى سناها كل من يتأمل
أبدى لها وجه النهار طلاقة ... وافتر من ثغر الأقاح مقبل
ومنابر الإسلام يا ملك الورى ... بحلاك أو بحليها تتكمل

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٠٦.

تجـول لنا الأكـوان منك مـحـاسنًا ... تروى علـى مـر الـزمـان وتـنقل
فالشـمس تأخذ من جـبينك نورها ... والبـشـر منك بوجـهـهـا يتـهلل
والروض ينفـح عن ثنائك طيـبـه ... والروق فـيـه بالمـمـادح تهـدل
والبرق سيف من سـيوفك منتضى ... والسـحب تمهى من يديك وتهـمل
يأيّهـا الملك الذى أوصـافـه ... در على جـيـد الـزمـان مـفـصل
الله أعطاك الـتى لا فـوقـهـا ... وحـباك بالفـضل الذى لا يجـهل
وجـه كمـا حسـر الصـباح نقـابه ... لضـيـائه تعـشـو البـدور الكمل
تلقـاه فى يوم السـمـاحـة والوغى ... والبـشـر فـى وجناته يتـهلل
كـف أبت ألاتـكـف عـن النـدى ... أبدًا فـإنْ ضن الحـيـا تسـتـرسل
وشـمـائل كالـروض باكره الحـيـا ... وسـرت برياه الصـبـا والشـمـأل
خلق ابن نصر فـى الجمال كـخلقه ... مـا بـعـده من غـايةٍ تسـتكمل
نـور عـلى نـورٍ بـأبـهـى منـظـرٍ ... فى حـسـنه لمؤمل مـا يـأمل
فـاق الملوك بـسـيـفـه وبسـيـبـه ... فـبـعـدله وبفـضله يتـمـثل
وإذا تطاول للفـخـار عـمـيـدهم ... فلـه علـيـه تطـاول وتطـاول
يـا آيـة الله الـتـى أنـوارهـا ... يهـدى بهـا قصـد الرشـاد الضلل
قل للذى التـبـست معـالم رشـده ... هيهـات قد وضح الطريـق الأمثل
قـد ناصح الإسلام خـيـر خليفـة ... وحمى عـرين الملك أغلب مـشبل
فلقد ظهـرت من الكمال بمسـتوى ... مـا بعـده لذوى الخـلافـة مـأمل
وعنايـة الله اشـتـمـلت رداءها ... وعلقت مـنهـا عـروة لا تنـفـصل

فالجودة إلاّ من يديك مقتر ... والغيث إلاّ من نداك مبخل

والعمر إلاّ تحت ظلك ضائع ... والعيش إلاّ فى جنابك ممحل

حيث الجهاد قد اعتلت راياته ... حيث المغانم للعفاة تنفل

حيث القباب الحمر ترفع للقرى ... قد قام فى أرجائهن المندل

يا حجة الله التى برهانها ... عز المحق به وذل المبطل

قل للذى ناوأك يرقب يومه ... فوراه ملك يقول ويفعل

والله جل جلاله إنْ أمهلت ... أحكامه مستدرجًا لا تهمل

يا ناصر الإسلام وهو فريسة ... أسد العدا من حولها تتسلل

يا فخر أندلس وعصمة أهلها ... لك فيهم النعمى التى لا تجهل

لا يهمل الله الذين رعيتهم ... فلأنت أكفى والعناية أكفل

لا يبعد النصر العزيز فإنه ... آوى إليك وأنت نعم الموئل

لولا نداك لها لمّا نفع الندى ... ولجف من ورد الصنائع منهل

لولاك كان الدين يغمط حقه ... ولكان دين النصر فيه يمطل

لكن جنيت الفتح من شجر القنا ... وجنى الفتوح لمن عداك معلل

فلطالما استفتحت كل ممنع ... من دونه باب المطامع مقفل

ومتى نزلت بمقلٍ متأشب ... فالعصم من شعفاته تستنزل

وإذا غزو فإنَّ سعدك ضامن ... ألا تخيب وأَنَّ قصدك يكمل

فمن السعود أمام جيشك موكب ... ومن خلال دون جندك جحفل

وكتيبة أردفتها بكتيبة ... والخيل تمرح فى الحديد وترفل

من كل مُنْحَفِزٍ كلمحة بارقٍ ... بالبدر يسرج والأهلة ينعل

أوفى بهاد كالظليم وخلفه ... كفل كما ماج الكثيب الأهيل

حتى إذا ملك الكمى عنانه ... يهوى كما يهوى بجو أجدل

حملت أسود كريهة يوم الوغى ... ما غابها إلاّ الوشيج الذبل

لبسوا الدروع غدائرا مصقولة ... والسمر قضب فوقها تتهدل

من كل معتدل القوام مثقفٍ ... لكنه دون الضريبة يعسل

أذكيت فيه شعلة من نصله ... يهدى بها إنَّ ضل عنه المقتل

ولرب لماع الصقال مشهر ... ماضٍ ولكن فعله مستقبل

رقت مضاربه وراق فرنده ... فالحسن فيه مجمل ومفضل

فإذا الحروب تسعرت أجزالها ... ينساب فى يمناك منه جدول

وإذا دجا ليل القتام رأيته ... وكأنه فيه ذبال مشعل

فاعجب لها من جذوةٍ لا تنطفى ... فى أبحر زخرت وهن الأنمل

هى سنة أحييتها وفريضة ... أدنيتها قرباتها تتقبل

فإذا الملوك تفاخرت بجهادها ... فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل

يابن الذين جمالهم ونوالهم ... شمس الضحى والعارض المتهلل

يابن الإمام ابن الإمام ابن الإما ... م ابن الإمام وقدرها لا يجهل

آباؤك الأنصار تلك شعارهم ... فلحيهم آوى النبى المرسل

فهم الألى نصروا الهدى بعزائمٍ مصقولةٍ وبصائر لا تخذل
ماذا يحبر شاعر فى مدحهم وبفضلهم أثنى الكتاب المنزل
مولاى لا أحصى مآثرك التى بحديثها تمضى المطى الذلل
وإذا الحقائق ليس يدركها سيان فيها مكثر ومقلل
فإليك من شوال غرة وجهه أهداكها يوم أغر محجل
عذراء راق العيد رونق حسنها فغدا بنظم حليها يتجمل
رضعت لبان العلم فى حجر النهى فوفت لها منه ضروع حفل
سلك البيان لها سبيل إجادة لولا صفاتك كان عنها يعدل
جاءت تهنى العيد أيمن قادم وافى بشهر صيامه يتوسل
وطوى الشهور مراحلاً معدودة كيما يرى بفناء جودك ينزل
وأتى وقد شف النحول هلاله ولشوقه للقاء وجهك ينحل
عقدت بمرقبه العيون مسرة فمكبر لطلوعه ومهلل
فاسلم لألفٍ مثله فى غبطةٍ ظل المنى من فوقها يتهدل
فإذا بقيت لنا فكل سعادةٍ فى الدين والدنيا بها تتكفل

ثم قال بعد إيراد جملة قصائد:

ومن جياد أناشيده المتميزة بالسبقية، وبارقات تهانيه فى المواسم العقيقية، قوله يهنئه، رضوان الله تعالى عليه، بطلوع مولانا الوالد قدسه الله تعالى[1]:

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٠.

طلع الهـــلال وأفـقـــه مـتـــهلل فـــمكـبـــر لطلوعـــه ومـــهلل
أوفى على وجـه الـصـبـاح بغـرةٍ فـغـدا الصـبـاح بنورها يتـجـمل
شـمس الخـلافة قـد أمـدت نوره وبسـعـدها يرجـو التـمـام ويكمل
لله منـه هلال ســـعـــد طـالع لضـيـائه تعـشـــو البـدور الكمل
وألحت يا شـمس الهداية كـواكبًـا يعـــشى سـناه كل مـن يتـــأمل
والتـاج تاج البـــدر فى أفق العـلا مـــا زال بالـزهر النجـــوم يـكلل
ولئن حـــوى كل الجـمـال فـــإنه بالشـهب أبهى مـا يكون وأجـمل
أطلعـت يا بدر السـمـــاح هلاله والملـك أفق والخـــلافـــة مـنزل
يبـــدو بهـــالات الســـروج وإنّه من نور وجهك فى العـلا يستكمل
قلدت عطـف الملك منه صـــارمًـا بغـنائه ومـــضـــائه يـتـمـــثل
حليلتـه بحلى الكمال وجـوهر الـ ـخلق النفـيـس وكل خلق يجـمل
يغـزو أمـامك والسـعـود أمـامـه ومـــلائك السـبع الـعـلا تـتنزل
من مـــبلغ الأنصـــار منه بشـــارة غـر البـشـائر بعـــدها تسـتـرسل
أحـيا جـهـادهم وجـدد فخـرهم بعـــد المئـــين فـــملكـهم يتـــأثل
فـبـه إلى الأجـر الجـزيل توصلوا وبهم إلى رب الـسـمـــا يتـــوسل
من مـــبلغ الأذواء من يـمنٍ وهم قـــد توجـــوا وتملكوا وتقـــيلوا
أنَّ الخـلافـــة فى بنيـهـم أطلعت قـمـرًا به سـعـد الخلـيـفـة يكمل
من مـبلغ قـحطان آسـاد الشـرى مـــا غـابهـــا إلاّ الوشـــيج الذبل

أنَّ الخليفة وهو شبل ليوثهم ... قد حاط منه الدين ليث مشبل

يهنى بنى الأنصار أنَّ مليكهم ... قد بلغته سعود ما يأمل

يعنى البنود فإنها ستظله ... وجناح جبريل الأمين يضلل

يهنى الجياد الصافنات فإنها ... بفتوحه تحت الفوارس تهدل

يهنى المذاكى والعوالى والظُّبَى ... فبها إلى نيل المنى يتواصل

يهنى المعالى والمفاخر أنّه ... فى مرتقى أوج العلا يتوقل

سبقت مقدمة الفتوح قدومه ... وأتاك وهو الوادع المتمهل

وبدت نجوم السعد قبل طلوعه ... تجلو المطالع قبله لا تأفل

وروت أحاديث الفتوح غرائبا ... والنصر يملى والبشائر تنقل

ألقت إليك به السعود زمامها ... فالسعد يمضى ما تقول ويفعل

فالفتح بين معجل ومؤجل ... ينسيك ماضيه الذى يستقبل

أوليس فى شأن المسير دلالة ... أن المقاصد من طلابك تكمل

ناداهم داعى الضلال فأقبلوا ... ودعاهم داعى المنون فجدلوا

عصوا الرسول إباية وتحكمت ... فيهم سيوفك بعدها فاستمثلوا

كانوا جبالا قد علت هضابها ... نسفتهم ريح الجلاد فزلزلوا

كانوا بحارا من حديد زاخر ... أذكتهم نار الوغى فتسيلوا

ركبت أرجلها الأداهم كلما ... يتحركون إلى قيام تصهل

كان الحديد لباسهم وشعارهم ... واليوم لم تلبسه إلاّ الأرجل

الله أعطاك التى لا فوقها ... فتحا به دين الهدى يتأثل

جددت للأنصار حلى جهادهم ... فالدين والدنيا به تتجمل

من يتحف البيت العتيق وزمزمها ... والوفد وفد الله فيه ينزل

متسابقين إلى مثابة رحمة ... من كل ما حدب إليه تنسل

سما كأفواج القطا قد ساقها ... ظمأ شديد والمطاف المنهل

من كل مرفوع الأكف ضراعة ... والقلب يخفق والمدامع تهمل

حتى إذا روت الحديث مسلسلا ... بيض الصوارم والرماح العسل

عن فتحك الأسنى عن الجيش الذى ... بثيابه أهل الوغى تتمثل

أهدتهم السراء نصرة دينهم ... واستبشروا بحديثها وتهللوا

وتناقلوا عنك الحديث مسرة ... بسماعه واهتز ذاك المحفل

ودعو بنصرك وهو أعظم مفخرا ... إنَّ الحجيج بنصر ملكك يحفل

فاهنأ بملكك واعتمد شكرا به ... لطف الإله وصنعه تتخول

شرفت منه باسم والدك الرضا ... يحيا به منه الكريم المفضل

أبديت من حسن الصنيع عجائبا ... تروى على مر الزمان وتنقل

خفقت به أعلامك الحمر التى ... يخفوقها النصر العزيز موكل

هدرت طبول العز تحت ظلالها ... عنوان فتح إثرها يستعجل

ودعوت أشراف البلاد وكلهم ... يثنى الجميل وصنع جودك أجمل

وردوا ورود الهيم أجهدها الظما ... فصفا لهم من ورد كفك منهل

وأثرت فيه للطراد فوارسا ... مثل الشموس وجوههم تتهلل
من كل وضاح الجبين كأنه ... نجم وجنح النقع ليل مسبل
يرد الطراد على أغر محجل ... فى سرجه بطل أغر محجل
قد عودوا قبض الكماة كأنما ... عقبانها ينقض منها أجدل
يستتبعون هوادجا موشية ... من كل بدع فوق ما يتخيل
قد صورت منها غرائب جمة ... تنسى عقول الناظرين وتذهل
وتضمنت جزل الوقود حمولها ... والنصر فى التحقيق ما هى تحمل
والعاديات إذا تلت فرسانها ... آى القتال صفوفها تترتل
لِلّه خيلك إنها لسوابح ... بحر القتام وموجه متهيل
من كل برق بالثريا ملجم ... بالبدر يسرح والأهلة ينعل
أو فى بهاد كالظلم وخلفه ... كفل كما ماج الكثيب الأهيل
هن البوارق غير أنَّ جيادها ... عن سبق خيلك يا مؤيد تنكل
من أشهب كالصبح يعلو سرجه ... صبح به نجم الضلالة يأفل
أو أدهم كالليل قلد شهبه ... خاض الصباح فأثبتته الأرجل
أو أشقر سال انضار بعطفه ... وكساه صبغة بهجة لا تنصل
أو احمر كالجمر أضرم بأسه ... بالركض فى يوم الحفيظة يشعل
كالخمر أرتع كأسها لندامها ... وبها حبابة غرة تتسيل
أو أصفر لبس العشى ملاءة ... وبذيله لليل ذيل مسبل

أجملت فى هذا الصنيع عوائدت ... الجود فيها مجمل ومفصل
أنشأت فيها من نداك غمائما ... بالفصل تنشأ والسماحة تهمل
فجرت من كفيك عشرة أبحر ... تزجى سحاب الجود وهى الأنمل
من قاس كفك بالغمام فإنه ... جهل القياس ومثلها لا يجهل
تسخو الغمام ووجهها متجهم ... والوجه منه مع الندى يتهلل
والسحب تسمح بالمياه وجوده ... ذهب به أهل الغنى تتمول
من قاس بالشمس المنيرة وجهه ... ألفيته فى حكمه لا يعدل
من أين للشمس المنيرة منطق ... بيانه در الكلام يفصل
من أين للشمس المنيرة راحة ... تسخو إذا بخل الزمان الممحل
من قاس بالبدر المنير كماله ... فالبدر ينقص والخليفة يكمل
من أين للبدر المنير شمائل ... تسرى برياها الصبا والشمأل
من أين للبدر المنير مناقب ... بجهادها تنقص المطى الذلل
يا من إذا نفحت نواسم حمده ... فالمسك يعبق طيبه والمندل
يا من إذا لمحت محاسن وجهه ... تعشو العيون ويبهر المتأمل
يا من إذا تليت مفاخر قومه ... آى الكتاب بذكرها تتنزل
كفل الخلافة منك يا ملك العلا ... والله جل جلاله بك أكفل
مأمونها وأمينها ورشيدها ... منصورها مهديها المتوكل
حسب الخلافة أن تكون وليها ... ومجيرها من كل من يتخيل

حسب الزمان بأن تكون إمامه فله بذلك عزة لا تهمل
حسب الملوك بأن يكون عميدها ترجو الندى من راحتيك وتأمل
حسب المعالى أن تكون عميدها فعليك أطناب المفاخر تسدل
يا حجة الله التى برهانها عز المحق به وذل المبطل
أنت الإمام ابن الإمام ابن الإما م ابن الإمام وفخرها لا يعدل
علمت حتى لم تدع من جاهل أعطيت حتى لم تدع من يسأل
وعناية الله اشتملت رداءها وعلقت منها عروة لا تفصل

اتصل بهذا البيت جملة أبيات من القصيدة المترجمة فى العيديات التى أولها:

بشرى كما وضح الصباح وأجمل

وحذفناها من هذه اقتصارا للتكرار، وزاد فى هذه[1]:

أخذت قلوب الكافرين مهابة فعقولهم من خوفها لا تعقل
حسبوا البروق صوارما مسلولة أرواحهم من بأسها تتسلل
وترى النجوم مناصلا مرهوبة فيفر منها الخائف المتنصل
يابن الألى إجمالها وجمالهم شمس الضحى والعارض المتهلل
مولاى لا أحصى مآثرك التى بجهادها يتوسل المتوسل
أصبحت فى ظل امتداحك ساجعا ظل المنى من فوقه يتهدل

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٥.

طوقته طوق الحمائم أنعمًا فغدًا بشكرك فى المحافل يهدل
فإليك من صون العقول عقلية أهداكها صنع أغر محجل
عذراء راق الصنع رونق حسنها فغدا بنظم حليها يتكلل
خيرتها بين المنى فوجدتها أقصى مناها أنها تتقبل
لا زلت شمسًا فى سماء خلافةٍ وَهِلاَ لُك الأسمى يتم ويكمل

ثم قال بعد ذكر جملة من نظمه: ومن رقيق منازعه فى بعض نزه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطانى من شنيل قوله[1]:

نفسى الفداء لشادن مهما خطر فالقلب من سهم الجفون على خطر
فضح الغزالة والأقاحة والقنا مهما تثنى أو تبسم أو نظر
عجبًا لليل ذوائب من شعره والوجه منه عن صباح قد سفر
عجبًا لعقد الثغر منه منظمًا والعقد من دمعى عليه قد انتثر
ما رمت أن أجنى الأقاح بثغره إلاّ قد سل السيوف من الحور
لم أنسه ليل ارتقاب هلاله والقلب من شك الظهور على غرر
بتنا نراقبه بأول ليلةٍ فإذا به قد لاح فى نصف الشهر
طالعته فى روضةٍ كخلاله والطيب من هذى وتلك قد اشتهر
وكلاهما يبدى محاسنه جملة ملء المشامم والمسامع والبصر
والكأس تطلع شمسها فى خده فتكاد تعشى بالأشعة من نظر

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٦.

نورية جـــبـــينه وكـــلاهـمـــا يجلو ظـلام الليل بالوجـــه الأغـر

هى شـيمـة للشـيخ فيـهـا نسبـة مـا إن يزالا يرعـشـــان من الكبـر

أفرغت فى جسم الزجـاجة روحها فـرأيت روح الأنس منهـا قد بهـر

لا تسق غير الروض فـضلة كأسها فالغـصن فى ذيل الأزاهر قد عـثر

ما هب خـفاق النسيم مع السـحر إلاّ وقد شـاق النفـوس وقد سـحر

ناجى القلوب الخـافـقات كـمـثله ووشى بما تخفى الـكمام من الزهر

وروى عن الضحـاك عَنْ زهر الربا مـــا أسنـد الزهرى عنه عـن مطر

وتحـملت عنه صـحـيح حـديثـه رسل النسـيم وصدق الخُـبْرُ الخَـبَر

يا قـــصـــر شِـنِّيلٍ وربعـك آهل والروض منك على الجمال قد اقتصر

لله بحـرك والصـبـا قـد سـردت منه دروعـا تحت أعـــلام الشـجـر

والآس حف عـــذاره من حـــوله عن كل من يهوى العذار قـد اعتذر

قـبل بثـغـر الزهـر كف خليـفـةٍ يغنيك صـوب الجـود منه عن المطر

وافـرش خـدود الورد تحت نعـاله واجعل بها لون المضاعف عن خفر

وانظم غناء الطـير فـيـه مـدائحًـا وانثـــر من الزهر الـدراهم والدرر

المنتـقى من الجوهر الشـرف الذى فى مـدحـه قـد أنزلت آى السـور

والمجـتـبى من عنصـر النور الذى فى مطلع الهـدى المقدس قـد ظهر

ذو سطوةٍ مـهمـا كفى ذو رحـمةٍ مـهمـا عفـا ذو عفـةٍ مهـما قـدر

كم ســائلٍ للدهر أقـــسم قـــائلاً والله مـــا أيامـــه إلاّ غـــرر

مولاى سعدك كالمهند فى الوغى ... لم يبق من رسم الضلال ولم يذر
مولاى وجهك والصبح تشابها ... وكلاهما فى الخافقين قد اشتهر
إنَّ الملوك كواكب أخفيتها ... وطلعت وجهك فى مظاهرها قمر
فى كل يوم من زمانك موسم ... فى طيه للخلق أعياد كبر
فاستقبل الأيام يندى روضها ... ويرف والنصر العزيز له ثمر
قد ذهبت منها العشايا ضعف ما ... قد فضضت منها المحاسن فى السحر
يا بن الذين إذا تعد خلالهم ... نفد الحساب وأعجزت عنها القدر
إن أوردوا هيم السيوف غدائرًا ... مصقولة فلطالما حمدوا الصدر
سائل ببدر عنهم بدر الهدى ... فبهم على حزب الضلال قد انتصر
واسأل مواقفهم بكل مشاهد ... واقر المغازى فى الصحيح وفى السير
تجد الثناء ببأسهم وجودهم ... فى مصحف الحى المنزل مستطر
فبمثل هديك فلتنر شمس الضحى ... وبمثل قومك فليفتخر من فخر
ماذا أقول وكل وصفٍ معجز ... والقول فيك مع الإطالة مختصر
تلك المناقب كالثواقب فى العلا ... من رامها بالحصر أدركه الحصر
إن غاب عبدك عن حماك فإنه ... بالقلب فى تلك المشاهد قد حضر
فاذكره إنَّ الذكر منك سعادة ... وبها على كل الأنام قد افتخر
ورضاك عنه غاية ما بعدها ... إلاّ رضا الله الذى ابتدع البشر
فاشكر صنيع الله فيك فإنه ... سبحانه ضمن المزيد لمن شكر

وعليك من روح الإله تحية تهفو إليك مع الأصائل والبكر

ثم قال: ومن أغراضه الوقتية استرسالا مع الطبع البديهى، فى الشكر على ضروب من التحف التى يقتضيها التحفى السلطانى بأولياء خدمته، نبذ متعددة فيما يظهر؛ فمنها قوله[1]:

يا خير من ملك الملوك بجوده وبفضله قد أشبه الأملاكا

والله ما عرف الزمان وأهله أمنًا ويمنًا دائمًا لولاكا

وافيت أهلى بالرياض عشية فى روض جاهك تحت ظل رضاكا

فوجدته قد طله صوب الندى بسحائب تنهل من يمناكا

وسفائن مشحونةٍ ألقى بها بحر السماح يجيش من نعماكا

رطب من الطلع النضيد كأنها قد نظمت من حسنها أسلاكا

من كل ما كان النبى يحبها وأحبها الأنصار من أولاكا

وبدائع التحف التى قد أطلعت مثل البدور أنارت الأحلاكا

نطف من النور المبين تجسمت حتى حسبنا أنهن هداكا

يحلو على الأفواه طيب مذاقها لولا التجسد خلتهن سناكا

طافت بها النشأ الصغار كأنها سرب القطا لما وردن نداكا

نجواهم مهما سمعت كلامهم وندائهم: مولاى أو مولاكا

أبلغت فى الأبناء عبدك سؤله لازلت تبلغ فى بنيك مناكا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٨.

يتـدارسون من الدعـاء صـحائفًـا كـيـمـا يطيل الله فى بقـيـاكـا
فبـقيت شـمسًا فى سـماء خـلافةٍ وهم البـدور أمـدهـن سناكـا

ثم قال: ومنها وقد أهداه - رحمه الله - أطباقا من حب الملوك[1]:

كـتب الإله على العـبـاد مـحـبـة لك كـان فرض كـتـابهـا موقـوتا
وأنا الذى شـرفـتـه من بيـنهم حـتى جـعلت له المحبـة قـوتا
مـا زلت تتـحـفـه بكل ذخـيـرةٍ حـتى لقـد أتحـفـتـه اليـاقـوتا
والى الملوك قـد اعـتـزى من عـزه فـغـدا له ياقـوتـهـا ممقـوتا

ومنها فى مثل ذلك:

يا خـيـر مـن ملك المـلوك أهـديـتـنـى حَـبَّ المـلـوك
فـكأنمـا يـاقـوتهـا نـظـمـت لـنا نـظـم الـسـلـوك
إنَّ المـلـوك إذا لجـوا فـغـيـاثـهم أَنْ أَمَّـلوك
وكـذا الـعـفـاة إذا شـكوا فـغـناهـم أن يسـألـوك
فـالله يقـبـل من دعـا لـعـلاك مـن أهل الـسـلـوك
لا زلـت تـطـلـع غـرةً كـالـشـمس فى وقـت الدلوك

ومنها وقد أهداه صيدًا مما صاده بنوه رضى الله عنه[2]:

يا خير من ورث السماح عن الألى نصـروا الهـدى وتبـوءوا الإيمـانا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢١٩.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٠٠.

فى كل يـومٍ منك تحـفـة مـنعمٍ وَالَى الجـمـيل والجزل الإحـسـانا
قـد أذكـرت دار النعـيم عـبـيـده وتضـمنت من فـضله رضـوانا
تهـدى مـواليك الذين تفـرعـوا عن دوح فخرك فى العـلا أغصانا
لجـلالك الأعلى قنيـصًـا أتعـبـوا فى صـيـده الأرواح والأبـدانا
فـتـخـصنى منه بأوافـر قـسـمـةٍ فسـحت لعبـدك فى الرضا مـيدانا
لله من مـولى كـريمٍ بـالذى تهـدى الموالى يتـحف العـبـدانا
تدعـو بنى إلـى الغـنى بـربه يـا ربـنـا أغـن الـذى أغـنـانـا
وعليـك من قـدس الإلـه تحـيـة تهـديـك منه الروح والريـحـانا

ومنها وقد أهداه رحمه الله أصنافا من الفواكه[1]:

يا من له الوجـه الجـمـيل إذا بدا فـاقت مـحـاسنه البـدور كـمـالا
والمنتـقى من جـوهر الفخـر الذى فـاق الخـلائـف عـزة وجـلالا
مـا أبصـرت عـيناى مـثل هديةٍ أبدت لـنا صـنع الإله تـعـالى
فـيـها من التـفـاح كل عـجيـبـةٍ تذكى بريحـهـا صـبـا وشـمـالا
تهـدى لنا نـهـد الحـبـيب وخـده وترى من الـورد الجنى مـثـالا
وبهـا من الأترُجِّ شـمس أطلعت من كـل شطـر للعـيـن هلالا
ويحـفـهـا ورق يـروق كـأنه ورق النضـار وقـد أجـاد نـبـالا
لون العـشيـة ذهبت صـفـحاتهـا رقت وراقت بهـجـة وجـمـالا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٠.

وبهـا مـن النقل الشـهى مـذكـر عـهـدًا تولى ليـتـه يتـولى
لله منهـا خـضـرة من حـضـرةٍ تغنى الـعـفـاة وتحـسب الآمـالا
أذكـرتنى العهـد القديم ومـعهـدًا كـانت شـموس الراح فـيـه تلالا
فـأردت تجـديد العـهـود وإنّمـا كـتب المشـيب على عـذارى لالا
فـأدركت من ذكراك كـأس مدامـةٍ وشـربت من حـبـى لهـا جـريالا
فبـقيت شـمسا فى سـماء خـلافةٍ لا يسـتطيع لهـا الزمـان زوالا

ثم قال: ومنها يوم عاشوراء[1]:

يأيـهـا المولـى الذى بركـاته رفـعت لواء للـندى منشـورا
لك راحـة تزجى الغـمـام بأنملٍ فـجـرت منهـا بالنوال بحـورا
واليـوم مـوسم قـربةٍ وعـبـادةٍ وغـدًا ظفـرت بـأجـره عـاشـورا
راعـيـت فـيـه سنة نبـوية يروى الثـقات حـديثها المشهـورا
لا زلت عـامك كلـه فى غـبطةٍ لقـيت منهـا نصـرة وسـرورا

ومنها فى بعض قطعه[2]:

واليت مـا أوليت يا بحـر الندى ووحق وجـهك مـا رأيت كـهـذه
فـإذ يهـز لهـا اللسـان حـسـامـه فصـفات فخـرك قد قـضت بنفاذه
علمت فـرسـان الـكلام نظامـهـا كـتـعـلم التلمـيـذ مـن أسـتـاذه
والبـحـر تمتـار السـحـائب مـاءه فـتـجـوده من غـيـثـهـا برذاذه

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢١.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢١.

ومنها وقد أهداه باكورا[1]:

يا وارث الأنصـــار وهى مـــزية ... بفـــخـارها أثـنى الكتـــاب المنزل

أهديتنـى البـاكـــور وهى بشـــارة ... ببـواكـير الـفتح الذى تـستـقـبل

وولادة لـهـــــــلال تم طـالـع ... وجـه الـزمـان بوجـــهـه يتـــهلل

هو أول الأنـوار فى أفق الهـــدى ... وترى الأهلة بـعـده تســـتـــرسل

مـولاى صـــدق الفـأل جـــربتـه ... من لفظ عـبدك والعواقـب أجمل

ثم قال: ومنها فى جفنة ثريد[2]:

طعـامك من دار النـعـيم بعـشـتـه ... فشرفتنى من حيث أدرى ولا أدرى

بهضـبة نعمى قـد سمونا لأوجـها ... فصـدنا بأعلاها الشـهى من الطير

وقـــوراء قـد درنـا بهـالـة بدرها ... كما دارت الزهر النجوم على البدر

وقـد حملت فـوق الرءوس لأنهـا ... هدية مولى حل فـى مفرق الفـخر

فـمـا شـئت من طعم زكى مُـهَنَّإٍ ... وما شئت من عرف ذكى ومن نشر

فلو أنهـــا قـد قـــدمت لخليـــفـة ... لأعظمـهـا قـدرا وبالغ فى الشكر

وكم لك نعـمى عـلى عـمـيـمـة ... يقل لأدناها الجـــمـيل من الذكـر

فـلا زلت يا مـولى الملوك مـبلغـا ... أمـانى ترجوها إلى سـالف الدهر

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢١.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٢.

ومنها شكرا عن كتاب[1]:

مولاى يوم الجمعة سعوده مجتمعهْ
فانعم صباحا واغتنم أوقاته المجتمعهْ
وابشر بصنع عاجل أعلامه مرتفعهْ
وانتظر الفتح الذى يأتيك بالنصر معهْ
وبيضه وسمره إلى العداة مشرعهْ
واللطف مرجو فرد بفضل ربى مشرعهْ
فاتحتنى شرفتنى برقعة مُرَفَّعَهْ
بل روضة ممطورة أزهارها منوعهْ
حديقة قد جدتها بصوب جود مترعهْ
وراية منشورة وآية مستبدعهْ
كم حكمة لطيفة فى طيها مستودعهْ
عقيلة صورتها من الجمال مبدعهْ
سقيتنى بفضلها من فضل كأس مترعهْ
فدم وأملاك الورى على علاك مجمعهْ

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٢.

ومنها شكرا على خلعة[1]:

يا بدر تم فى السماء خلافة ... حفت نجوم السعد هالة قصره
ألبست عبدك من ثيابك ملبسا ... قد قصرت عنه مدارك شكره
ورضاك عنه خير ما ألبسته ... فلقد أشاد بجاهه وببره
ألبستنى أركبتنى شرفتنى ... أهديتنى ما لا أقوم بحصره
نظرى لوجهك وهو أجمل نير ... يزرى على شمس الزمان وبدره
أعلى وأعظم منه لا سيما ... وأنا المنعم فى الحضور ببشره
لا زلت مولى للملوك مؤملا ... وعلاك للإسلام مفخر دهره

ثم قال: ومنها وقد خلع - رضوان الله عليه - على رسول من أرساله[2]:

أبحر سماح مَدّ عشرة أبحر ... تفيض غمام الجود وهى الأنامل
بكفك غيث للبلاد وأهلها ... يروض محل الأرض والعام ماحل
لك الخير إن أصبحت بحر سماحة ... يعم نداه فالمواهب ساحل
خلعت على هذا الرسول ملابسا ... بها تتسنى فى علاك المآمل
وبلغته آماله كيف شاءها ... فبلغت يا مولاى ما أنت آمل

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٣.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٣.

ثم قال بعد إيراد عدة مقطوعات وقصائد من نمط ما سبق:

وأنشده وقد مرض بعض أبنائه - رحمة الله عليه وعليهم - سائلا عن حاله[1]:

أسائل بدر التم كيف هلاله وأدعو له الرحمن جل جلاله
وأسأله تعجيل راحته التى وسيلتنا فيها النبى وآله
ستبلغ فيه ما تؤمل من منى ويرضيك يا بدر الكمال كماله

وفى مثله يقول رحمه الله[2]:

أقول لبدر التم كيف هلالكا نعمت صباحا بالسرور وآلكا
وبلغت فى النجل السعيد سعادة تقر بها عينا وينعم بالكا
وخصصت بالبشرى من الله ربنا كما عم أقطار الجهات نوالكا

وفى التورية باسم قائد مولاه مولانا رضى الله عنه على جماعة من الجند[3]:

يأيها المولى الذى أيامه تهمى بسحب الجود من آلائه
أبشر لجيشك بالسعادة كلما يغزو فنصر الله تحت لوائه

وأنشده رضى الله عنه فى ملبس اتخذه[4]:

أمولاى يا بن السابقين إلى العلا ومن نصروا الدين الحنيفى أولا

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٤.

غـنيـت بـنور الله مـن كـل زينـة وألبست من رضوانك أشرف الحلى
وقـارك زاد المـلك عـزا وهيـبـة وسـوغـه من رحـمـة الله منهـلا
ويا شمس هدى فى سمـاء خلافة وأبنـاؤه الزهر المنيـر تُـجْـتَـلَى
تبـارك من أبداك فـى كل ظهـر جمـيلا جـليلا مـستـعاذا مـؤملا
فيخجل منك الشمس شمس هداية ويحـسد منك الـبدر بدرا مكمـلا
إذا أنت ألبـست الـزمـان وأهله مـلابس عـز ليس يدركـهـا البلى
وطوقت أجـيـاد الملـوك أياديا وتوجـتـهم بالفـخـر تاجـا مكللا
فمـا شئت فالبس فالمشـاهد قائل: تبـارك مـا أسنى وأبهى وأجـمـلا
ألا كل من صلى وضحى ومن دعا ومـد يديه ضـارعـا وتوسـلا
وجودك شـرط فى حصول قـبوله وجـودك أثرى كـفـه مـتنفـلا

وقـال برسم مـا يرسم على ثـوب فى بعض هدايا مـولانا رحـمـه الله للسلطان أبى العباس[1]:

أهدى أبـا العـبـاس ملـك النـدى والبـاس
ثوب الـسـمـاء لأنه بـدر بـدا لـلـنـاس
فلق الصـبـاح بوجـهـه عـوذتـه بالـنـاس
يكسـو إمـامـا لم يزل بحلـى المحـامـد كـاس
فـيـاله مـن مـرتاد ثوب الـتـقى لـبـاس

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٥.

أذياله من حمده مسكية الأنفاس

وبطرزه مدح زرى بالمدح فى القرطاس

إن كنت فى لون السما ء بنسبة وقياس

فلأنت يا بدر العلا شرفتنى بلباس

أنا منشد «ما فى وقو فك ساعة من باس»

لترى رياضا أطلعت زهرا على أجناس

أوراقها توريقها بقضيبها المياس

ومن المديح مدامتى ومن المحابر كاسى

فالله يُمتع لابسى بالبشر والإيناس

وفى مثل ذلك قوله رحمه الله[1]:

إنَّ الإمام محمدا أهدى الخليفة أحمدا

[للبسه ثوبا وقد لبس المحامد وارتدى][2]

وعمامة التقوى التى من فوقها شمس الهدى

يا حسنها إذ أرسلت من كفه غيث الندى

وكأن وشى رقومها بالبرق طرز عسجدا

وبطرزه لون السما ء ووجهه قمر بدا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.

(٢) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.

لله منه نيـــــــــــر حل المنازل أَسْـــــعُـــدَا

مـــســـــتنصـــر أعـلى له فـوق الكواكب مـصـعـدا

ثم قال بعد ذكر قصيدة فى المدح:

وأنشده وهو على جواد أدهم[1]:

تجلى لنا المـولى الإمـام مـحـمّـد على أهدم قـد راق حـسن أديمـه

فأبصرت صبـحا فوق ليل وقد حكى مـقلد ذاك الطـرف بعض نجـومـه

وكتب له مع هدية زهرية[2]:

أمـولاى تقـبـيلى ليـمناك شـاقنى ولا ينكر الظمآن شوقـا إلى البحر

ولّما رأيت الـدهر مـــاطنـى بهـــا وشوقنى من حيث أدرى ولا أدرى

بعـــثت لك الزهر الجـنى لعلهـــا يقـــبلهـــا عنى ثغـــور من الزهر

وكتب إليه أيضا متشوقا[3]:

كـتبت ودمـعى بلل الركـاب قطره وأجـرى به بين الخـيـام السواقـيـا

حنـينا لمولـى أتلف المال جـــوده ولكنه قـــد خلد الفـخـر بـاقـيـا

ومـا عـشت بعـد البـين إلاّ لأننى أرجى بفـضل الله مـنه التـلاقـيـا

وأنشده أيضًا وهو بحال تألم[4]:

كـأنى بلطـف الله قـد عم خلقـه وعـافى إمام المسلمـين وقد شـفى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٦.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.

وقاضى القضاء سجل حكمه وخط على رسم الشفاء له: اكتفى

وفى مثل ذلك[1]:

لك الخير يا مولاى أبشر بعصمة عقدت مع الأيام فى حفظها صلحا
وعافية فى صحة مستجدة تجدد للدين السعادة والنجحا
فوجه التهانى مشرق متهلل وجو الأمانى بعد ما غام قد أصحى
وقد ظهرت للبرء منك علامة علامتك العظمى تقول لنا: صحا

وفى مثل ذلك[2]:

يا إمامًا قد تَخِذْنَا ه من الدهر ملاذا
خط يمناك ينادى صح هذا صح هذا

وقال مهنئا بالشفاء[3]:

الحمد لله بلغنا المنى لّما رأيناك وزال العنا
وفزت بالأجر وكبت العدا وفزت بالعز وطيب الثنا
فالحمد لله على ما به من علينا من ظهور السنى

وقال أيضًا فى نحو منه[4]:

نعم قرت العينان وانشرح الصدر وقد لاح من وجه الإمام لنا البدر

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٧.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٨.

سـرينا بليل التيـه يكذب فـجـره فلمـا تجلى بشـره صـدق الفـجـر
أغـر المحيـا بالحـيـاء مـقنع زهاه الكلام الحـر والنسب الحـر
إمـام الهدى قـد خـصـه بخلافـة إله له فـى خلقـه النهى والأمـر

وقال فى مثله وقد ركب رحمه الله عليه لمعاهد حضرته[1]:

هنيـئـا هنيـئـا لا نفـاد لـعـده وبشـرى لدين الله إنجـاز وعـده
فـقـد لاح بدر التم فى أفق العـلا وحل كـمـا يرضى منازل سـعـده
وطاف إمـام المسلـمـين مـحـمّـد بحـضـرته العـليـا مـبلغ قـصـده
ولاحت به الأنوار من بشر وجـهه وفـاح بهـا النور من نشـر حمـده
[وأبصـرت الأبصار شـمس هداية وأشرقت الأرجـاء من زهر رِفْدِه][2]
ولوحت الأعـلام فـيـهـا بنصـره كـمـا لـوح الصـبح المنيـر ببنده
سـتـهـدى لـه الأيام كل مـسـرة ويحـيى به الرحـمن آثـار جـده
فسل حسام السـعد واضرب بحده وخل حسـام الهند فى كن غـمده
فسـيفك سـيف الله مهـما سللـته يقـيم حـدود الله قـائم حـده

وأنشده رضى الله عنه فى طـرد مولانا الوالد رحمـه الله ويصف البازى ويشكر ما أهداه من صيده:

يا من تمـد له الملوك أكـفـهـا تدعـو الإلـه له بطـول بقـاءِ
أضحى ولـى العهد نجلـك صائدا شـأن الملوك العـليـة العظمـاء

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٨.

(٢) ما بين الحـاصرتين من نفح الطـيب ج٧ ص ٢٢٨، وفى سائر الأصول: «وفـده» مكان: «رفده».

ورمى البـزاة على الـقناة يصـيـده صـيـد الخليـفـة شـارد الأعـداء
من كل خـافقـة الجناح إذا مـشت تبـدى اخـتـيـال الغـادة العـذراء
أهدت لنا سـبج العـيـون وطوقت أرجـاءهـا بعـقـيـقـة حـمـراء
واسـتاقت الـياقـوت فى منقـارها ومشت على المرجـان فى استحـياء
ووشت يد الأقـدار فى أعـطافـهـا وشـيـئًـا زرى بـالحلة السـيـراء
ملك الطيـور أتى إلى ملك الورى فـاسـتـاقـهـا لمؤمل الخلفـاء
وقضى سـماحك أن تجود ببعـضها للعـبـد تعليـه على الجـوزاء
لله هل شـرف يضـاهى ذا الذى أوليـتـه من مـنة غـراء
هيـهـات أين جـزاؤها من شكره يجـزيك عنا الله خـيـر جـزاء
أولست قـد أوليت كل خليـفـة شـرقـا وغـربا أصـواب الآراء
فلصـاحب الصفـراء فـخر خـالد يحظى به مـن صـاحب الحـمـراء
بيضـا وسمـرا قد شرعـت لنصره وأعنت بالـبـيـضـاء والصـفـراء
لا زلت شـمس خـلافـة أبناؤه مـثل الـبـدور بمرقب العـليـاء

وأجاب عن أبيات خمس كتب رضى الله عنه بها إليه:

لك فى الخـلافـة مظهـر لا يفـرع من دون مـرقـبـه النـجـوم الطلع
يأيـهـا الملك الـذى أيامـه غـرر بوجـه الدهر لا تتـقنع
سبـحان من حلاك بـالخلق الرضا وكـسـاك منـه حلة لا تخـلع
أمـا المدام فدمت تطلـع شمـسهـا بين البدور وشـمس وجهك تسطع

أغنيتنى عنها بخمر بلاغة فالطيب من نفحاتها يتضوع
بوأتنى من عز نظمك روضة طاب الجنى منها ولَذَّ المشرع
وأريتنى جنح الدجنة غرة فالنور من قسماتها يتطلع
يعنو لها البدر المنير وقد علا والبدر تاج بالنجوم مرصع
فاتحتنى منها بخمس ولائد لتعيذها من كل عين تلقع
قبلتها ألفا وبت لربها أدعو له حتى الصباح وأضرع

وقال يصف غربانا أجراها - رحمه الله عليه - ويتفاءل له بالراحة من شكاية ثلاثة:

أعلامك الحمر فوق السفن خافقة وريح سعدك تجريها على قدر
ما إن رفعت قسى السفن فى وطن إلاّ ونلت قصى السؤل والوطر
قالوا السفائن فوق البر ذا عجب من غير بحر ولا موج ولا غرر
فقلت آثار مولانا التى سفرت لنا العناية عن آياتها الكبر
تجرى بريح سعود فى بحار ندى تغنى بنانك عن بحر وعن مطر
لله يوم عجيب الصنع ذو أثر محجل رائق الأوضاح والغرر
استبشر الناس فيه بالصنيع وقد تضمن البشر فى ورد وفى صدر
زجرته بشفاء قد أتاك كما يرضى علاك جميل الخُبْرِ والخَبَرِ
إذا شكوت فكل الكون ذو وصب فأنت منه مكان السمع والبصر
ومن شكا بأليم الوجد فى بصر فقد تعود غير السهد والسفر

فـأسأل الله رب العـرش فى لطف يسـرى إليك بهـا إنعـام مـقـتـدر
وأن يدافع عن ذات بحـــرمـتـهـا تعـود الخلق لـطف الله فى القـدر

ثم قال بعد إيراد جملة من نظمه:

وأنشد وقد عاد - رحمة الله عليه - من بعض مـتوجهاته الجهادية لجبل الشوار[1]:

على الطائر الميمـون والطالع السعد قدمت مع الصنع الجميل على وعد
وقد عدت من جبل الشوار لتجتلى عـقـائـل للفـتح المبـين بلا عـد

ثم قال بعد ذكر جملة:

وقال مما رسم فـى طيقان الأبواب بالمـبانى السعـيدة التى ابتناهـا مولانا رضى الله عنه[2]:

أنا تـاج كـــهـــلال أنا كـــرسى جـمـــال
ينجـلى الإبريق فـيـــه كعـروس ذى اختـيال
جـود مـولانا ابن نصـر قـد حبـانى بالكمـال

وفى المعنى[3]:

من رأى التـاج الـرفـيـعـا قد حوى الشكـل البديعا
تحـســـد الأفـــلاك مـنه قـوسـه السـهل المنيـعـا
دمت ربعـــا للتـــهـــانى انظم الشـمل الجـمـيعـا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.

وفيه:

للغنى بالله قصر للتهانى يصطفيه[1]

فيه محراب صلاة يقف الإبريق فيه

تاليا سورة حبى والمعالى تقتفيه

وفيه[2]:

أى قوس ذى كمال سهمه سهم السعاده

ملك الإبريق فيه عود الإحسان عاده

ذو صلاة من صلات كلها دأبا معاده

وفى المعنى مما كتبه لمبتنى لعمنا سعد رحمة الله تعالى عليه[3]:

انظر لأفق جمال به الأباريق تصعد

بديع حسن حباه به الأمير الممجد

فخر الإمارة سعد به الخليفة يسعد

وكيف لا وأبوه فخر الملوك محمّد

[عليه حلى رضاه فى كل يوم تجدد]

وفيه أيضًا[4]:

رفعت قوس سماء يزهى بتاج الهلال

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٢٩.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٠، وما بيت حاصرتين منه.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٠.

قـــد قلـدته نـقـــوشى در الدرارى الـغـــوالى
ترى الأبـاريق فـــيـــه تهـــديك عـــذب الزلال
قـد زان قـصـرى سـعـد بســـعـــده المـتـــوالى
فـــدام يعـــمـــر ربـعى فى ظـل مـــولى المـوالى

وقال فى الغرض[1]:

ما ترى فى الرياض أشـباهى يسحر العقال حسنى الباهى
زان روضى أمـيـره سـعـد وهـو نجـل الـغـنـى بـالله
دام مـنه بمـرتقـى عـــز آمـر بـالسـعـود أو ناهى

وقال فى غرض الشكر [عن مغطى صنهاجى أهداه إياه][2]:

لمن قـبـة حـمـراء مـد فـضـاؤها تطابق منهـا أرضـهـا وسـمـاؤها
ومـا أرضـها إلاّ خـزائن رحـمـة وما قد سـما من فوق ذاك غطاؤها
وقـد شبـه الرحـمن خلقـتنا بهـا وحسـبك فخـرا بان منه اعتـلاؤها
ومعـروشة الأرجـاء مفـروشة بـها صنوف من النعـماء منهـا وطاؤها
ترى الطير فى أجوافها قد تصففت على أنـعم عند الإله كـــفـــاؤها
ونسـبـــتـه صنهـاجـة غـــيـر أنه تقـصر عـما قـد حوى خلفـاؤها
حـبتنى بهـا دون العـبيـد خلافـة على الله فى يوم الجـــزاء جـزاؤها

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٠.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٠ وما بين الحاصرتين منه.

وفى مثله[1]:

ما للعوالم جمعت فى قبة ... قد شادها كرم الإمام محمّد
فى صفح صرح بالزجاج مموه ... وبجود مولاى الإمام ممهد
ما إن رأيت ولا سمعت بطائر ... عن ثوب موشى الرياش مجرد
إن لم تكن تلك الطيور تغردت ... فلشكر هذا العبد سجع مغرد
صفت عليها للفواكه كل ما ... قد عاهدته بدوحها المتعود
لو أبصرت صنهاجة أوضاعه ... دانت له أملاكها بتعبد
عودتنى الصنع الجميل تفضلا ... لا زلت خير معوَّد ومعوِّد
وبسورة الأنعام كم من آية ... فيها لقار بالنوال مجود

وقال تذييلا لبيتى ابن المعتز[2]:

«سقتنى بليل شبيه بشعرها ... شبيهة خديها بغير رقيب
فأمسيت فى ليلين للشعر والدجى ... وشمسين من خمر وخد حبيب»
إلى إن بدا الصبح المنير كأنه ... محيا ابن نصر لم يشن بغروب
شمائله مهما أديرت كئوسها ... قلائد أسماع وأنس قلوب

وقال مذيلا على بيت ابن وكيع أيضًا[3]:

«هى فى أوجه الندامى عقيق ... وهى مثل النظار فى الأقداح»

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣١.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣١.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.

كـابن نصـر تراه فى الحرب لـيثـا وهو بدر الهـدى وغـيث السمـاح
ذكـــره قـــد ثنى قـــدود الـندامى وأعـــاد الحيـــاة فى الأشبـــاح

وقال مما يرسم للغنى بالله[1]:

لـــلـغـــنـــى بـــالله مـلـــك برده بـالعـــــز مـــــذهب
دام فى رفـــــعـــــة شـــــان مـاجـلا الإصـبـــاح غـيـهب

وقال أيضًا[2]:

يا بـن نصـــــر لك مـلك ليس تـعـــوده الفـــتـــوح
دمت روحـــا للـمـــعـــالى مـا سـرى فى الجـسم روح

وقال من مقطوعة[3]:

وابن نصـر ليس مـحـيا كـصـبح إن تجلى جـــلا دجـى كل كـــرب
ذو حـــســـــام كـــأنه لمـع برق فى بنان كـــأنهـا غـيـث سـحب

ومن أخرى[4]:

وكـــأن النجـــوم فى غـسـق الليـ ـل جـــمـــــان يلوح فى آبـنوس
وكـأن الصـبـاح فـى الأفق يجلى بحلى الـنجـوم مـــثل العـــروس
وكـــأن الـرياض تهـــدى ثـناء للـغـنـى بالله فـــــوق الـطروس

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.
(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.
(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٢.

ثم قال بعد قصائد كثيرة عيدية:

وقال من أخرى عيدية شاركتها فى كثير من أبياتها قصيدة فتحية تقدمت، أولها

* هى نفحة هبت من الأنصار *

والمختص بهذه:

أضياء هدى أم ضياء نهار وشذا المحامد أم شذا الأزهار[1]

ومنها بعد كثير:

قسما بهديك فى الضياء وإنه شمس تمد الشهب بالأنوار[2]

ومنها أيضًا[3]:

كم من لطائف للهدى أوضحتها خفيت مداركها على الأفكار

كم من جرائم قد غفرت عظيمها مستنزلا من رحمة الغفار

علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابقت لرضاك فى مضمار

ومنها يصف الجيش[4]:

سالت به تحت العجاج سفينة نفحت بريح العزم من أنصار

أرست بجودى الجود فى يوم الندى وجرت بيوم الحرب فى تيار

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

ومنها[1]:

ألقى بـأيدى الريح فـضل عـنانه فـيكاد يسـبق لمحـة الأبصـار

ومنها[2]:

فهى العراب متى أثيرت فى الوغى قد أعـربت عن صنع لطف البارى

ومنها[3]:

إن خاض فى بحـر العجـاج رأيته يجـلو دجنتـه بوجـه نهـار

ومنها[4]:

كم فـيـهم من قـار ضـيف طارق وضـحت شـواهد فـضـله للقـار

ومنها[5]:

يأيـهـا الملك الـذى أيامـه غـرر تلوح بأوجـه الأعـصـار

قـد زارك العيـد السعـيد مـبشـرا فـاسـمح لألـف مـثلـه بمزار

لما ازدهتـه عـواطف ألطفـتـهـا عطف الإله عـليك عطف سـوار

[فـأتى] يؤمم منـك هديا صـالحـا كى يسـتـمـد النور بعـد سـرار

وأتاك يسحب ذيل سـحب أغدقت تغـرى جـفـون المزن باسـتعـبـار

جادت بجـارى الدمع من قطر الندى فـرعى الربيع لهـا حـقـوق الجـار

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٣.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤.

(٤) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤.

(٥) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤، وما بين حاصرتين منه.

فأعـاد وجه الأرض طلقـا مشـرقا مـتـضـاحكا بمبـاسـم النوار
لما دعـاك إلى القـيـام بسـنة حكمت دواعـى الجـود والإيثـار
فـأفـضت فـينا من نداك مـواهبـا حـسنت مـواقـعـهـا على التكرار
فـاهنأ بعـيد عـاد يشـتمل الرضـا جـذلان يرفل فى حلى استـبشـار

ومنها[1]:

لا عذر لـى أنَّ كنت فيـه مقـصرا سـدت صـفـاتك أوجـه الأعـذار
فـإذا نظمـت من المناقـب درها شـرفنـى منهـا بنـظم درارى
فلذلـك أنظمـهـا قـلائـد لؤلؤ لألاؤهـا قـد شـف بالأنـوار

ثم أورد هذا المؤلف قصيدة ميمية طويلة، أولها:

هناء لـه ثغـر الـهـدى يتـبـسم وبشـرى بهـا عـرف الرضـا يتنسم
تبـسم ثغـر الـثـغـر عنهـا بشـارة فـأعدى ثغـور الزهر منه الـتبـسم
ولا عجب من مـبسم الزهر فى الربا فللبرق من خلف السحـائب مبسم
عناية مـن أعطى الخليـفـة رتبـة عليـهـا النجـوم النيـرات تحـوم
فـمنه اسـتفـاد الملك كل غـريبـةٍ تخط على صـفـح الزمـان وترسم
ومنه تلـقى الهـدى كل خليـفـةٍ كـأنهـم مما أفـاد تعـلمـوا

ومنها بعد نيف على ستين بيتًا:

وكم من لواء فى الفـتـوح نشـرته وللرعـب جـيش دونه يتـقـدم

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٤.

فقل لملوك الأرض دونكم فقد ... أعلم ما لا زال بالنصر يعلم

تسامت به للنصر أشرف ذمة ... لها من رسول الله عهد مكرم

وكم من جهاد قد أقمت فروضه ... يزار به البيت العتيق وزمزم

وكم عزمةٍ جردت منها إلى العدا ... حساما به داء الضلالة يحسم

وكم بيت مال فى الجهاد بذلته ... وأقرضت منه الله ما الله يعلم

وكم ليلة قد جئت فيها بليلةٍ ... من النقع فيها للأسنة أنجم

سهرت بها والله أجرها ... تؤمن فيها الخلق والخلق نوم

وفوقك من سعدٍ لواء مشهر ... ودونك من عزم حسام مصمم

إذا أنت جهزت الجياد لغارة ... فإن صبح الحى أغبر أقتم

فمن أشهب مهما يكر رأيته ... صباحا بليل النفع لا يتكتم

وأحمر قد أذكى به البأس جذوة ... إذا ابتل عطفا فى الوغى يتضرم

وأشقر أعدى البرق لونا وسرعة ... ولكن له دون البروق التقدم

وأصفر فى لون العشى وذليله ... ولون الذى بعد العشية يعلم

وأدهم مثل الليل والبدر غرة ... وبالشهب فى حلى المقلد ملجم

وأشهب كالقرطاس قد خط صفحه ... كتاب من النصر المؤزر محكم

ورُبَّ جلاد من جدالٍ سطرته ... يراع القنا فيه تخط وترسم

وقام خطيب السيف فوق رءوسهم ... فأعجب منه أعجم يتكلم

فكم من رءوس عن جسوم أزالها ... فأثكل منها كل باغ يجسم

وزرق العيون للأسنة قد بكت ... ولا دمع إلاّ ما أسيل به الدم
ونهر حسام كلما أغرق العدا ... تلقتهم منه سريعا جهنم
فأصليت عباد المسيح من الوغى ... سعيرًا به يرضى المسيح ومريم
أبر من التثليث بالله وحده ... فمن يعتصم بالله فالله يعصم
ونبه سيوفًا ماضيات على العدا ... وخل جفون المرهفات تهوم
ولله من شهر الصيام مودع ... على كل محتوم السعادة يكرم
تنزل فيه الذكر من عند ربنا ... فيبدأ بالذكر الجميل ويختم
ولله فيه من ليالٍ منيرة ... أضاء بنورها الوحى منهن مظلم
وصابت سحاب الدمع يمحى بمائها ... من الصحائف أوزار تخط ومأثم
ولله فيه ليلة القدر قد غدت ... على ألف شهر من الثواب تقدم
تبيت بها حتى الصباح بإذنه ... ملائكة السبع الطباق تسلم
وبشرى بعيد الفطر أيمن قادمٍ ... عليك بمجموع البشائر يقدم
جعلت قراه سنة نبوية ... لها فى شعار الدين قدر معظم
ومن عدوات للإله رفعتها ... تسدد منها للإجابة أسهم
وفى كل عين من محياك قرة ... وفى كل كف من نوالك أنعم
إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله ... فلا أبصر المصباح من يتوسم
فما مهد الإسلام غير خليفةٍ ... على عطفه در المحامد ينظم
فكم بيت شعر قد عمرت بذكره ... فبات به جادى السرى يترنم

ولسن بيوتنا بل قصوراً مشيدة تطل على أوج العلا وتخيم
وما ضرها أنْ قد تأخر عهدها إذا طال مبناها الذين تقدموا
وإذ أنت مولاها وعامر ربعها فكل فخار تدعيه مسلم
أنا العبد قد أسكنته جنة الرضا فلا زلت فيها خالداً تتنعم
ولا زلت فى الأعياد ساجع روضها إذا احتفلت أشرافها أترنم
بقيت متى يبل الزمان تجده وفى كل يومٍ منك عيد وموسم
ودمت لألف مثله فى سعادةٍ يذل بها باغٍ ويعتز مسلم
ولّما رأيت الفخر جهد مقصر وأنك أعلى من مديحى وأعظم
ختمت ثنائى بالدعاء وهأنا أقلب فى كف الندى وأسلم

ثم قال: ولما انتقل مولانا الجد إلى رضوان الله ونعيم خلده، وقام مولانا الوالد ولى عهده بالأمر من بعده، أنشد رثاء فى السلف، وهناء فى الخلف، رحمة الله تعالى عليهما:

عزاء فإنَّ الشجو قد كان يُسرف وبشرى بها الداعى على الغور يُشرفُ
لئن غرب البدر المنير محمّد لقد طلع البدر المكمل يوسف
وإنْ رد سيف الملك صونًا لغمده فقد سل من غمد الخلافة مرهف
وإنْ طوت البرد اليمانى يد البلى فقد نشر البرد الجديد المفوف
وإنْ نضب الوادى وجف معينه فقد فاض بحر بالجواهر يقذف
وإنْ صوح الروض الذى ينبت الغنى فقد أزهر الروض الذى هو يخلف

وإنْ أقلعت سحب الحيا وتقشع فقد نشأت منها غمائم وكف
وإنْ صدع الشمل الجميع يد النوى بيوسف فخر المنتدى يتألف
وإنْ راع قلب الدين نعى إمامه فقد هز منه بالبشارة معطف
وقد ملك الإسلام خير خليفةٍ من البدر أبهى بل من الشمس أشرف
يعير محياه الصباح إذا بدا وتخجل يمناه الغمام وتخلف
فمن نور مرآه الكواكب تهتدى ومن فيض جدواه الحيا نتوكف
ولما قضى المولى الإمام محمّد تحكم فى الناس الأسى والتأسف
فلا جفن إلاّ مرسل سحب دمعه ولا قلب إلا بالجوى يتلهف
وقد كادت الدنيا تميد بأهلها وقد كادت الشم الشوامخ ترجف
وقد كادت الأفلاك ترفض حسرة وكادت بها الأنوار تخفو وتكسف
ولكن تلافى الله أمر عباده بوارثه والله بالناس أرأف
فللدِّين والدنيا ابتهاج وغبطة وللثغر ثغر بالمنى يترشف
أمان كما تندى الشبيبة نضرة يمد له ظل على الأرض أورف
طلعت على الإسلام فى دولة الرضا فأمنته من كل ما يتخوف
بوجه يرينا البدر عند طلوعه وفى وجنة البدر المنير التكلف
وعزم كما انشق الصبح مصمم ورأى به بيض الصوارم ترهف
وحولك من حفظ الإله كتائب وفوقك من ظل السعادة رفرف
فوالله ما ندرى وللعلم عندنا براهين عن وجه الحقائق تكشف

أوجـهك أم شمس النهـار تطلعت وكـفك أم سـحب الحيـا تَتَـوَكَّفُ

فكم لك من ذكر جـميل ومفـخر عـميم على أوج الكواكب يشـرف

يزار به البـيت العـتـيق وزمـزم ويعـرفـه حـتى الصـفـا والمعـرف

ومن يسـأل الأيام تخـبـره أنهـا بقومك تزهى فى الفـخار وتشرف

وهل تهـدم الأيام بنيـان مـفـخـر تشـيـده آى كـرام ومـصـحف

ولو كـانت الأيام قـبل تـنكرت فـباسـمك يا بدر الهـدى تتعـرف

ألا لا ترعـنا الحـادثـات فـإنـنا عـصـابـة توحـيـد به نتـشـرف

وليـس لنا إلاّ التـوكل عـادة وظن جـمـيل وعـده ليس يخلف

فـمن مـبلغ عنـا الغنى بـربه وقد سـار للفردوس يحيـا ويتحف

بآية مـا بلغـت دين مـحـمّـد أمـانى للرحـمن تدنـى وتزلف

وعنك يروى الـناس كل غـريـبـة يروى لنا مـنهـا الغـريـب المصنف

فكسـرت تمثـالا وهدمت بيـعـة وناقوسـها بالكـفر يهدى ويـهتف

وكم من منـار بالأذان عـمـرتـهـا فـصـارت به الآذان بعـد تشنف

وسرت وقـد خلفت خـير خليـفة لك الفـخـر منه والثـناء المخلف

أيوسف قد أرضـيته أجـمل الرضا وكـان بما ترضى وتـخـتـار يكلف

وكنت لـه يا قـرة العـين قـرة على بـره المحـتـوم تحـنو وترأف

سـتجـرى على آثاره سـابق المدى فـيـهدى لـه منك الثناء المضـعف

سـيلقى عدو الديـن منك عزائمـا إليـه بجـرار لكـتـائـب تزحف

ويأسف لَمَّا يبصر البر يرتمى بفرسانه والبحر بالسفن يقذف
وتفتح من بلدانه كل مقفل يعبد عباد الصليب ويؤسف
فما أرؤس الكفار إلاّ حصائد بسيفك سيف الله تجنى وتقطف
حُسَامُكَ رقراق الصفيح كأنه بكفك من ماء السماء ينطف
ضعيف يصح النصر من فتكانه فيروى لنا منه الصحيح المضعف
ورمحك مرتاح المعاطف هزة كأن قد سقته من دم الكفر قرقف
ولا عيب فيه غير أنَّ سنانه إذا شم ريح النقع فى الحرب يرعف
فإن كعت الأبطال فى حومة الوغى يشير لنا منه البنان المطرف
لقد فخر الإسلام منك ببيعة وزال بها عنه الأسى والتخوف
وألبسته بردا من الفخر ضافيا على عطفه وشى المديح يفوف
وقد نظمت فيه السعود ميامنا كما ينظم العقد النفيس ويرصف
فدمت قرير العين فى كل غبطة بما شئت من آمالك الغر تسعف

وأنشد على لحده المقدس - رحمه الله تعالى - فى المعنى قوله[1]:

ضريح أمير المسلمين محمّد يخصك ربى بالسلام المردد
وحياك من روح الإله تحية مع الملإ الأعلى تروح وتغتدى
وشقت جيوب الزهر فيك كمائم يرف بها الريحان عن خضر ندى
وصابت من الرحمى عليك غمائم تروى ثرى هذا الضريح المنجد

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٥.

وزارتك من حـــور الجـنان أوانس نواعـم فى كل الـنعـــيم المخـلد
وجاءتك بالبـشرى مـلائكة الرضا كما جاء فى الذكـر الحكيم الممجد
وصـافح منك الـروض أطيب تربة وعـاهد منك المزن أكـرم مـعـهـد
رضا الله والصفيح الجـميل وعفوه يوالى على ذلك الصـفيح المنضـد
ويا صدفا قد حاز من جوهر العلا لكل نفـيس بالنفـاسـة مـفـرد
أعندك أنَّ الحلم والـعلم والحـجـا وزهر الحلـى أدرجت طى ملحـد
وهل أنت إلاّ هالـة القـمـر الذى بنور هداه الشـهب تهدى وتهـتدى
ويا عجبـا من ذلك الترب كيف لا يفـيض ببـحـر للسـماحـة مـزبد
لقد ضـاقت الأكوان وهى رحيـبة بما حزت مـن فخر عظـيم وسؤدد
قـدمت على الرحمن أكـرم مقـدم وزودت من رحـمـاه خيـر مـزود
أقـام بك المولى الإمـام مـحـمّـد مـؤمل فـوز بالشـفـيع مـحـمّـد
فجاء كـما يرضى وترضى به العلا وأنجـز للآمـال أكـرم مـوعـد
ومدينة ظلال العـدل فى كل وجهة وكف أكف البغى من كل مـعتدى
وقام بمـفروض الجهـاد عن الورى وعـود دين الله خـيـر مـعـود
قضى بعد مـا قضى الخلافة حـقها وعـامل وجه الله فى كل مـقصـد
وفـتح بالسـيف الممـالك عنوة ومدت له أمـلاكهـا كف مجـتدى
وكـسر تمثـال الصليب وأخـرست نواقـيس كـانت للضـلال بمرصـد
وطهـر مـحـرابا وجـدد منـبـرا وأعلن ذكـر الله فى كل مـسـجـد

ودانت له الأمـلاك شـرقـا وغـربا وكلـهم ألقـى له الملـك باليـــد
وطبق مـعـمـور البـسـيطة ذكـره وسارت به الركـبان فى كل فـدفد
وسـافـر عن دار الفنـاء ليـجـتنى بما قـدم اليـوم السـعـادة فى غـد
وقـــام بأمـــر الله حق قـــيـامـــه بعـــزمـــة لا وان ولا مـــتـــردد
لئن سـار للرحـمن خـيـر مـودع وحل من الفردوس أشـرف مقـعد
فقـد خلف المولى الخليـفة يوسـفا يعـيـد له غـر المسـاعى ويبـتـدى
سبـيلك فى سبـيل المكارم يقـتفى وهديك يا خـيـر الأئمـة يقـتـدى
محمّـد جلى الخطب من بعد يوسف ويوسف جلى الخطب بعد مـحمّد
ولو وجـد الناس الفـداء مـسوغـا فـداك ببـذل النـفس كل مـوحـد
ستـبكيك أرض كنت غيث بلادها وتبكيك حتى الشهب فى كل مـشهد
وتبكى عليك السحب ملء جفونها بدمع يروى غلة المجـدب الصـدى
وتلبس فـيك الـنيـرات ظلامـهـا حدادا ويذكى النجـم جفن مسـهد
ومـا هى إلاّ أعـين قـد تسـهـدت فكحـلهـا نجـم الظلام بإثـمـد
فـلا زلت فى ظل النعـيم مـخلدا ونجلك يحـيـا بـالبـقـاء المخلد
وأوردك الرحـمن حـوض نبـيـه وأصدر من خلفت عن خـير مورد
عليك سـلام مـثل حمـدك عـاطر يفض ختام المسك عن تربك الندى
وصلى على المخـتـار من آل هاشم صلاة بهـا نرجو الشفاعـة فى غد

ثم قال: وقال أيضًا فى هذا الغـرض من رثائه، ومدح مولانا الوالد فى أثنائه:

سلام على الدنيا جـميعا وما فـيها ... غدات نعت شمس الخلافة من فيها

نعت ملك الأمـلاك والكامل الذى ... يكف عـوارى الحادثات ويكفـيهـا

عـميـد بنى الأنصار غـير مـدافع ... ومـحى معـاليهـا ومولى مـواليهـا

وبدر دياجـهـا وشـمس نهـارها ... وبشـر محـيـاها ونور مـجالـيهـا

خفا الكواكب الوقـاد قد كان نوره ... يجلى من الدهم الخطوب دياجيـها

هوى القمر الوضـاح من أفق العلا ... فـأظلم جـو النيـرات بسـاريهـا

وقد كـسفت شمس الهداية بعـدما ... أبان سـبـيل الحق للـخلق هاديهـا

هو الجبـل الراسى تصدع بعـد ما ... أقـرت به شم الجـبـال رواسـيـهـا

يعـز على دين الهدى أنَّ شـمسـه ... يطول بأطـبـاق التـراب تواريهـا

يعز عـلى زهر النجوم مـتى سرت ... ولا تلمح الهدى الذى كـان يهديها

لأندلـس ثكل عـليـه مـردد ... له لبـست سود المسـوح نواحـيهـا

ثلاثين حـولا بعد خمـس تعودت ... يدافع عنهـا كل خطب ويحمـيهـا

أبكيـه للرايات يـخـفق بـندها ... وفى مـرقاب النصـر المؤزر يعليهـا

أبكيـه للخـيل المغـيـرة بالضـحى ... وقـد أبعد الفـتح المبين مـراميهـا

ويبكيـه مـعـمور البـسـيطة كلهـا ... وما ضم من دانى البـلاد وقاصيـها

وتبكيـه سـحب أخـجلتـهـا بنانه ... وترسل دمع الغيث حـزنن مآقيـها

وتبكيه حتى الشهب فى أفق العلا ... وتلبس جلباب الظلام جواريها

عزاء أمير المسلمين فإنها ... مقادير رب الخلق فى الخلق يجريها

هو الموت ورد للخليفة كلها ... أواخرها تقفو سبيل أواليها

وما بيننا حى وما بين آدم ... إلاّ هكذا سوى البرية باريها

وفى موت خير الخلق أكبر أسوة ... تصبر أحرار النفوس وتسليها

أمولاى لو كان الفداء مسوغا ... فديناك بالدنيا جميعا وما فيها

أمولاى كم من نعمة لك عندنا ... إذا نحن رمنا حصرها ليس نحصيها

أمولاى خلفت العبيد إلى الأسى ... يناجيك من فرط الشجون مناجيها

وقد مات منا الصبر إلاّ صبابة ... بذكرك فى جنح الدجنة نحييها

أمولاى يا مولاى هل أنت سامعى ... أبثك ما يشجى القلوب ويدميها

تحفيت بى حتى نضوت شبيبتى ... عزيزا وجيها حيثما رمت توجيها

وقد كان ظنى أن تكون جنازتى ... يشيعها منك الرضا ويواريها

وقد عشت حتى ذقت فقدك قلما ... تبلغ نفس ما تريد أمانيها

ولولا أبو الحجاج نجلك لم يكن ... لدين الهدى كرات بحر يزجيها

ولكنه والله يجمل صبره ... مناقبك الغر الكرام سيحييها

فخلفتنا منه لأكر كافل ... يحمل أعباء الخلافة كافيها

سريرته الرحمى وسيرته الرضا ... وأخلاقه الغر الكريمة تدريها

وسيلتك العظمى وظلك فوقنا ... وعمدتنا والله فى العز يبقيها

فما كنت إلاّ الشمس قد غربت لنا ... وأنوارها بدر التمام يجليها

وما أنت المسك إن تخف ذاته ... يَنِمُّ بها العرف الذكى فيفشيها

إلاّ قدس الرحمن نفيسا كريمة ... بكل عزيز فى الوجود نفديها

وبشرى لنا أنَّ السعادة نزلها ... وأنَّ رضا الله الكريم يرضيها

وحاشا وكلا أن تضيع وسائل ... سيذخرها الرب الكريم وينشيها

فكم من جهاد رفعت بنوده ... وقد أثمرت فيها المعالى عواليها

كسرت تماثيل الصليب وأخرست ... نواقيس كانت بالضلال تناغيها

وكم من منار قد أَعَدْتَ أذانه ... وأعلن فيه دعوة الحق داعيها

وكم من رياض للكتائب قد غدت ... تضيق بمستن الجياد نواحيها

وملتف زرع بالأسنة مزهر ... ولكن به المران تحلو مجانيها

إذا ظمئت منها الذوابل فى الوغى ... جداول أنهار السيوف ترويها

غرس زكى للجهاد غرسته ... فصرت إلى دار السعادة تجنيها

ولو لم يكن إلاّ سنين قطعتها ... رهين شكاة لا تزال تعانيها

صبرت لها صبر الكرام وإنما ... ذخرت أجورا فضل ربك جازيها

أمالك فى الأنصار خير وسيلة ... وقد كنت بالنصر العزيز تحييها

وحسبك بالمختار أكرم شافع ... وسنته والله لا زلت تُحَيِّيها

على علم الدنيا وفخر ملوكها ... تحية رب لا يزال يواليها

سأبكيه ما دام الحمام مطوقا ... وما سجعت تبكى الهديل قماريها

وأهديه من طيب السلام معطرا كما فتقت أيدى التجار غواليها
وأسبل رب العرش سحب كرامة تَسُحُّ على ذاك الضريح غواديها
ونسأل فتحا للخليفة يوسف يملكه أقصى البلاد ومن فيها

ثم ذكر هذا المؤلف جملة نظم ابن زمرك فى السلطان أبى الحجاج واستعطافه، وما يَهزّ له لرضا من شمائل أعطافه، ومنها[1]:

بما قد حزت من كرم الخلال بما أدركت من رتب الجلال
بما خولت من دين ودنيا بما قد حزت من شرف المعالى
بما أوليت من صنع جميل يطابق لفظه معنى الكمال
تغمدنى بفضلها واغتفرها ذنوب فى الفعال وفى المقال

ثم قال: ومن ذلك أيضًا يخاطب أخانا السلطان أبا عبد الله رحمه الله تعالى عليه، متوسلا بقديم ذمامه، والخدم المتعددة من نظامه[2]:

أتعطش أولادى وأنت غمامة تعم جميع الخلق بالنفع والسقيا
وتظلم أوقاتى ووجهك نير تفيض به الأنوار للدين والدنيا
وجدك قد سماك ربك باسمه وأورثك الرحمن رتبته العليا
وقد كان أعطانى الذى أنا سائل وسوغنى من غير شرط ولا ثنيا
وشعرى فى غر المصانع خالد يحييه عنى فى الممات وفى المحيا
وما زلت أهدى المدح مسكا مفتقا فتحمله الأرواح عاطرة الريا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٧.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٧.

وقد أكثر العبد التشكى وإنّه وحقك يا فخر الملوك قد استحيا
وما الجود إلاّ ميت غير أنّه إذا نفخت يمناك فى روحه يحيا
فمن شاء أن يدعو لدين محمّد فيدعو لمولانا الخليفة بالبقيا

ثم ذكر قصائد كثيرة ومقطوعات فى مدحه لأخيه أبى عبد الله، إلى أن قال:

وقال أيضًا وقد نزل بالوجلة من مرج الحضرة[1]:

منزل اليمن والرضا والسعود أنجزت فيه صادقات الوعود
كل يوم نزاهة إن تقضت أنشدتها السعود بالله عودى
جمع المستعين وصف الكمال بين بأس عَمَّ الملوك وجود
فاهن فى غبطة وعزة ملك أنت والله فخر هذا الوجود

وقال أيضًا مشيرا لتوليته العلامة[2]:

لك غرة ود الصباح جمالها ومحاسن تهوى البدور كمالها
وشمائل تحكى الرياض خلالها وأنامل ترجو الأنام خلالها
للمستعين خلافة نصرية عرفت ملوك العالمين جمالها
وأنا الذى قد نال منك معاليها تهوى النجوم الزاهرات منالها
تهديه ما قد نلته من بعضها والفخر كل الفخر فيمن نالها

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٧.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٨.

فـى كل يـوم منـك مـنة مـنعـم لو طاولت سـمك العـلا ماطالهـا
بلغت آمـــال العـبـــيـد فـــبلغت فـيك العـبـيد مـن البقـا آمـالهـا

ثم قال: وقال أيضًا وكتبها إليه مع خمسة أقلام[1]:

أيا ملكا لـم يبـد للعـيـن حـسنة سوى ملك قد حل مـن عالم القدس
لك الخيـر خذها كالأنامل خمـسة تعـــوذ مـرآك المـكمل بالخـــمس
فـمن أبصرت عـيناه مرآك فليـقل أعـوذ برب النـاس أو آية الكرسى

ثم قال بعد ذكر قصيدة: وقـال يخاطب مولانا الوالد - رحمة الله عليه - وقد مر مـعه بفحص رية، والثلج قد عم أنديته، وبسط أرديتـه، فى وجهة توجهها مولانا الجد - تغمده الله تعالى برحمته - إلى مالقَة[2]:

يا مـن رتب المعـــالى تـعـــتـلى ومـعـالم الفـخـر المشـيـد تبـتنى
ازجـــر بـهـــذا الثلج فَـــأْلا إنه ثلج اليـقـين بنصـر مـولانا الغنى
بسط البـيـاض كـرامـة لقـدومـه وافـتـر ثغـرا عن مسـرة مـعـتنى
فـالأرض جـــوهرة تلوح لمجـــتل والدوح مـــزهرة تفـوح لمجـــتنى
سبحـان من أعطى الوجود وجوده ليـــدل منه على الجـواد المحـــسن
وبدائع الأكـــوان فـى إتقـــانهـــا أثر يشـيـر إلى الـبـديع المتـــقن

ثم قال: ومن غير السـلطانيات، مما بز فيه سبقا وتـبريزا، وعرضه على نقدة الـبيان، فـرأت منه كل مذهبـة خلصت إبريزا، مرثيـته للقـاضى المعظم

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٨.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٨.

الشريف أبى القاسم الحسنى من شيوخه، أنجزها الوعد السابق فى المقدمة بها[1]:

أغرى سراة الحى بالإطراق ... نبأ أصم مسامع الآفاق
أمسى به ليل الحوادث داجيا ... والصبح أصبح كاسف الإشراق
فجع الجميع بواحد جمعت له ... شتى العلا ومكارم الأخلاق
هبوا لحكمكم الرصين فإنه ... صرف القضاء فما له من واق
نفش الزمان بصرفه فى صفحة: ... كل اجتماع مؤذن بفراق
ماذا ترجى من زمانك بعدما ... علق الفناء بأنفس الأعلاق
من تحسد السبع الطباق علاءه ... عالوا عليه فى الثرى بطباق
إنَّ المنايا للبرايا غاية ... سبق الكرام لخصلها بسباق
لمّا حسبنا أن تحول أبؤسا ... كشفت عوان حروبها عن ساق
ما كان إلاّ البدر طال سراره ... حتى رمته يد الردى بمحاق
أنف المقام مع الفناء نزاهة ... فنوى الرحيل إلى مقام باقى
عدم الموافق فى مرافقة الدنا ... فثنى الركاب إلى الرفيق الباقى
أسفا على ذلك الجلال تقلصت ... أفياؤه وعُهِدْنَ خير رواق
يا آمرى بالصبر عيل تصبرى ... دعنى عدتك لواعج الأشواق
وذر اليراع تشى بدمع مدادها ... وشى القريض يروق فى الأوراق

(١) نفح الطيب ج٥ ص ١٩٤.

يا حسرتى للعلم أقفر ربعه ... والعدل جرد أجمل الأطواق

ركدت رياح المعلوات لفقدها ... كسدت به الآداب بعد نفاق

كم من غوامض قد صدعت بفهمها ... خفيت مداركها على الحذاق

كم قاعد فى البيد فوق قعوده ... قعدت به الآمال دون لحاق

لمن الركائب بعدك تنتضى ... ما بين شأم ترتمى وعراق

تفلى الفلا بمناسم مفلولة ... تسم الحصى بنجيعها الرقراق

كانت إذا اشتكت الوجى وتوقفت ... يهفو نسيم ثنائك الخفاق

فإذا تنسمت الثناء أمامها ... مدت لها الأعناق فى الإعناق

يا مزجى البدن القلاص خوافقا ... رفقا بها فالسعى فى إخفاق

مات الذى ورث العلا عن معشر ... ورثوا تراث المجد باستحقاق

رفعت لهم رايات كل جلالة ... فتميزوا فى حلبة السباق

علم الهدة وقطب أعلام الورى ... حرم العفاة لمجتنى الأرزاق

رَقَّتْ سجاياه وراقت مجتلى ... كالشمس فى بعد وفى إشراق

كالزهر فى لألائه والبدر فى ... عليائه والزهر فى الإبراق

مهما مدحت سواه قيد وصفه ... وصفاته حمد على الإطلاق

يا وارثا نسب النبوة جامعا ... فى العلم والأخلاق والأعراق

يا بن الرسول وإنها لوسيلة ... يرقى بها أوج المصاعد راقى

ورد الكتاب بفضلكم وكمالكم ... فكفى ثناء الواحد الخلاق

مـولاى إنى فى عـلاك مـقـصـر ... قـد ضـــاق علم النجـــوم نطاقى
ومن الذى يحصى منـاقب فضلكم ... عـد الحـصى والرمل غـيـر مطاق
يهنى قـــبـورا زرتهـا فلـقـد ثوت ... منا مـــصـــون جـوانح وحـــداق
خط الردى منهـا سطورا نصـهـا: ... لا بـد أنك لـلفـنـاء مـــــــلاق
ولحق ترجـمـة الـكتـاب وصـدره ... وفـــوائد المكتـــوب فى الإلحـــاق
كم من سـراة فى القـبـور كـأنهم ... فى بطـنهـــا در ثوى بـحـــقـــاق
قل للسحاب اسـحب ذيولك نحوه ... والعب بـصـارم برقـك الخـفـــاق
أودى الذى غـيث العـــبـاد بكفـه ... يزرى بواكف غـيـــثك الغـيـداق
إن كـان صـــوبك بالميـاه فـــدرها ... در يروض مـــــا حـل الإمـــــلاق
بشـر كـثـيـر قـد نعـمـوا لما نعى ... قاضى القضـاة وغاب فى الأطباق
ألبـستـهم ثوب الكرامـة ضـافيـا ... وأرحت مـن كـــــد ومـن إرهاق
يتـفـيـئـون ظلال جـاهك كلمـا ... لفـحت سمـوم الخطب بالإحـراق
عدمـوا الموافق فى فراقك وانطوى ... عنهـم بســـاط الرفـق والإرفـــاق
رفعـوا سريرك خافضـين رءوسهم ... مـــا منـهم إلاّ حليـف سـيـــاق
لكن مـصـيـرك للـنعـيم مـخلدا ... كـــان الذى أبقـى على الأرمـــاق
ومن العجـائب أن يرى بحر الندى ... طود الهـدى يسـرى على الأعناق
إن يحـــملوك على الكـواهل طالما ... قد كنت مـحمـولا على الأحداق
أو يرفـعـــوك على العـــواتق طالما ... رُفِّـــعْتَ ظهـــر منابر وَعِـــتَـــاقِ

ولئـن رحلت إلى الجـنان فـإنـنا نصلـى بنار الوجـد والأشـواق
لو كنت تشـهد حـزن من خلفتـه لثنى عـنانك كـثـرة الإشـفـاق
أن جَنّ ليل جُنّ مـن فـرط الأسى وسـوى كـلامك مـاله من راق
فابعث خيالك فى الكرى يبعث به مـيت السـرور لـثـاكل مـشـتـاق
أغليت يا رزء الـتـصـبـر مـثلمـا أرخـصت در الدمع فى الآمـاق
إن يخلف الأرض الغـمـام فـإننى أسـقى الضـريح بدمـعى المهـراق

ومن أوليات نظمه يخاطب شيخـه الوزير أبا عبد الله بن الخطيب رحمه الله مادحا، قوله من قصيدة مطلعها:

* أما وانصداع النور من مطلع الفجر *[1]

يقول فيها بعد أبيات:

لك الله من فـذ الجـلالة أوحـد تطاوعـه الآمـال فى النهى والأمـر
لك القلم الأعلى الذى طال فـخره على المرهفات البيض والأسل السمر
يقلـد أجـيـاد الـطروس تمائمـا بصنـفى لآل من نظم ومـن نثـر
تهيـبك القرطاس فـاحمـر إذ غدا يقل بحـورًا من أناملك العـشـر
كـأن رياض الطرس خـد مـورد يطرزه وشى الـعـذار من الحـبـر
فـشـارة على الملـك رائقـة الحلى بألوية حـمـر وبالصحـف الحمـر
ومـا روضـة غناء عـاهدها الحـيـا تَحُـوكُ بها وشـى الربيع يد القطر

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٥.

تغنى قيان الطير فى جنباتها فيرقصن غصن البان فى حلل خضر
تمد لأكواس العرار أناملا من السوسن الغض المختم بالتبر
ويحرس خد الورد صام نهرها ويمنع ثغر النور بالذابل النضر
يفاخر مرآها السماء محاسنا فتزرى نجوم الزهر منها على الزهر
إذا مسحت كف الصبا جفن نورها تنفس ثغر الزهر عن عنبر الشحر
بأعطر من ريا ثنائك فى السرى وأبهر حسنا من شمائلك الغر
عجبا له يحكى خلال خميلة وتفوق منه الأسد فى موقف الذعر
إذا أضرمت من بأسها الحرب جاحما تأجج منه العضب فى لجى البحر
وإن كلح الأبطال فى حومة الوغى ترقرق ماء البشر فى صفحة البدر
لك الحساب الوضاح والسؤدد الذى نطاق الوصف فيه عن الحصر
تشرف أفق أنت بدر كماله فغرناطة تختال تيها على مصر
تكلل تاج الملك منك محاسنا وفاخرت الأملاك منك بَنُو نَصْر
بعزمة مضمون السعادة أوحد وغرة وضاح المكارم والنجر
طوى الحيف منشور اللواء مؤيدا حمى الإسلام بالطى والنشر
ومدينة ظلال الأمن إذ قصر العدا فيتلى ثناء الملك بالمد والقصر
إذا احتفل الإيوان يوم مشورة وتضطرب الآراء من كل ذى حجر
صدعت بفضل القول غير منازع وأطلعت آراء قُبِسْنَ من الفجر
فإن تظفر الخيل المغيرة بالضحى فعن رأيك الميمون تظفر بالنصر

فـلا زلت للعليـاء تحـمى ذمـارها وتسحب أذيال الفخـار على النسر
وللعلم فخر الديـن والفتك بالعدا بأوت به يا بن الخطيب على الفخر
يهنيك عـيد الفطر من أنت عـيده ويثـنى بما أوليـت من نعم غـــر
جبرت مهيـضا من جناحى ورشته وسهلت لى من جـانب الزمن الوعر
وبوأتنى مـن ذروة العـز مـعـــتلى وشرفتنى من حيث أدرى ولا أدرى
وسوغـتنى الآمال عـذبا مسلـسلا وأسميت من ذكـرى ورفعت من قدرى
فـدهيـر عـيـد بالـسـرور وبالمنى وكل ليـالى العمـر لى ليلة القـدر
فأصبحت مغبـوطا على خير نعمة يقل لأدناهـا الكثـيـر مـن الشكر

قال[1]:

وكتب إليه جوابا عن رسالة خاطب أولاده بها صدرها:

* مالى بحمل الهوان يدان *

قال جامع هذا الموضوع وفقه الله تعالى:

هذه قد تقدمت فى هذا الموضوع فراجعها.

ثم قال: وكتب إليه جوابا عن آخر كذلك:

حيت صباحا فأحييت ساكنى القصبهْ واسترجعت أنفسا بالشـوق مغتصبهْ
قـضى البـيان لهـا إلاّ نظيـر لهـا فأحرزت من مـعانى فضله قـصبهْ
ناجت طليح سرى لا يستـفيق لها هدت جوارحها واستـوهنت عصبهْ

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٨.

فـحـركـتـه على فـتك الكلال به ... وأذهبت بسـرور الملـتـقى نصـبـه
وأذكرت عهد مـهديها على شحط ... فـعاود الـقلب من تذكـاره وصبـه
ما كنت أسـمح من دهرى بجوهره ... لو كان يسم لى بالقلب من غـصبهْ
سل أدمع الصب من أغرى السحاب بها ... وقلبه بـجمار الشـوق من حصـبهْ
فـالله يحـفظ مـهـديـهـا ويشكره ... فوجهها بعصـاب الحسن قد عصبهْ
من كـان وارث آداب يشعـشـعهـا ... بالفرض إنى فى إرثـى لها عصـبهْ
هذا الملاذ مـلاذ الناس قـاطبـة ... سبحان من لغيـاث الخلق قد نصبهْ

وخاطب كذلك[1]:

طالعـتهـا دون الصـباح صـباحـا ... لما جلت غـرر البيـان صـبـاحـا
ولقـد رأيت ومـا رأيت كحـسنهـا ... وجـهـا أغر ومـبـسـما وضـاحـا
عـذراء أرضـعـهـا البيـان لبـانه ... وأطال مـغـدى عنـدها ومـراحـا
فـأتت كمـا شـاءت وشاء نجـيهـا ... تذكى الحـجـا وتنعـم الأرواحـا
لا بل كـمثل الروض باكـره الحيـا ... وسـقى به زهر الـكمـام فـفـاحـا
وطوت بسـاط الشوق منى بعـدها ... نشـرت على من القـبـول جناحـا

وخاطبه كذلك[2]:

يكلـفنى مـولاى رجـع جـوابه ... ومـا لتعـاطى المعـجـزات وما ليـا

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٩.
(٢) نفح الطيب ج٦ ص ٧٨.

أجيبك للفضل الذى أنت أهله وأكتب مما قد أفدت الأماليا
فأنت الذى طوقتنى كل منة وأحييت آمالى وأكسبت ماليا
وأنت الذى أعدى الزمان كماله وصيرت أحرار الزمان مواليا
فلا زلت للفعل الجميل مواصلا ولا زلت للشكر الجزيل مواليا

وخاطبه كذلك[1]:

ذرونى فَإِنِّى بالعلاء خبير أسير فإن النيرات تسير
وكم بت أطوى الليل فى طلب العلا كأنى إلى نجم السماء سفير
بعزم إذا ما الليل مَدّ رواقه يكر على ظلمائه فينير
أخو كلف بالمجد لا يستفزه مهاد إذا جن الظلام وثير
ذاما طوى يوما على السر كشحه فليس له حتى الممات نشور
وإنى وإن كنت الممنع جاره لتسبى فؤادى أعين وثغور
وما تعترينى فترة فى مدى العلا إلى أن أرى لحظا عليه فتور
وفى السرب من نجد تعلقت ظبية تصول على ألبابنا وتغير
وتمنع ميسور الكلام أخا الهوى وتبخل حتى بالخيال يزور
أسكان نجد جادها وأكف الحيا هواكم بقلبى منجد ومغير
ويا سكنى بالأجرع الفرد من منى وأيسر حظ من رضاك كثير
ذكرتك فوق البحر والبعد بيننا فمدته من فيض الدموع بحور

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٧٩.

وأومض خـــفـــاق الذؤابـة بارق فطـارت بقلـبى أَنَّةٌ وزفـــيـــر

ويهفـو فؤادى كلمـا هفت الصـبا أمـا لفـؤادى فى هواك نصـيـر

ووالله مـــا أدرى أذكـــرك هزنى أم الكأس مـــا بين الخـيـــام تدور

فمن مـبلغ عنى النوى مـا يسوءها وللبـــين حكم يعـــتـدى يـجـور

بأنا غـــدا وبعـده سـوف نلـتـقى ونمـسى ومـنا زائـر ومـــــــزور

إلى كم أرى أكنى ووجدى مصرح وأخفى اسم من أهواه وهو شـهير

أمنجـد آمـالى ومـغلى كـاسـدى ومـصدر جـاهى والحديث كـثيـر

أَأَنْسَى ولا أنسى مـجـــالسك التى بهـــا تلتـقـــينى نضـــرة وسـرور

نزورك فـى جنـح الظلام ونـنثـنى وبيـن يدينـا من حـــديثـك نور

على أننى إن غبت عنك فلم تغب لطائف لم يـحـجب لهن سـفـور

نروح ونـغـــدو كل يوم وعنـدها رواح عـلـيـنـا دائـم وبـكـور

فظلك فـوقى حيـثمـا كنت وارف ومـــورد آمـــالـى لديك نميـــر

وعـــذرا فـــإنى إن أطـلت فـــإنما قـصارای من بعـد البيـان قصـور

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك[1]:

وحقك ما استطعت بعـدك غمضةً من النوم حتى آذن النجم بالغروب

وعارضت مسرى الريح قلت لعلها تنم بريـا منك عـاطرة الهـبـوب

إلى أن بدا وجـه الصـبـاح كـأنه مـحـيـاك إذ تجلى بغـرته الخطوب

(١) نفح الطيب ج٦ ص ٨٠.

فقلت لقبى استشعر الأنس وابتهج فإنْ تبعد الأجسام لم تبعد القلوب

وسر فى ضمان الله حيث توجهت ركابك لا تخشى الحوادث أن تنوب

ثم قال: وقال - بعد إيراد جملة من نظمه فى النسيب وما يناسبه - يصف مصباحًا[1]:

لقد زادنى وجدًا وأغرى بى الجوى ذبال بأذيال الظلام قد التفا

تشير وراء الليل منه بنانة مخضبة والليل قد حجب الكفا

تلوح سنانًا حين لا تنفح الصبا وتبدو سوارًا حين تثنى له العطفا

قطعت بها ليلى يطارحنى الجوى فآونة يبدو وآونةً يخفى

إذا قلت لا يبدو أشال لسانه وإن قلت لا يخبو الضياء به كفا

إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى وأهدى نسيم الروض من طيبه عرفا

لك الله يا مصباح أشبهت مهجتى وقد شفها من لوعة الحب ما شفا

ثم قال وكتب له صدر رسالة[2]:

أزور بقلبى معهد الأنس والهوى وأنهب من أيدى النسيم رسائلا

ومهما سألت البرق يهفو من الحمى يبادر به دمعى مجيبًا وسائلا

فيا ليت شعرى والأمانى تعلل أيرعى لى الحى الكرام الوسائلا

وهل يجيرنى الأولى كما قد عهدتهم يوالون بالإحسان من جاء سائلا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٨.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٨.

ثم قال بعد أن ذكر عدة قطع:

وقال يصف الزرافة فى قصيدة مدح بها السلطان أبا سالم ملك المغرب - رحمه الله - وقد ورد عليه بها وفد الأحابش فى هدية من ملكهم، ونصها[1]:

لولا تألق بارق التذكار ... ما صاب واكف دمعى المدرار

لكنه مهما تعرض خافقًا ... قدحت يد الأشواق زند أوارى

عل المشوق إذا تذكر معهدًا ... أن يغرى الأجفان باستعبار

أمذكرى غرناطة حلت بها ... أيدى السحاب أزرة النوار

كيف التخلص للحديث ودونها ... عرض الفلاة وطافح زخار

هذا على أنَّ التغرب مركبى ... وتولج الفيح الفساح شعارى

فلكم أقمت غداة زمت عيسهم ... أبغى القرار ولات حين قرار

وطفقت أستقرى المنازل بعدهم ... يمحو البكاء مواقع الآثار

إنا بنى الآمال تخدعنا المنى ... فنخادع الآمال بالتسيار

نتجشم الأهوال فى طلب العلا ... ونروع سرب النوم بالأفكار

لا يحرز المجد الخطير سوى امرئ ... يمطى العزائم صهوة الأخطار

إِمَّا يفاخر بالعتاد ففخره ... بالمشرفية والقنا الخطار

مستبصر مرمى العواقب واصل ... فى حمله الإيراد بالإصدار

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٢.

فأشد ما قاد الجهول إلى الردى عَمَهُ البصائر لا عمى الأبصار
ولرب مربد الجوانح مزبدٍ سبح الهلال بلجه الزخار
فتقت كمائم جنحه عن أنجمٍ سفرت زواهرهن عن أزهار
مثلت على شاطى المجرة نرجسًا تصطف منه على خليج جارى
فكأنما بدر التمام بجنحه وجه الإمام بجحفل جرار
وكأنما خمس الثريا راحة ذرعت مسير الليل بالأشبار
أسرجت من عزمى مصابيحًا بها تهدى السراة لها من الأقطار
وارتاع من بازى الصباح غرابه لما أطل فطار كل مطار

[ومنها][1]:

وغريبةٍ قطعت إليك على الونى بيدًا تبيدها هموم السارى
تنسيه طيبته التى قد أمها والركب فيها ميت الأخبار
يقتادها من كل مشتمل الدجى وكأنما عيناه جذوة نار
تشدو بحمد المستعين حداتها يتعللون به على الأكوار
إن مسهم لفح الهجير أبلهم منه نسيم ثنائك المعطار
خاضوا بها الفلا فتخلصت منها خلوص البدر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلها وكفى بسعدك حاميًا لذمار
وأتتك يا ملك الزمان غريبة قيد النواظر نزهة الأبصار

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٥٣.

موشية الأعطاف رائعة الحلى ... رقمت بدائعها يد الأقدار

راق العيون أديمها فكأنه ... روض تفتح عن شتيت بهار

ما بين مبيض وأصفرٍ فاقعٍ ... سال اللجين به خلال نضار

يحكى حدائق نرجسٍ فى شاهقٍ ... تنساب فيه أراقم الأنهار

تحدو قوائم كالجذوع وفوقها ... جبل أشم بنوره متوارى

وسمت بجيد مثل جذع مائل ... سهل التعطف لين خوار

تستشرف الجدران منه ترائبًا ... فكأنما هو قائم بمنار

تاهت بكلكلها وأتلع جيدها ... ومشى بها الأعجاب مشى وقار

خرجوا لها الجم الغفير وكلهم ... متعجب من لطف صنع البارى

كل يقول لصحبه قوموا انظروا ... كيف الجبال تقاد بالأسيار

ألقت ببابك رحلها ولطالما ... ألقى الغريب به عصا التسيار

علمت ملوك الأرض أنك فخرها ... فتسابقت لرضاك فى مضمار

يتبوءون به وإن بعد المدى ... من جاهك الأعلى أعز جوار

فارفع لواء الفخر غير مدافعٍ ... واسحب ذيول العسكر الجرار

واهنأ بأعياد الفتوح مخولاً ... ما شئت من نصرٍ ومن أنصار

وإليكها من روض فكرى نفحة ... شف الثناء بها على الأزهار

فى فضل منطقها ورونق رسمها ... مستمتع الأسماع والأبصار

وتميل من أصغى لها فكأننى ... عاطيته منها كئوس عقار

وقال رحمه الله تعالى يخاطب كتاب الإنشاء بالمغرب وقد حضر هنالك ميلاد الرسول ﷺ، وأنشدت قصائدهم، واستنجز بعد ذلك وعدهم بتقييد نسخها بمقطوعات مرتجلة أجابوه عنها، منها:

أكتيبة الكتاب أيد جمعكم ... بعناية المولى الخليفة أحمد
لا تمطلوا دين الغريب فأننى ... منكم وإنَّ رغمت لذلك حسدى
زينتم حفل البيان بسحركم ... أَلِيَوْمِ زينةِ سحركم من موعد
فلتسمحوا لى بالقصائد عاجلا ... ولتبلغوا مما أؤمل مقصدى

وقال أيضًا:

أيا علية الكتاب دعوة منصفٍ ... عليكم بكم فى مقطع الحق يستعدى
سمحتم بنظم الدر فى لبة العلا ... فكم راق من سمط هناك ومن وعقد
فما ضركم أنْ تسمحوا ليس بكتابها ... فتستجزلوا شكرى وتستجيبوا حمدى

وقال أيضًا:

ما عذركم أنْ لم تجدوا بعدما ... ملكتم كف الخليفة أحمد
فلتبعثوا لى كل بكر فذةٍ ... تأتى بفخر خلالها وسط الندى

وكتب إليهم فى المعنى أيضًا وقد كان السلطان أبو العباس أعطاه قصيدة من نظمه تلك الليلة:

ظلالكم تندو وموردكم عذب ... وترضون أنَّ أضحى وبالملح لى شرب
وأنتم وما أنتم غمائم رحمةٍ ... تصوب وأحلام العفاة لها تصبو
أفيضوا علينا وأنظرونا بفضلكم ... لنقتبس نورًا لا يخيب ولا يخبو

ألفت الهـوى حتى أنست بجـوره فكل عذاب نالنى فى الهوى عذب
وقلت لجـسـمى إنه ثـوبك الضنى وقلـت لقـلبـى إنه إلـفك الحـب
وقالوا صـبا والشيب لاح صبـاحه فـقلت ببيض كـالصبـاح أنا صب
نهـبت عذارى الحى ليلة عـرضهـا وقـد جليت منها لمبـصرها شـهب
ولم أر منهـا غيـر رجع حـديثهـا فتجهل منها العين ما يعرف القلب
عـراب إذا اسـتنت بـشـأو بلاغـةٍ تقصر من دون اللحـاق لها العرب
وإنْ أسندت مـا بين نجـد وحاجـر تقول رواة الشـرق يا حبـذا الغرب
فمنعـة صدق للخـلافة قـد ضفت على من حواه من مـهابتـه حجب
وجـو صقـيل قد جلتـه يد الصبـا يسافـر طرف الطرف فيه فمـا يكبو
فلولا التى من دونها طاعـة الهوى لحقت بها حولى الأباريق والشرب
ولكن نهانى الشـيب أَنْ أقرب الهوى إذا لم يتـح ممن أحب لى القـرب
فـلا تمـطلوا دين المعلـل عن غنى فـجـانبكم سـهل ومنزلكم رحب
وإنَّ لم ترونى كُـفْـئَـهُنَّ ترفـعـا وصـدكم من دون خطبـهـا خطب
فمـولاى قد أهدى العمـيد عـقيلة يكالهـا من لفظـهـا اللؤلؤ الرطب
أدارت كـئوسـا من مـدام صبـابة كما امتزج الصـهباء والبارد العذب
فـوالله لولا مـوعـد يومـه غـد لواجهتكم منى على مطلبى العتب
أكـتـاب مولانـا الخليـفة أحـمـد وحسبكم الفخـر العميم به حسب
به اعـتزت الآداب وامـتـد باعهـا وطالت يداها واستخـف بها العجب

فلو لم يكن بالفضل تنفق سوقها لكان يقال التبر فى أرضه ترب

بقيتم به فى ظل جاهٍ وغبطةٍ تخب إلى لقيا نجيبكم النجب

وقال يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دلامة منهم، وقد أجابه رحمه الله تعالى عليه[1]:

على الطائر الميمون والطالع السعد أتتنى مع الصنع الجميل على وعد

وأحييت يا يحيى بها نفس مغرمٍ يجيل جياد الدمع فى ملعب السهد

نسيت وما أنسى وفائى وخلتى وأقفر ربع القلب إلاّ من الواجد

وما الطل فى ثغر من الزهر باسم بأذكى وأصفى من ثنائى ومن ودى

فأصدقتها من بحر فكرى جواهرا تنظم من در الدرارى فى عقد

وكنت أطيل القول لولا ضرورة دعتنى إلى الإيجاز فى سورة الحمد

***

وأنشد السلطان أبا العباس المذكور فى غراب من إنشائه[2]:

أإنسان عين الدهر جفنك قد غدا يحفك منه طائر اليمن والسعد

إذا ما هفا فوق الرءوس شراعه أراك جناحا مُدَّ للجزر والمد

وأنشده فيه أيضًا[3]:

لك الخير شأن الجفن يحرس عينه وهذا بعين الله يحرس دائمًا

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٩.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٣٩.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٠.

تبيت له خمس الثريا معيذة تقلده زهر النجوم تمائمًا

فيا جفن لا تنفعك فى الحفظ دائما وإنْ كنت فى لج من البحر عائما

انتهى ما انتقيت من هذا التأليف الملوكى مع أنى تركت أكثره.

قلت: وإنّما أطلت فى كلام الرئيس ابن زمرك رحمه الله تعالى لوجوه:

أولها: أنَّ الذى ألفت الكتاب من أجله راغب فى ذلك.

الثانى: ولوع كثير من الناس بكلامه، حتى قال شيخنا سيدى الإمام العلامة المؤلف الكبير أبو العباس الشهير ببابا[1] السودانى رحمه الله، بعد أن ذكر فى التعريف به نحو عشرين سطرًا: إنى لم أقف فى أمره على غير هذا، ولم أقف على وفاته. وبالجملة فالذى تكلم خواص الناس فيه من أمره هو ما فى الإحاطة والكتيبة: وأما الجم الغفير فهم بمعزل عما فى الكتابين فضلا عن غيره.

الوجه الثالث: أنَّ ما نقلته من ذلك كان عندى مقيدا فى عدة أوراق، فخفت عليه الدروس، فلذا جمعت بعضه هنا.

الرابع: ما اشتمل عليه من أوصاف الجهاد والخيل وغير ذلك من الغرائب، وليس الخبر كالعيان.

الخامس: ما فى بعضه من أمداح المصطفى ﷺ، وهو المقصود بالذات وغيره تبع، وهو فى مسك ختام هذه الأوجه الخمس، وليس يحتاج إلى دليل نول القمر والشمس.

وقد عن لى أنْ أذكر جملة من موشحاته لغرابتها، ولأن جل ما وقفت عليه منها ينخر فى سلك المعرب، إذ أكثره من مخلع البسيط.

(١) انظر فى ذلك: نيل الابتهاج، ج٢ ص ١٤٦.

فمن ذلك قوله تشوقا إلى غرناطة - أعادها الله - ومادحًا الغنى بالله[1]:

بالله يا قامة القضيب ومخجل الشمس والقمر
من ملك الحسن فى القلوب وأيد اللحظ بالحور
من لم يكن طبعه رقيقا لم يدر ما لذة الصبا
فرب حر غدا رقيقا تملكه نفحة الصبا
نشوان لم يشرب الرحيقا لكن إلى الحسن قد صبا
فعذب القلب بالوجيب ونعم العين بالنظر
وبات والدمع فى صبيب يقدح من قلبه الشرر
أواه من قلبى المعنى يهفو إذا هبت الرياح
لو كان للصب ما تمنى لطار شوقا بلا جناح
وبلبل الدوح إنْ تغنى أسهر ليلى إلى الصباح
عساك إنْ زرت يا طبيبى بالطيف فى رقدة السحر
أنَّ تجعل النوم من نصبى والعين تحمى من السهر
كم شادن قاد لى الحقوفا بمربع القلب قد سكن
يسل من لحظه سيوفا فالقلب بالورع ما سكن
خلقت من عادتى ألوفا أحن للإلف والسكن

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٠.

غـــرناطة منزل الحـــبـــيب وقـــربهـــا الســـؤل والوطر

تبـــهـــر بالمنـظر العـجـــيب فـــلا عـــــدا ربعـــا المطر

عـــروسـة تاجـــهـا الـسـبـــيكهْ وزهـــرهـا الحـــلـــى والحـلـــل

لم تـرض من عـــزهـا شـــريـكهْ بحـــســنهـــا يضـــرب المـثل

أيـــدهـا الله مـــن مـــلـــيـكـــهْ تملـكهـــــا أشـــــرف الـدول

بدولـة المرتجـى المهـــــيب الملك الـطاهـر الأغـــــر

تخـال من بردهـا القـشـيب فـى حـلـة النـور والـزهـر

كـــرسـيـــهـــا جنـة العـــريف مـــرآتهـــا صـفـــحـــة الغـــدير

وجـــــوهر الـطل فـى شنـوف تحكـمـــه صنعـــة القـــــدير

والأنس فـــيـــهـــا علـى صنوف فـــــــمـن هديـل ومـن هديـر

كم خرق الزهر من جـيوب وكلـل القـــضب بـالدرر

فالغصن كـالكاعب اللعوب والطيـــر تشـــدو بلا وتر

ولائم النـصـــر فى احـــتـــفـــال وفـــرح دين الهـــدى جـــديد

سلطـانهـــا مـــعـــمل العـــوالى مـــحـمّـــد الظافـر الســعـيـد

ومـــخـجل البـــدر فى الكمـــال سلطـانهـــا المجـتـــبى الفـــريد

أصـفح مـــولى عن الذنوب أكـــرم عـــاف إذا قـــدر

وشـمس هدى بـلا مـغـيب وبحـــر جـودٍ بلا حـــسـر

مـــولاى يـا عـــاقـــد البـنود تظـلل الأوجـــه الـصـــبـــاح
أوحـــشت يا نخـبـــة الوجـــود غـــرناطـة هالة الـســـمـــاح
ســـافـرت بالـيـمن والـسـعـــود وعـــدت بالفـــتح والنجـــاح
يا ملهـم القلب للغـيـوب ومطعـم النصـــر والـظفـــر
أسـمـعك الله عن قـريب: «على السـلامـا من السفـر»

وقال أيضًا من الموشحات الفائقة، فى مثل أغراض هذه السابقة، وأشار إلى محاسن من وصف «الدشار»[1]:

نســـيـم غـــرناطة علـيل لكـنه يـبـــــرئ العـلـيـل
وروضـــهـــا زاهر بلـيل ورشـــفـــه ينـقع الغلـيل
ســـقى بنـجـــد ربا المصـلى مـــبـاكـــرًا روضـهـا الغـمـام
فـجـفنه كـلمـا اسـتـهـلا تبـــسم الـزهر فـى الكمـــام
والروض بـالحـسـن قـد تجـلى وجـرد الـنهـر عن حـســام
ودوحـــهـــا ظـله ظلـيل يحـسن فى ربعـه المقـيل
والبـرق والجـو مـستطيل يلعب بـالصـارم الصـقـيل
عـقـيلة تاجـهـا السـبـيكهْ تـظـل بـالمـرقـب المـنـيـف
كـــأنهـــا فـــوقـــه مليكه كـرسـيـهـا جنـة العـريف
تطلع مـن عـسـجـد سـبـيكهْ شـمـوسـهـا كلمـا تـطيف

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٢.

أبدعك الخالق الجليل يا منظرا كله جميل

قلبى إلى حسنه يميل وقبلنا قد صبا جميل

وزاد للحسن فيك حسنا محمّد الحمد والسماح

جدد للفخر فيك مغنى فى طالع اليمن والنجاح

تدعى رشادا وفيك معنى يخصك الفأل بافتتاح

فالنصر والسعد لا يزول لأنه ثابت أصيل

سعد وأنصره قبيل آباؤه عترة الرسول

أبدى به حكمة القدير وتوج الروض بالقباب

ودرع الزهر بالغدير وزين النهر بالحباب

فمن هديل ومن هدير ما أولع الحسن بالشباب

هبت على روضها القبول وطرفها بالسرى كليل

فلم يزل بينها يجول حتى تبدت له حجول

للزهر فى عطفها رقوم تلوح للعين كالنجوم

وللندى بينها رسوم عقد الندى فوقه نظيم

وكل واد بها يهيم ولم يزل حولها يحوم

شَنِّيلُها مدّ منها نيل والشين ألف لمستنيل

وعين واد تسيل من فوق خد له أسيل

كم من ظلال به ترف تضفو لها فوقه ستور

ومن زجاج به يشف ما بين نور وبين نور
ومن شموس بها تصف تديرها بيننا البدور
مزاجها العذب سلسبيل يَاهَلْ إلى رشفها سبيل
وكيف والشيب لى عذول وصبغه صفرة الأصيل
يا سرحة فى الحمى ظليلهْ كم نلت فى ظلك المنى
روضك الله من خميلهْ يجنى بها أطيب الجنى
وبرقها صادق المخيلهْ ما زال بالغيث محسنا
أنجز لى وعدك القبول فلم أقل مثل من يقول
«يا سرحة الحى يا مطول شرح الذى بيننا يطول»

ومن ذلك ما كتب به للغنى بالله[1]:

أبلغ لغرناطة سلامى وصف لها عهدى السليم
فلو رعى طيفها ذمامى ما بت فى ليلة السليم
كم بت فيها على اقتراح أعل من خمرة الرضاب
أدير منها كئوس راح قد زانت الثغر بالحباب
أختال كالمهر فى الجماح نشوان فى روضة الشباب
أضحكك الزهر فى الكمام مباهيا روضه الوسيم
وأفضح الغصن فى القوام إن هب من جوها نسيم

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٤.

بينا أنا والشباب ضافى وظله فوقنا مديد
ومورد الأنس فيه صافى وبرده رائق جديد
إذ لاح فى الفود غير خافى صبح به نبه الوليد
أيقظ من كان ذا منام لما انجلى ليله البهيم
وأرسل الدمع كالغمام فى كل واد به أهيم
يا جيرة عهدهم كريم وفعلهم كله جميل
لا تعذلوا الصب إذ يهيم فقبله قد صبا جميل
القرب من ربعكم نعيم وبعدكم خطبه جليل
كم من رياض به وسام يزهى بها الرائد المسيم
غديرها أزرق الجمام ونبتها كله جميم
أعندكم أننى بفاس أكابد الشوق والحنين
أذكر أهلى بها وناسى فاليوم فى الطول كالسنين
الله حسبى فكم أقاسى من وحشة الصحب والبنين
مطارحا ساجع الحمام شوقا إلى الإلف والحنين
والدمع قد لج فى انسجام وقد وهى عقده النظيم
يا ساكنى جنة العريف أسكنتم جنة الخلود
كم ثم من منظر شريف قد حف باليمن والسعود
ورب طود به منيف أدواحة الخصر كالبنود

والنهر قد سل كالحسام ولراحة الشرب مستديم
والزهر قد راق بابتسام مقبلا راحة النديم
بلغ عبيد المقام صحبى لا زلتم الدهر فى هنا
لقاكم بغية المحب وقربكم غاية المنى
فعندكم قد تركت قلبى فجدد الله عهدنا
ودارك الشمل بانتظام من مرتجى فضله العميم
فى ظل سلطاننا الإمام الطاهر الظاهر الحليم
مؤمن العدوتين مما يخاف من سطوة العدا
وفارج الكرب إنْ ألما ومذهب الخطب والردى
قد راق حسنا وفاق حلما وما عدا غير ما بدا
مولاى يا نخبة الأنام وحائز الفخر فى القديم
كم أرقب البدر فى التمام شوقا إلى وجهك الكريم

ومن موشحاته فى غير المخلع، موطئا على موشحة ابن سهل التى أولها:

«ليل الهوى يقظان»[1]

قوله:

نواسم البستان تنثر سلك الزهر
والطل فى الأغصان ينظمه بالجوهر

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٦.

وراية الإصباح أضاء منها المشرق

تنشرها الأرواح فلا تزال تخفق

والزهر زهر فاح لها عيون ترمق

فأيقظ الندمان تبصر ما لم يبصر

جواهر الشهبان قد عرضت للمشترى

قدحت لى زندا يأيها ذا البارق

أذكرتنى عهدا إذ الشباب رائق

فالشوق لا يهدا ولا الفؤاد الخافق

وكيف بالسلوان والقلب رهن الفكر

وسحب الهجران تحجب وجه القمر

لولا شموس الكاس نديرها بين البدور

وعرج الإناس منا على ربع الصدور

لكن لها وسواس يغرى بربات الخدود

كم واله هيمان بصبح وجه مسفر

ضياؤه قد بان من تحت ليل مقمر

يا مطلع الأنوار كم فيك من مرأى جميل

ونزهة الأبصار ما ضر لو تشفى الغليل

يا روضة الأزهار وعرفها يبرى العليل

قـضـيـبك الفـينان يسـقى بـدمع همـر

فـلا عج الأشـجـان فـيض الدمـوع يجـرى

هل فـى الهـوى نـاصـر أو هل يـجـار الـهـائم

لـو كـان لـى زائـر طيـف الخـيـال الحـائم

مـا بت بـالسـاهـر ودمع عـينـى سـاجم

والحب ذو عـدوان يجـهد فى ظلم البـرى

وصـارم الأجـفـان مـؤيد بـالحـور

رحـمـاك فـى صب أذكـرته عـهـد الصـبـا

بـواعـث الحـب قـادت إلـيـه الوصـبـا

لـم تـهـف بـالـقـلـب ريح الصـبـا إلاّ صـبـا

بـلـيـلـة الأردان قـد ضـمـخت بالعنبـر

يشـيـر غـصن البـان منهـا بفـضل المـئـزر

طيـبـهـا حـمـد فـخـر الملـوك المجـتـبى

مـن يـرجـح الـطـود من حلـمـه إذا احـتـبى

قـد جـرد السـعـد منه حـسـامـا مـذهبـا

فـالبـأس والإحـسـان والغـوث للمـستنصـر

تحـمـله الركـبـان تحـيـة للمـنبـر

عـصـابـة الكتـاب حق لـهـا الفـوز العظـيم

تخـــــتـــــال فـى أثواب ألبـسـتـهـا الـظول الجـسـيم
فـحـسـبـهـا الإنطاب فى الحـمـد والشكر العـمـيم
خليـفـــة الرحـــمن لازالت زاهيـة المـظهـر
يا مـــورد الـظمـــآن ورأس مـــال المعـســـر
خـــــدها بـلا دعـــــوى تزهى على الـروض الوسـيم
جـاءت كـــمـا تـهـوى أرق مـن لدن الـنسـيـــم
قـــــد طارحـت شكـوى من قـال فـى الليل البـهـيم
«ليل الـهـوى يقـظان والحب ترب الـسـهـر
والصـبـر لى خـوان والنوم من عـينى برى»

ومن مخلع البسيط فى الصبوحيات قوله سامحه الله تعالى ورحمه ورضى عنه:

ريحـانة الفـجـر قـد أطلت خـضـراء بالـزهر تزهر[1]
وراية الـصـبح إذ أظـلت فى مـرقب الشـرق تنـشـر
فـالشـهب من غـارة الصـبـاح ترعـد خـسـوفـا وتخـفق
وأدهم الـليل فـى جـمـاح أعـنـة الـبـرق يُـطـلـق
والأفق فـى ملـتـقى الـرياح بأدمـع الغـيـث يشـرق

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٤٨.

والسحب بالجوهر استهلت فالبرق سيف مجوهر

صفاحة المذهبات حلت فى راحة الجو تشهر

كم للصبا ثم من مقيل بطينه الزهر يشهد

والنهر كالصارم الصقيل فى حلية النور يغمد

ورب قال به وقيل للطير فى حين تنشد

فألسن الورق قد أملت مدائحا عنه تشكر

ونسمة الصبح حين كلت فى سندس الروض تعثر

والكأس فى راحة النديم يجلو بها غيهب الهموم

أقبست النار فى القديم من قبل أن تخلق الكروم

والغصن فى ملعب النسيم للزهر فى عطفه رقوم

فلبة القضب قد تحلت والطل فى الحلى جوهر

وبهجة الكون قد تجلت والروض بالحسن يبهر

يذكرنى وجنة الحبيب والآس فى صفحة العذار

وشارب الشارب العجيب بين أقاحٍ وجلنار

يدير من ثغره الشنيب سلافة دونها العقار

حلت لأهل الهوى وجلت بالذكر والوهم تسكر

كم من نفوس بها تسلت فما لها الدهر منكر

يا غصن بان يميل زهوا ريان فى روضة الشباب

لو كنت تصغى لرفع الشكوى أطلت من قصة العتاب
ومن لمثلى ببث نجوى للبدر فى رفرف السحاب
عزائم الصبر فيك حلت وعقدة الصبر تذخر
قد أكثرت منك ما استقلت وليت لو كنت تشعر
كم ليلة بتها وبتا ضدين فى سهد والرقاد
أسامر النجم فيك حتى علمت أجفانه السهاد
أراقب بدر الدجى وأنتا قد لحت فى هالة الفؤاد
نفسى وليت ما تولت دعها على الشوق تصبر
لو سمتها الهجر ما تولت ولم تكن عنك تنفر
علمها الصبر فى الحروب سلطاننا عاقد البنود
معفر الصيد للجنوب أعز من حف بالجنود
نصرت بالرعب فى القلوب والبيض لم تبرح الغمود
عناية الله فيه حلت بسعده الدين ينصر
والخلق فى عصره تملت غنائمًا ليس تحصر
مولاى يا نكته الزمان دار بما ترتضى الفلك
جللت باليمن والأمان كل مليك وما ملك
لم بدر وصفى ولا عيانى أملك أنت أم ملك
جنودك الغلب حيث حلت بالنصر والفتح تخفر

وعـــادة الله فـــيـك دلت أنك بـالكفـــــر تظـفـــر

يـا آية الله فـى الـكـمـــــــال ومـخـــجل البـــدر فى التـــمـام

قـــدمـت بالعـــز والجـــلال والدهـر فى ثغـــره ابتـــســـام

يخـــتـــال فى حلة الجـــمـــال والبـدء قـــد عـاد فى اخـتـــتـام

ريحـانة الفـجـر قـد أطلت خـــضـــراء بالزهر تـزهر

وراية الـصـــبح إذ أظـلـت فى مـــرقب الشـرق تنـشـر

وقال رحمه الله تعالى وسامحه[1]:

قـد طـلعت راية الصـبـاح وآذن اللـيل بـالرحـــيل

فـبـاكـر الروض باصطبـاح واشـــرب على زهره البـليل

فـالـورق هبت من السَّـبَـاتِ[2] لمـنـبـــــر الـدوح تخـطـب

تســـجع مـــفـــتـنة اللغـــات كل عـن الشـــوق يـعـــرب

والغـــصن بعـــد الذهاب يـأتى لأكـــؤس الطـل يشـــرب

وأدمع السـحب فى انسيـاح فى كل روض لهـا سـبـيل

والجـو مـستـبـشـر النواحى يلعب بـالصـارم الصـقـيل

قم فـــاغـتنم بهـجـة النـفـوس مـــــا بـين نـورٍ وبـين نـورٍ

وشـــفع الصـــبح بالشـــمـــوس تـديرهـا بـيـننـا الـبـــــدور

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥١.

(٢) تحرف فى الأصل إلى: «السِّنَات» وصوابه من نفح الطيب.

ونبـــه الـشـــرب للـكئـــوس تمزج مـن ريقـــه الـثـــغـــور

مـا أجـمل الراح فـوق راح صفراء كالشمس فى الأصيل

تغـادر الصـــدر ذا انشـراح للأنس فى طيـفـه مـقـيل

ولا تذر خـــمـــرة الجـــفـــون فكـســـرها فى الهـــوى جـنون

ولتـــخش من اســـهم العـيـــون فـــــإنـهـــــا رائـد المنـون

عـــرضت منهـــا إلى الفـــتـــون وكل خـطب لـهـــا يهـــون

أهـيم بـالغـــــادة الـرادح والجـسم من حـبـهـا عليل

لو بت منهـــا على اقـتـراح نقـعت من ريقـــهـا الغليل

أواعـــــــد الـطيـف لـلـمنـام ومـن لـعـــــــيـنـى بالمـنـام

أســـهـــر فـى ليله الـتـــمـــام وأنت يـا بدر فـى التـــمـــام

وألـثم الـزهر فـى الـكمـــــام عليـــه من ثغـــرك ابتـــسـام

سـفرت عن مـبسم الأقـاح وريقك العـذب سـلسـبـيل

قل لـى يا ربـة الوشـــاح هل لى إلى وصل من سبيل

يا كـعـبـة الحـسن زدت حـسنا وللـهـــوى حـــولك المـطاف

وغـــــــصـن بـانٍ إذا تثـنـى لو حـــــان من زهـرك القـطاف

ألا انـعـطـاف عـلـــى المـعـنـى فـــالغـــصن يـزهو بالانعـطاف

أصـبـحت تزهو على الملاح بذلـك المنظر الجـــمـــيل

ووجهك الشمس فى اتضاح لو أنـهـــــا لم تـكن تمـيل

مـــــــا الـزهـر إلاّ بـنظـم در تحـســد فى حـسنه العـقـود
لـلملـك الظـاهـر الأغـــــر أكـــرم من حف بالـسـعـــود
مـحـمّـد الحـمـد وابن نـصـر وباسـط العـــدل فى الوجـــود
مساجل السحب فى السماح بالغـيث من رفـده الجليل
ومـخجل البـدر فى الليـاح بغـرة مـالهـا مـثـيل
يا مـــشـــرب الحب فى الـقلوب وواهب الصـــفح للصـــفـــاح
نصـــرت بالـرعب فى الحـــروب والرعب أجـــدى من الســـلاح
قـــد لحت من عـالـم الغـيـــوب لم تـعـــدم الفـــوز والنجـــاح
مـراكش نـهـبـة افـتـــتـاح والصنع فى فـتـحهـا جليل
بشـــراك بالفـتح والنـجـاح والشكر مـن ذلك القـبـيل

ومن غير المخلع قوله فى الهناء بالشفاء من مرض[1]:

فى كئـوس الثغر من خـمر اللعس راحـــــــة الأرواح
وتغـــشى الروض مـسكـى النفس عـــــاطـر الأرواح
قـد كسـا الأدواح وشـيـا مذهبـا يبـــهـر الشـــمـســا
عـسـجـد قـد حل من فـوق الربا يبـــهج النفـــسـا
فـاتخـــذ للهـو فـيـه مـركـبـا تحـلق الأنـســـــا
منبـر الـغـصن عليـه قـــد جلس ســـــاجـع الأدواح

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥٣.

حلل السندس خضرا قد لبس عطفه المرتاح

قم ترى هذا الأصيل شاحبا حسنه قد راق

ولأذيال الغصون ساحبا فى حلى الأوراق

وندیمى قال لى مخاطبا قول ذى إشفاق

عادة الشمس بغرب تخلس هات الشمس الراح

إنْ أرانا الجو وجها قد عبس أوقد المصباح

ووجوه الشرب تغنى عن شموس كلما تجلى

بلحاظ أسكرتنا عن كئوس خمرها أحلى

مظهرات من خبايا فى النفوس سورا تتلى

ما زمان الأنس إلا مختلس فاغتنم يا صاح

وعيون الشهب تذكى عن حرس تخصم النصاح

ما ترى ثغر الوميض باسما يظهر البشرا

وثناء الروض هب ناسما عاطرًا نشرا

بث من أزهاره دراهما قائلاً بُشرى

ركب المولى مع الظهر الفرس وشفى وارتاح

بجنود الله دأبًا يحترس إن غدا أو راح

وجب الشكر علينا والهنا بعضنا بعضًا

فزمان السعد وضاح السنى وجهه الأرضى

أثمـــرت فـــيـه الـعـوالى بـالمنى ثمـــــرًا غـــضـــا
يجـتنى الإسلام منهـا ما اغـترس سـيـــفـه الســفـاح
فى ضـمـيـر النقع منها قـد هجس شـــهـبٌ تلـتـــاح
يا إمـــامًـا بـالحُســام المُنتـــضى نصـــــر الحـــقـــا
ثغـرك الوضـاح مـهمـا أومـضـا أخـــجـل البـــرقـــا
وديون الســعـــد منه تقـــتـــضى توسع الحـــــقـــا
لك وجـه من صـبـاح مـقـتـبس بشـــــره وضـــــاح
وجـمـيـل الصـفح منه ملـتـمس منـعم صـــــفـــاح
هاكـــهـا تمـزج لطفـــا بالنســيم كلـمـــــا هبـــــا
قـد أتت بالبـرء والصنع الجـسـيم تـــشـــكـو الـــربَّـا
أخجلت من قال فى الـصبح الوسيم مـــغـــرمـا صـــبـا
غـــرد الطـيـــر فنبـــه مـن نعس يـا مـــــــدير الـراح
وترى الفـــجـر عن ثـوب الغلس وانجلى الإصـــبـاح

وقال فى الهناء بالشفاء أيضًا، من مخلع البسيط[1]:

قـــــد أنعم الله بـالشـــفـــاء واســـتكملت راحـــة الإمـــام
فـلتـنطـق الطـيـــــر بالـهنـاء وليـضـحـك الزهر فى الكمـام
وجـــوده بهـــجـــة الوجـــود وبـرؤه راحـــــة النـفـــوس

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥٥.

قد لاح فى مرقب السعود ... واستبشرت أوجه الشموس

فادوح يومى إلى السجود ... أكمامه حطت الرءوس

والزهر فى روضة السماء ... كالزهر قد راق بابتسام

والصبح مُستشرف اللواء ... والبدر مستقبل التمام

محاسن الكون قد تجلت ... جمالها العقل يبهر

عرائس بالبها تحلت ... والطل فى الحلى جوهر

وألسن الورق قد أملت ... مدائحًا عنه تشكر

تستوقف الخلق بالغناء ... كأنها تحسن الكلام

تطنب لله فى الثناء ... تقول: سلمت يا سلام

كم من ثغور لها ثغور ... تبسم إذ جاءها البشير

ومن خدور بها بدور ... يشير منها له المشير

تقول إذ حفها السرور ... تبارك المنعم القدير

قد أنعم الله بالبقاء ... فى ظل مولى به اعتصام

قد صادف النجح فى الدواء ... فالداء عنا له انفصام

يهنيك مولاى بل يهنا ... ببرئك الدين والهدى

فالغرب والشرب منك يعنى ... بمذهب الخطب والردى

والله لولاك ما تهنا ... من فيه من سطوة الردى

يا مورد الأنفس الظماء ... قد كان يشتفها الأوام

وقـــرة العـــين بـالبـــهـــاء ... رددت لـلأعـــــــين المـنـام

لو أبـذل الروح فى البـــشـــاره ... بـذلـــت بـعـض الـذى مـــلـك

فـــأنت يا نفـس مـســـتـــعـــاره ... مـــولاك بالفـــضل جـــملك

لم أرد إذ أسـطر العـــبـــاره ... أمـــلـــك هـــو أم مـــلـــك

لا زلـت مـــــولاى فـى هنـاء ... تـبلـغ القـــــصـــــد والمـرام

ودمت لـلملـك فى اعـــتـــلاء ... تســـحـب أذياله الـغـــمـــام

وقال أيضًا يصف مالقة ويمدح الغنى بالله[1]:

عـليـك يـا ريـة الســـــــلام ... ولا عـــــــــدا ربعـك المـطـر

مـــذ حل فى قـــصـــرك الإمـــام ... فَـــقُـــرْبُكِ الســـؤل والـوطر

كم فـــيك لـلمـــغـــرم المشـــوق ... من مـنظر يـبـــهج النـفـــوس

والـدوح فـى روضـــك الأنـيـق ... للـشكـر قـــــد حطـت الرءوس

والجـــو من وجـــهـك الشـــريق ... تحـســـده أوجـــه الشـــمـــوس

وأعـــــــــين الـزهر لا تـنـام ... تستـــعـذب السـهـد والـسـهـر

تنفـث من تحـتـهـــا الغـــمـــام ... ترقـــــيـك من أعـــــين الـزهر

عـــروســـة أنت يا عـــقـــيـله ... تجلـى على مظـهـــر الكمـــال

مـدت لـك الكف مـســـتـقـــيله ... تمسح أعطـافك الشـــمـــال

والبـــحـــر مـــرآتك الصـــقـــيله ... تشـف عن ذلـك الجـــمـــال

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥٧.

والحلى زهر له انتظام ... يكال القضب بالدرر

قد راق من ثغره ابتسام ... والورد فى خدها خفر

إنْ قيل من بعلها المفدى ... ومن له وصلها مباح

أقول أسنى الملوك رفدًا ... مخلد الفخر بالصفاح

محمّد الحمد حين يهدى ... ثناؤه عاطر الرياح

تخبر عن طيبه الكمام ... والخبر يغنى عن الخبر

فالسعد والرعب والحسام ... والنصر آياته الكبر

ذو غرة تحسر البدورا ... وطلعته تخجل الصباح

كم راية سامها ظهورا ... تظلل الأوجه الصباح

وكم ظلام جلاه نورا ... أظفر بالفوز والنجاح

الطاهر الظاهر الهمام ... أعز من صال وافتخر

لسيفه فى العدا احتكام ... جرى به سابق القدر

يا مرسل الخيل فى الغوار ... لو تطلب البرق تلحق

لك الجوارى إذا تجارى ... سوابق الشهب تسبق

تستن فى لجة البحار ... فالكفر منهن يفرق

فالدين وليقصر الكلام ... بسيفك اعتز وانتصر

كذاك أسلافك الكرام ... هم نصروا سيد البشر

وقال من غير هذا البحر فى المحدث[1] بمالقة[2]:

قـــد نظم الشـــمل أتم انتـظام ... واغـتنم الأحـبـاب قرب الحـبـيب
واستضـحك الروض ثغور الكمام ... عن مـبـسم الزهر الـبـرود الشنيب
وعـــمـــم النـور رءوس الربـا ... وجلـل النـور صـــدور البـطاح
وصـافح القـضب نسـيم الصـبـا ... فـالزهـر يرنو عن عـيـون وقـاح
وعـاد للروض زمـان الصـبـا ... فـقـلد النهـر مكان الـوشـاح
وأطلع القـصـر بدور التـمـام ... فى طالع الفـتح القـريب الغـريب
خـدورها قـامت مـقـام الغـمـام ... لا أشـتكـى من بعـدها بالمـغـيب
أصبـحت يا رية مجلى الشـموس ... جـمـالك العـيـن به تبـهـر
والبِشْـر يسرى فى جمـيع النفوس ... وراية الأنـس بهـا تنـشـر
والـدوح للـشـكـر تحط الـرءوس ... وأنجـم الزهـر بـهـا تزهـر
وراجع النـهـر غناء الحـمـام ... وقـد شـدت تسـجع الخـطيب
بمنبـر الغـصن الرشـيـق القـوام ... لما انثـنى يهـفـو بقـد رطيب
يا حـبـذا مـبناك فخـر القـصـور ... بدوحـة طالـت بروج السـمـا
مـا مـثله فى سـالفات العـصـور ... ولا الذى شـاد ابن مـاء السـمـا
كم فـيـه من مـرأى بهـيج ونور ... فى مـرتـقى الجـو به قـد سـمـا

(١) المحدَث: اسم مبنى عجيب كان بمالقة.
(٢) نفح الطيب ج٧ ص ٢٥٨.

خليـــفـــة الله ونـعم الإمـــام أتحـفك الدهر بصنـع عـجـيب
يهنيك شـمل قـد غدا فـى التئـام ممهـد فـى ظل عـيش خـصـيب
نواسم الـوادى بِمِـسْكٍ تـفـوح ونفـــحـــة الند بـه تعـــبق
وبهـجـة السكان فـيـه تلوح وجـــوه من نورهـم يشـــرق
وروضـــه بالســـر منه تبـــوح بـلابل عـن وجـــده تـنطـق
لو أنَّ مـن يفـــهـم عنا الـكلام فـــهى تـهنـيك هـناء الأديـب
ونهـره قـد سل منه الحـســام يـلحـظه الـنـرجس لحـظ المريـب
فـأجـمل الأيام عـصـر الشـبـاب وأجـمـل الأجـمل يوم اللـقـا
يا درة القـصـر وشـمس القـبـاب وهازم الأحـــزاب فى المـلتـــقى
بشـــرك الرب بحـــسـن المآب مـتـــعك الله بطـول البـقـا
ولا يزال القـصـر قـصـر السـلام يخـتال فى برد الشـبـاب القشـيب
يتلو عـليك الدهر فى كل عـام: «نصـر من الله وفـتح قـريب»

وقال - رحمه الله - من المخلع فى الشفاء[1]:

فى طالـع اليـمن والـسـعـود قـد كـملت راحـة الإمـامْ
فـأشـرق النور فى الـوجـود وابتـسم الزهـر فى الكـمـام
قـد طلـعت راية الـنجـاح وانهـزم الـبـأس والعـنا
وقـال حـى على الـفـلاح مـؤذن الفـوز بـالمنـى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦٠.

فالدهر يأتى بالاقتراح ... مستقبلا أوجه الهنا

تخفق منشورة البنود ... والسعد يقدم من أمام

والأنس مستجمع الوفود ... واللطف مستعذب الجمام

وأكؤس الطل مترعات ... بأنمل السوسن الندى

والطير مُفْتَنَّةُ اللغات ... تشدو بأصوات معبد

والغصن يذهب ثم يَأْتِى ... بالسندس الغض مرتدى

والدوح يومى إلى السجود ... شكرا لذى الأنعم الجسام

والريح خافقة البنود ... تبارك الروض بالغمام

مظاهر للجمال تجلى ... قد هز أعطافها السرور

وباهر الحسن قد تجلى ... ما بين نور وبين نور

قد هنأت بالشفاء مولى ... بعصره تفخر العصور

ما بين باس وبين جود ... قد مهد الأمن للأنام

فالدين ذو أعين رقود ... وكان لا يطعم المنام

والكأس فى راحة السقاة ... تروح طورا وتغتدى

يهديكها رائق السمات ... ما بين برق وفرقد

والشمس تذهب للبيات ... قد لبست ثوب عسجد

والزهر فى اليانع المجرد ... يقابل الشرب بابتسام

والروض من حلبة الغمود ... قد جرد النهر عن الحسام

مـــــولاى يا أشـــــرف المـلوك وعـــصـمـــة الخلق أجـــمـعـــين

أهديـك من جـــــوهـر السـلوك يقـــذفـــه بحـــرك المـعـــين

جـعـلت تنظـيـــمـــه سـلوكى وأنت لـى المنـجـــد المـعـــين

تحـــيـــة الواحـــد المجـيـــد ورحـــمـــة الله والســـلام

عـــلـــيـــك مـــن راحـــم ودود يا مـــخـجل البـــدر فى التـــمـام

وقال رحمه الله تعالى من الرمل المجزوء[1]:

وجـــــه هذا اليـــــوم باسم وشـــــــــذا الأزهـار نـاسـم

هاتهـــا صـــاح كـــئـــوســـا جـــــالبـــــات للســـــرور

وارتقب مـنهـــا شـــمـــوســـا طـالـعـــــــات فـى بـدور

مـــا نرى الروض عـــروســـا فـــى حـــلـــى نـــور ونـــور

وأتـــت رســـل الـــنـــواســـم تجـــــــتـلى هـذى المـواسـم

قـــد أهلت بـالبـــشـــائر أضـــــحكت ثـغـــــر الأزاهر

ســنـحـــت فـى يـمـن طـائـر ونـظمـن كـــــالجـــــواهـر

فـــانـشـــروها فـى العـــشـــائر إن هـــذا الـصـــنـــع بـاهـــر

وأشـــيـــعـــوا فـى العـــوالم الـغـنـى بـالله ســـــــالـم

أى نـور يـتـــــــوقـــــد أى بـدر يـتـــــــلالا

أى فـــــخـــــر يتـــــخـلد أى غـــــيث يـتـــــوالـى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦١.

إنّمـــا المولى مـــحـــمّـــد رحـــمـــة الله تـعـــالى
كـفـــه البـــحـــر المقـــاسم وبـهـــا حج المـبـــاسم
خـــيـــر أمـــلاك الزمـــان من بـنى ســـعـــد ونصـــر
مـــا تـرى أن الشـــوانـى فى صـــعـــيـد البـــر تجـرى
قـــد أطارتـهـا الـتـــهـــانى دون بـحـــرى وبـحـــر
مـــذ رأت بـحـــر النعـــائم كلـهـــا جـــار وعـــام
فـــهنيـــئـــا بالـشـــفـــاء يـا أمـــيـــر المـؤمـنيـن
ولـــنـــا حُـــقَّ الـــهـنـــاء وجـــمـــيع المسلمـــين
إن جـــهـــرنـا بالـدعـــاء يـنـطـق الدهـر أمـــيـــن
دمت مـــحـــروس المـكارم بظـبى الـبـــيض الـصـــوارم

وقال يهنئ السلطان مـوسى بن السلطان أبى عنان وقد وجـه إليه الغنى بالله أمه وعياله عند تملكه المغرب من قبله:

قـــد نظم الشـــمل أتم انتـظام ولاحت الأقـمار بعـد المغـيب[1]
وأضـــحك الروض ثغـــور الكرام عن مـبـسم الزهر البـرود الشنيب
وعـاود الغـــصن زمـان الصـــبـا وأشـرب الأنس جـمـيع النفـوس
وعـــــمـــم النـور رءوس الربـا وجلل الـنور وجـه الـشـمـــوس
وأطرب الغـــصن نسـيم الصـــبـا فـــالدوح لـلشكر يـحط الرءوس

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦٣.

واستقبل البدر ليالى التمام وصافح الصبح بكف خضيب

وراجع الأطيار سجع الحمام بكل ذى لحن بديع غريب

نواسم الوادى بمسك تفوح ونفحة الند به تعبق

وبهجة السكان منه تلوح وَجَوُهٌ من نورهم يشرق

وعرفهم بالطيب منهم يفوح كأنه من عنبر يفتق

والنهر قد سل كمثل الحسام حبابه تطفو وطورا تغيب

وقال ثغرها قد راق منه ابتسام يهنئ الأحباب قرب الحبيب

كواكب أبراجهن الخدور يلوح عنها كل بدر لياح

جواهر أصدافهن القصور نَظَمَهَا السعد كنظم الوشاح

يا حبذا والله ركب السرور يبشر المولى بنيل اقتراح

ابتهج الكون بموسى الإمام واختال فى برد الشباب القشيب

وعاده يخدم مثل الغلام شبابه قال عاد بعد المشيب

أكرم به والله وفد الكريم مولاتنا الحرة فى مقدمه

مرضاتها تحظى بدار النعيم وتوجب التوفيق من منعمه

بشر بالنصر وفتح جسيم وخيره أجمع فى مقدمه

لقاؤها المبرور مسك الختام بشرك الله بصنع عجيب

وقصرك الميمون قصر السلام خص بحفظ من سميع مجيب

مولاى يهنيك وحق الهنا قد نظم الشمل كنظم السعود

قد فزت بالفخر ونيل المنى وأنجز السعد جميع الوعود
وقرت العين وزال العنا وكلما مر صنيع يعود
فلا يزل ملكك حلف الدوام يحوز فى التخليد أو فى نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام «نصر من الله وفتح قريب»

وقال رحمه الله فى وصف غرناطة والطرد وغيرها[1]:

لله ما أجمل روض الشباب من قبل أن يفتح زهر المشيب
فى عهده أدرت كأس الرضاب حبابها الدر بثغر الحبيب
من كل من يخجل بدر التمام مهما تبدى وجهه للعيون
ويفضح الغصن بلين القوام وأين منه لين قد الغصون
ولحظه يمضى مضاء الحسام ويذهل القلب بسحر الجفون
أبصرت منه إذ يحط النقاب شمسا ولكن ما لها من مغيب
إذا تجلت بعد طول ارتقاب صرفت عنها اللحوظ خوف الرقيب
من عاذرى منه فؤاد صبا للامع البرق وخفق الرياح
يطير إن هب نسيم الصبا تعيره الريح خفوق الجناح
ما أولع الصب بعهد الصبا وهل على من قد صبا جناح
فقلبه من شوقه فى التهاب قد أحرق الأكباد منه الوجيب
والجفن منه سحبه فى انسكاب قد روض الخد بدمع سكيب

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦٤.

غـــــرناطـة ربع الـهنـا والمنـى وقـــربهـــا الســـؤل ونيـل الوطر
وطيـــبـــهـــا بالوصل لو أمـكنا لم أقطـع الليل بطـول الســـهـــر
عـمـــا قـريـب حق فـيـــه الهنا بِيُـمْـنِ ذى العـود بعـد الســفـر
ويحـــمـــد الناس نجـــاح الإياب بل صنع مـــســـتـجـــد غـــريب
ويكـتب الفـــــأل على كـل باب «نصـــر من الله وفـتح قـــريب».
مـــا لذة الأمـــلاك إلاّ القـنص لأنّه الفـــأل بصـــيـــد العـــدا
كم شـارد جـرع فـيـه الغـصص وأورد المحـــــــروب ورد الـردى
وكم بذا الفحص لـنا من حصص قـــد جـمع البـــأس بهـــا والندى

ومنها أبيات سقطت[1]:

مـــولاى مـــولاى وأنـت الذى جـددت للأمـلاك عـهـد الجـلال
والشـــمس والـبـــدر من العـــوذ لما رأت مـنك بديـع الجـمـــال
والروض فى نعـــمـتـه يغـــتـذى بطيب مـا قـــد حـزته من خـلال
بشـــراك بشـــراك بحـــسن المآب تسـتضـحك الروض بثـغـر شنيب
ودمت مـحـروس العـلا والجناب بعـصـمـة الله الســمـيع المجـيب

وقد طال الكلام؛ ولنجعـل آخر موشحة له رحـمه الله تعالى زهرية فى مدح المصطفى ﷺ، وتكون مسك الختام، وهى:

لو تـرجع الأيام بـعـــد الـذهاب لم تقـدح الأشواك ذكـرى حبـيب
وكل مـن نام بليـل الشـبـــاب يوقظـه الدهر بصـبـح المشـيب

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٢٦٥.

يا راكب العجز ألا نهضة ... قد ضيق الدهر عليك المجال
لا تحسبن أنَّ الصبا روضة ... تنام فيها تحت فئ الظلال
فالعيش نوم والردى يقظة ... والمرء ما بينهما كالخيال
والعمر قد مر كمر السحاب ... والملتقى بالله عما قريب
وأنت مخدوع بلمع السراب ... تحسبه ماء ولا تستريب
والله ما الكون بما قد حوى ... إلاّ ظلال توهم الغافلا
وعادة الظل إذا ما استوى ... تبصره متنقلا زائلا
أنا إلى الله عبيد الهوى ... لم نعرف الحق ولا الباطلا
فكل من يرجو سوى الله خاب ... وإنما الفوز لعبد منيب
يستقبل الرجعى بصدق المتاب ... ويرقب الله الشهيد القريب
سا حسرتا مر الصبا وانقضى ... وأقبل الشيب يقص الأثر
واخجلتا والرحل قد قُوِّضَا ... وما بق فى الخُبْر غير الخَبَر
وليته لو كنت فيما مضى ... أدخر الزاد لطول السفر
قد حان من ركب التصابى إياب ... ورائد الرشاد أطال المغيب
يا أكمه القلب بغين الحجاب ... كم ذا أناديك فلا تستجيب
هل يحمل الزاد لدار الكريم ... والمصطفى الهادى شفيع مطاع
فجاهه ذخر الفقير العديم ... وحبه زادى ونعم المتاع
والله سماه الرءوف الرحيم ... فجاره المكفول ما إن يضاع

عسى شفيع الناس يوم الحساب ... وملجأ الخلق لدفع الكروب

يلحقنى منه قبول مجاب ... يشفع لى فى موبقات الذنوب

يا مصطفى والخلق رهن العدم ... والكون لم يفتق كمام الوجود

مزية أعطيتها فى القدم ... بها على كل نبى تسود

مولدك المرقوب لَمَّا نجم ... أنجز للأمة وَعْدَ السعود

ناديت لو يسمع لى بالجواب ... شهر ربيع: يا ربيع القلوب

أطلعت للهدى بغير احتجاب ... شمسا ولكن مالها من غروب

وليكن هذا آخر ما أردناه، وقصدناه من شأن ابن زمرك وسردناه.

***

وسنح لى أن أنتقى بعض كلام ابن خلدون فى تاريخه الكبير فى ذكر الموشحات والأزجال، فنقول:

قال رحمه الله: وأما أهل[1] الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التعميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنا منه، وسموه بالموشح، ينظمونه أسماطا أسماطا، وأغصانا أغصانا، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون منا بيتا واحدا، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد، إلى آخر القطعة وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد، وتجاوزوا فى ذلك إلى الغاية واستظرفه الناس وحمده الخاصة والكافة، لسهولة تناوله وقرب طريقه.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٨ (طبعة بولاق ١٨٦٨م).

وكان المختـرع لها بجزيرة الأندلس مقـدم بن معافى القبـرى من شعراء الأمير عـبد الله بن محمّـد المروانى، وأخذ عنه ذلك عبد ربه صـاحب كاتب العقد، ولم يظهر لهـما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشـحاتهما، فكان أوّل من برع فى هذا الشـأن بعدهما عُـبادة القـزاز، شاعر المعـتصم بن صـمادح صاحب ألمرية، وقـد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سـمع أبا بكر بن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عُبادة القزاز فيم اتفق له من قوله:

بدر تم شـــمس ضـــحى غـــصـن نقـــا مـــسـك شم

مـــا أتم مـــا أوضـــحـــا مـــا أورقـــا مـــا أنم

لا جـــرم مـن لمحـــا قـد عـشـقـا قـد حـرم

وزعمـوا أنه لم يسبق عبادة وشـاح من معاصريه الذى كـانوا فى زمان ملوك الطوائف، وجاء مصليا خلفـه منهم ابن ارفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صـاحب طليطلة. قـالوا: وقد أحـسن فى ابتـدائه فى الموشحـات التى طارت له حيث يقول:

العـــود قـــد ترنم بـأبدع تـلـحـــين

وســـقـت المذانـب رياض الـبـســاتـين

وفى انتهائه حيث يقول:

تـخـطـر ولا تـسـلـم عـســاك المأمـــون

مـــروع الكـتـــائب يحـــيى بن ذى الـنون

ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثمين، فظهرت لهم البدائع وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلى، ثم يحيى بن بقى، وللتطيلى من الموشحات المذهبة قوله:

كيف السبيل إلى صبرى وفى العالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرد النواعم قد بانوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها فتقدم الأعمى التطيلى للإنشاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرق ابن بقى موشحته، وتبعه الباقون.

وذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قط وشاحا على قول إلاّ ابن بقى حين وقع له:

أما ترى أحمد فى مجده العالى لا يلحق
أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق

وكان فى عصرهما من الوشاحين للطبوعين أبو بكر بن الأبيض، وكان فى عصرهم أيضًا الحكيم أبو بكر بن باجَّه صاحب التلاحين المعروفة.

ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومة ابن تيفلويت صاحب سرقسطة، فألقى علىَّ بعض موشحته:

جرر الذيل أيما جر

فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله:

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابـن تيفلويت صاح: واطرباه! وشق ثيابه وقال: ما أحـسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالأيمـان المغلظة أَلاَّ يمشى ابن باجة إلى داره إلاّ على الذهب فخـاف الحكيم سوء العاقبة فاحـتال بأن جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه.

ثم قـال ابن خلدون بعـد كلام: واشـتـهر بعـد هؤلاء فى صـدر دولة الموحدين محمّد بن أبى الفضل بن شرف. ثم قال: وابن هردوس الذى له:

يا ليلة الوصل والسعود بالله عودى

وأبو موهد الذى له:

ما العيد فى حلةٍ وطاق وشـم طيب

وإنّما العيد فى التلاقـى على الحبيب

وأبو إسحاق الزويلى: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول أنّه دخل على ابن زُهْر وقد أسن وعليه زى البادية، إذ كـان يسكن بحصن إستبه، فلم يعرفـه؛ فجلس حيث انتهى به المجلس، وجـرت المحاضرة أن أنشد لنـفسه، موشحة وقع فيها:

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر فى حللٍ خضر من البطاح

فتحرك ابن زهر، وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر؛ قال: ومن تكون فعرَّفه، فقال: ارتفع فوالله ما عرفتك. قال ابن سعيد: وسابق الحلبة التى أدركت هو أبو بكر ابن زهر وقد شرَّقت موشحاته وغرَّبت. قال: وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابن زهر: لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك فى التوشيح؟ فقال: كنت أقول[1]:

ما للمولة من سكره لا يفيق يا له سكران
[من غير خمر ما للكئيب المشوق بندب الأوطان][2]
هل تستعاد أيامنا بالخليج ولياليا
إذ يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
وإذ يكاد حسن المكان البهيج أنْ يُحَيِّينا
نهر أظله دوح عليه أنيق مورق فينان
والماء يجرى وعائم وغريق من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون. إلى أنْ قال ابن خلدون: وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسية. ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجى دخل عليه فى مجلسه: فأنشده موشحة لنفسه، فقال له ابن حزمون: ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا عن التكلف؛ فقال: على مثل ماذا؟ قال على مثل قولى[3]:

(١) نفح الطيب ٧/ ٩.
(١) التكملة عن مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٠، والنفح ٧/ ٩.
(٣) نفح الطيب ٧/ ١٠.

يا هاجـــرى هل إلى الـوصـــال مـنك ســـــبـــــيـل

أو هل تـرى عن هواك ســـــالى قـــلـــب الـعـــلـــيـــل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة. قال ابن سعيد: كان والدى يعجب بقوله[1]:

إنَّ سـيل الـصـبـاح فى الـشـرق عـــاد بحـــرًا فـى أجـــمع الأفق

فـــتـــــداعت نـوادب الورق أتراهـا خـــافـت من الغـــرق

فـــبكت ســـحـــرة عـلى الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهـد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سعيد عن والده: سمعت سـهل بن مالك يقول له: يا بن الفضل، لك عـلى الوشَّاحين الفضل بقولك[2]:

وا حـســـرتا لزمـــان مـــضى عـشـيـة بـان الهـوى وانقـضى

وأفـــرد بالرغـم لا بالرضـــا وبت علـى جـمـرات الغـضى

أعـــانـق بالـفكر تـلك الطـلول وألثـم بالـوهم تلـك الرســـوم

قال: وسـمعت أبا بكر بن الـصابونى ينشـد الأستاذ أبا الحـسن الدباج موشحاته غير ما مرة، فما سمعته يقول: لله درك إلاّ فى قوله[3]:

قـســمـا بالهـوى لذى حـــجـر مـــا الليل المشـــوق من فـــجـــر

جـــمـــد الصـــبح ليس يـطرد مـا لـلـيـالى فـيـمـا أظـن غـد

صـــح يـا لـــيـــل أنـك الأبـــد

أو تَقَـــضَّـت قـــوادم الـنسـر فنجـــوم الـســـمـــاء لا تســـرى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١٠.

(٢) نفح الطيب ج٧ ص ١٠.

(٣) نفح الطيب ج٧ ص ١٠.

ومن موشحات ابن الصابونى قوله[1]:

ما حال صب ذى ضنى واكتئاب أمرضته يا ويلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتناب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفا جفونى النوم لكننى لم أبكه إلاّ لفقد الخيال
وذا الوصال اليوم قد عزنى منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدنى بصورة الحق ولا بالمحال

واشتهر ببر العداوة ابن خلف الجزارى صاحب الموشحة المشهورة[2]:

يد الإصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر

وأبن الخرز البجائى، وله من موشحة:

ثغر الزمان موافق حياك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها[3]:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى نار وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس [والمغرب لعصره][4] فقال:

---

(١) نفح الطيب ٧/ ١١.
(٢) نفح الطيب ٧/ ١١.
(٣) نفح الطيب ٧/ ١١.
(٤) التكملة عن نفح الطيب ٧/ ١١.

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس[1]

لم يكن وصلك إلاّ حلما ... فى الكرى أو خلسة المختلس

إذ يقود الدهر اشتات المنى ... تنقل الخطو على ما يرسم

زمرا بين فرادى وثنى ... مثلما يدعو الوفود الموسم

والحيا قد جلل الروض سَنَا ... فثغور الزهر فيه تبسم

وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروى مالك عن أنس

فكساه الحسن ثوبا معلما ... يزدهى منه بأبهى ملبس

فى ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس الغرر

مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر

وطر ما فيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر

حين لَذَّ النوم مع حلو اللمى ... هجم الصبح هجوم الحرس

غارت الشهب بنا أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس

أى شىء لامرئٍ قد خلصا ... فيكون الروض قد مكن فيه

تنهب الأزهار منه الفرصا ... أمنت من مكره ما تتقيه

فإذا الماء تناجى والحصى ... وخلا كل خليل بأخيه

تبصر الورد غيور برما ... يكتسى من غيظه ما يكتسى

وترى الآس لبيبا فهما ... يسرق السمع بأذنى فرس

يَأُهَيْلَ الحى من وادى الغضى ... وبقلبى مسكن أنتم به

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ١١.

ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا ... لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تعتقدوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرما ... يتلاشى نفسا فى نفس
حبس القلب عليكم كرما ... أفترضون عفاء الحبس
وبقلبى منكم مقترب ... بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب ... شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذهب ... فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى ... جال فى النَّفْس مجال النَفَسِ
سدد السهم وسمى ورمى ... ففؤادى نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل ... وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ... ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمد ممتثل ... فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما ... لم يراقب فى ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ... ومجازى البر منها والمُسِى
ما لقلبى هبت صبا ... عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا ... قوله: «إنَّ عذابى لشديد»
جلب الهم له والوصبا ... فهو للأشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرمها ... فهى نار فى هشيم اليبس

لم يدع فى مـــهـجـتـى إلاّ ذمـا كـبـــقـاء الصـــبح بعـــد الغلس
سلمى يا نفـس فى حكم القـضـا واعـمرى الوقت برجـعى ومتـاب
دعك من ذكـرى زمـان قد مـضى بين عـتـبى قـد تقضت وعـتـاب
واصـرفى القول إلى المولى الرضـا ملهم الـتـوفـيق فى أم الكتـاب
الكـريم المنـتـــهـى والمنتـــمى أســـد الســـرج وبدر المجـلس
ينزل الـنصـــر عليـــه مـــثـلمـا ينـزل الوحـى بروح الـقـــدس

قال[1]: وأما المشـارقة فالتكلف ظاهـر على ما عانوه من الموشـحات. ومن أحـسن ما وقـع لهم فى ذلك موشـحـة ابن سناء الملك المصـرى، التى اشتهرت شرقا وغربا، وأولها:

يا حـبيـبى[2] ارفع حجـاب النور عـن العـــــذار
ننـظر المـسك عـلى الكـافـــور فـــى جـلـنـــار
كـــلـــلـــى يا سـحاب الـتيـجـان الربا بالحلى
واجـــــعـلـى ســـــوارها منـعطف الجـــدول

ولما شاع فـن التوشيـح فى أهل الأندلس وأخذ به الجـمهـور لسلاسـته وتنمـيق كلامـه، وتصريع أجـزائه، نسـجت العامـة من أهل الأمصـار على منواله، ونظموا على طريقته بلغتهم الحضـرية، من غير أن يلتزموا فيه إعرابا، واستـحدثوا فنا سـموه بالزجل، والتـزموا النظم فـيه على مناحيـهم إلى هذا العهـد، فجاءوا فيـه بالغرائب، واتسع فيـه للبلاغة مـجال، بحسب لغـتهم المستعجمة.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤ ونفح الطيب ج٧ ص ١٤.
(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «حبيبى» والصواب عن المصدرين المذكورين.

وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان وإن كانت قيلت قبله بالأندلس لكن لم تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها ولا اشتهرت رشاقتها إلاّ فى زمانه وكان لعهد الملثمين وهو إمام الزجالين على الإطلاق

قال ابن سعيد: ورأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب. قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الإشبيلى إمام الزجالين فى عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر فقال[1]:

وعريش قد قام على دكان ... بحال رواق

وأسد قد ابتلع الثعبان ... فى غلظ ساق

وفتح فَمُّو بحال إنسان ... به الفواق

وانطلق يجرى على الصفاح ... وألقى الصياح

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبى الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية وينتاب نهرها.

ثم ذكر ابن خلدون عنه وعن جماعة حكاية وكلاما إلى أن قال: وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مَدْغَلِّيس وقعت له العجائب فى هذه الطريقة فمن قوله فى زجله المشهور:

ورذاذ دق ينزل ... وشعاع الشمس يضرب

فترى الواحد يفضض ... وترى الآخر يذهب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤، ونفح الطيب ج٧ ص ١٥.

والنبـات يشـرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب

وتـريـد تجئ إلـيـنـا ثم تسـتـحى وتـهـرب

ومن محاسن أزجاله قوله:

* لاح الضياء والنجوم حيارى *

ثم قال ابن خلدون[1]: وظهر بعد هؤلاء فى إشبيلية ابن جحدر الذى فضل على الزجالين فى فتح ميورقة بالزجل المشهور الذى أوله:

من عاند التـوحيد بالسـيف يمحق أنـا برئ ممـن يعـانـد الحـق

قال ابن سعيد: لقيته ولقيت تلميذه البعبع صاحب الزجل المشهور الذى أوله:

يا ليـتـنى إن رِيْت حـبـيـبى أفـتل اذنـو بالرسـيـلا

ليـش أخـذ عنق الـغـزيل وسـرق فم الحـجـيـلا

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الآداب ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر فى الملة الإسلامية غير مدافع فمن محاسنه فى هذه الطريقة:

امـزج الأكـواس وامـلالى نجـدد مـا خـلق المال إلاّ أن يـبـدد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششترى منهم:

بـيـن طـلوع وبـيـن نـزول اخـتـلطت الـغـزول

ومـضى مـن لم يـكن وبـقـمـن لم يـزول

(١) المقدمة ص ٥٢٦.

ومن محاسنه أيضًا قوله فى ذلك المعنى:

البـــــعـــــد عـنك يا بـنى أعظـم مـــصـــابى

وحين حـــصل لى قـــربك نســـيـت أقـــاربى

وكان لعصـر الوزير ابن الخطيب بالأندلس محمّد بن عـبد العظيم، من أهل وادى آش، وكـان إمـامـا فى هذه الطريـقـة، وله من زجل يعـارض به مدغليس فى قوله:

* لاح الضياء والنجوم حيارى *

بقوله:

حل المجـــــون ياهـل الشـطارا مـــذ حلت الـشـمـس بالحـــمل

ثم ذكر ابن خلدون جملة من هذا الزجل وقال بعد ذلك: وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هى فن العامة بالأندلس من الشعر وفيها نظمهم حتى إنهم لينظمون بهـا فى سائر البحور الخـمسة عشر لكن بلـغتهم العـاميـة ويسمونه الشعـر الزجلى. إلى أن قال: وكان من المجيـدين فى هذه الطريقة لأول هذه المئة الأديـب أبو عبد الله اللـوشى وله من قصـيدة يمدح فـيهـا السلطان ابن الأحمر:

طل الصـبـاح قم يـا نديم نشـربو ونضـــحكو من بعـــد مـــا نطربو

ثم سردها ابن خلدون وهى طويلة جدا[1].

ثم قال: ثم اسـتحـدث أهل الأمصار بالمغـرب فنا آخر من الشـعر فى أعاريض مزدوجة كـالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضًـا وسموه عروض

(١) وردت بطولها فى مقدمة ابن خلدون ج١ ص ٥٢٧.

البلد وكان أول من استحدثه بينهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذهب الإعراب [إلاّ قليلا][1] مطلعها:

أبكانى بشاطى النهر نوح الحمام ... على الغصن فى البستان قريب الصباح[2]

وكف السحر تمحو مداد الظلام ... وماء الندى يجرى بثغر الأقاح

باكرت الرياض والطل فيه افتراق ... سر الجوهر فى نحور الجوار

ودمع النواعر ينهرق انهراق ... يحاكى ثعابين حلقت بالثمار

لووا بالغصون خلخال على كل ساق ... ودار الجميع بالروض دور السوار

وأيدى الندى تخرق جيوب الكمام ... وتحمل نسيم المسك عنها رياح

وعاج الضياء يطلى بمسك الغمام ... وجر النسيم ذيلو عليها وفاح

رَأيتِ الحمام بين الورق فى القضيب ... قد ابتلت ارياشو بقطر الندى

ينوح مثل ذاك المستهام الغريب ... قد التف من ثوبو الجديد فى ردا

ولكن بفاه أحمر وساق خصيب ... ينظم سلوك جوهر ويتقلدا

جلس بين الأغصان جلسة المستهام ... جناحا توسد والتوى فى جناح

وصار يشتكى ما فى الفؤاد من غرام ... منها ضم منقارو لصدرو وصاح

فقلت احمام أحرمت عينى الهجوع ... أدى ما تزال تبكى بدمع سفوح

قال لى بكيت حتى صفت لى الدموع ... بلا دمع نبقى طول حياتى ننوح

---

(١) التكملة عن مقدمة ابن خلدون.

(٢) ابن خلدون ج١ ص ٥٢٩.

على فرخ طار لى لـم يكن لو رجوع ألفت البكا والحـزن من عهـد نوح
كـذاك هو الوفـا كـذا هو الذمـام انظر للجفون صـارت بحال الجراح
وأنتم من بـكى منكم إذا تم عـام يقـول قد عـيـانى ذا البكا والنواح
فقلت احمـام لو خضت بحر الضنى كـان تبكى وترثى لى بدمع هتـون
ولو كـان بقـلبك مـا بقلـبى أنا رماد كان يصير تحـتك فروع الغصون
اليوم لى نقاسى الهجر كم من سنا حتى لا سبيل جـمله ترانى العيون
ومما كسـا جسمى النحـول والسقم أخافنـى نحولى عن عيـون اللواح
لو جتنى المنايا كـان نموت فى المقام ومن مات بعد يا قـوم لقد استراح

ثم قال ابن خلدون: فـاستحسنه أهل فاس، وولعـوا به، ونظموا على طريقته، وتركـوا الإعراب الذى [ليس][1] من شأنهم، وكـثر شيـاعه بينهم، واستحفل فيه كثـير منهم، ونوعوه أصنافا، إلى المزدوج، والكازى، والملعبة، والغزل؛ واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها، وملاحظاتهم فيها.

فمن المزدوج ما قاله ابن شجاع، من فحولهم، وهو من أهل تازا[2]:

المال زينة الـدنيـا وعـز الـنفـوس يبـهى وجـوهـا ليس هى باهيـا
فـهـا كل من هو كـثـيـر الفلوس ولوه الكـلام والرتبـة العـاليـا
يكبروا من كتر ماله ولو كان صغير ويصـغر عـزيز القـوم إذا يفـتقـر
من ذا ينطبق صدرى ومن ذا يغـير وكـاد ينفقع لـولا الرجوع للقـدر

(١) التكملة عن مقدمة ابن خلدون.
(٢) ابن خلدون ج١ ص ٥٣٠.

حتى يلتجى من هو فى قومه كبير لمن لا أصل عندو ولا لو خطر

لقد ينبغى نحزن على ذى العكوس ونصبغ عليه ثوبى من راس خابيا

أدى صارت الأذناب أمام الرءوس وصار يستفيد الواد من الساقيا

ضعف الناس عمل ذا أو فساد الزمان ما ندريو على من نكثرو ذا العتاب

أدى صار فلان اليوم يصبح بو فلان ولو ريت وكيف حتى يرد الجواب

عشنا والسلام حتى رأينا عيان أنفاس السلاطين فى جلود الكلاب

كبار النفوس جدا ضعاف الأسوس هم فى ناحيا المجد فى ناحيا

يروا أنهم -والناس يروهم تيوس - وجوه البلد والعمد الراسيا

ثم ذكر ابن خلدون كلاما آخر لابن شجاع. ثم قال: وكان منهم على ابن المؤذن بتلمسان. وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من نواحى مكانسة رجل يعرف بالكفيف، أبدع فى مذاهب هذا الفن؛ ومن أحسن ما علق له بمحفوظى قوله رحلة السلطان أبى الحسن وبنى مرين إلى إفريقية، يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها، ويؤنسهم بما وقع لغيرهم، بعد أن عيبهم على غزاتهم إلى إفريقية فى ملعبة من فنون هذه الطريقة، يقول فى مفتتحها، وهو من أبدع مذاهب البلاغة فى الإشعار بالمقصد فى مطلع الكلام وافتتاحه، ويسمى براعة الاستهلال:

سبحان مالك خواطر الأمرا بنواصيها فى كل حين وزمان[1]

إن طعناه أعظم لنا نصرا وإن عصيناه عاقب بكل هوان

(١) ابن خلدون ج١ ص ٥٣١.

إلى أن يقول فى السؤال عن جيوش المغرب بعد التخلص:

كن مـــرعى قل ولا تكـن راعى ... فـالراعى عن رعـيتـه مـسئـول[1]
واسـتـفـتح بالصـلاة على الداعى ... للإسـلام والرضى السنى المكمـول
للخـلفـا الراشـديـن والأتبـاع ... واذكـر بعـدهم إذا تحب وقـول
أحـجـاجـا تـخللوا الصـحـرا ... ودروا شـرح البـلاد مـع السكان
عـسكر فـاس المـنيـرة الغَـرَّا ... أين سـارت به عـزائم السـلطان
أحـجـاج بالنبـى الذى زرتم ... وقطعـتـهم لو كـلاكل البـيـدا
عن جيـش الغرب جيت نسـألكم ... المتلـوف فى افـريـقـيـا السـودا
وأمـيـر كـان بالعطـا يزودكم ... ويدع بـرية الحـجـاز رغـدا
قـام كل كلـسـد صـادف الجـزرا ... ويعـجـز شـوط بعـد مـا لحـقـان
وتركـوا دم ولهب فى الـغـبـرا ... أدى صـار إذ غـار له سـيـحـان
لو كـان مـا بـين تونس الغـربا ... وبلاد الغـرب سـد الاسـكندر
مـبنـى من شـرقـهـا إلـى غـربا ... طبـقـا بحـدبد وثـانيـا بصـفـر
لا بد للـطيـر كـان يـجى بنبـا ... أو يأتى الريح عـنهم بفـرد خـبـر
مـا أعوصـها من أمـور وما شـرا ... لو تـقـرا كـل يوم على الـوديان
لجـرت بـالدم وانصـدع حـجـرا ... وهوت الاجـراف وجفت الغـدران
ادرى لى بعـقـلك الفـحـاص ... وتفكـر لى بخـاطرك جـمـعـا

(١) ابن خلدون ج١ ص ٥٣١.

إن كـان يعلم حـمـام ولا رقـاص ... عن السلطان شـهـر وقـبله سـبعـا
بكتـاب عـبد المـهيـمن القـواص ... وعـلامـات تنشر عـلى الصمـعـا
إلا قـــوم عـــاريين بلا ســـتـــرا ... مـجـــهـولين لا مـكان ولا إمكان
لم يدريوا كـيف يصـيروا الكسـرا ... أو كـيـف دخلوا مـدينة الـيـروان
أمـولاى بو الحـسن خطينا البـاب ... بقـــضـــة ســـيـــرنا إلـى تونس
فى غنى كـنا عن الجـــريد والزاب ... وايش لك بعرب إفـريقيـة القونس
مـا بلغك عـن عـمـر بن الخطاب ... الفـــاروق فـــاتح القـــرى المونس
ملك الشام والحجـاز وتاج كسرى ... ولم يفـــتح من افـريقـيـــا دكـان
كـــان إذا تذكـر لـه كـره ذكـــرا ... ويقـول اسـمـهـا يفـرق الإخـوان
هذا الفـــاروق زمـــرد الأكـــوان ... صـرح فى افريقـيـا بذا التصـريح
وبقت حـمى إلـى زمن عـثـمـان ... وفـتحـها ابن الزبيـر عن تصحـيح
لما دخلـت غنايمـــهـــا الـديوان ... مـات عثـمان وانـقلب علينا الريح
وافـتـرق النـاس على ثلاث أمـرا ... وبقى مـا هو السكوت عنو إيمـان
إذا كـــان ذا فـى مـــدة البـــررا ... إيش نعـــمل فى أواخـــر الأزمـان
وأصـحاب الجـفـر فى كـتيـبـاتا ... وفى تاريـخ كَـاتْبـا وكـيـوانا
تذكـر فى صـــحـفـهـا وأبـيـاتا ... شـق وسطـيح وابـن مـــــرانـا
ابن مـــــرين إذا انكـبت برايـاتا ... لجـدار تونس فـقـــد سـقط شـانا
قـد ذكـرنا مـا قـال سـيـد الوزرا ... عـيسى بـن الحسن الرفـيع الشـان

قـــال لى رينـا وانا بهـــا أدرى لكن إذا جاء القضا عمت الأجفان

ويقـــول لك مـــا رمى المـرينيـــا من حـضرة فاس إلى عـرب دياب

راد المولى يـمـــوت أبو يحـــيى سلطان تـونس وصـاحـب العناب

ولقـــد كـــان قـبـل ذا الأشـيـــا جـعل اولاد أبو الحـــسن أنسـاب

ثم أخذ فى ترحيل السلـطان وجيوشه إلى آخر رحلتـه ومنتهى أمره مع أعراب إفريقية وأتى فيها بكل غريبة من الإبداع.

وأما أهل تونس فاستحدثوا فن الملعبـة أيضًا على لغتهم الحضرية إلى أن أكثره ردىء ولم يعلق بمحفوظى [منه شىء][1] لرداءته.

وكان لعامة بغداد أيضًا فن من الشعر يسمونه المواليا، وتحته فنون كثيرة، يسمون منهـا القوما، وكان وكـان، و[منه مفرد ومنه فى بيتـين ويسمونه][1] دوبيت، على اخـتلاف الموازين المعتـبرة عندهم فى كل واحـد منها، وغـالبا مزدوجة من أربعة أغـصان، وتبعهم فى ذلك أهل مصر والقـاهرة، وأتوا فيها بالغرائب، وتجاروا فـيها بأساليب البلاغـة، بمقتضى لغتهم الحضـرية، فجاءوا بالعجائب.

ورأيت فى ديوان الصفـى الحلى من كلامه أن المواليـا من بحر البـسيط وهو ذو أربعة أغصان وأربع قواف يسمى صوتا وبيتين وأنه من مخترعات أهل واسط وأن كان وكـان فى قافـية واحدة وأوزان مـختلفـة فى أشطاره والشطر الأول من البيـت أطول من الشطر الثانى ولا تكون قـافيتـه إلاّ مردفـة بحرف العلة وأنه من مخترعات البغداديين وأنشد فيه.

(١) التكملة عن ابن خلدون.

ثم ذكر ابن خلدون عدة مقطعات من المواليا ومنها[1]:

ناديتـها ومـشـيبى قـد طوانى طى جودى على مقبله فى الهوى يا مى
قالت وقد تركت داخل فؤادى كى ما ظن القطن يغـشى فم من هو حى

ومنها:

يا حادى العيس ازجـر بالمطايا زجر وقف على منزل أحبابى قبيل الفجر[2]
وصح فى حيهم ما من يريد الأجر ينهض يصلى على ميت قتـيل الهجر

ومنها:

عينى التى كنت أرعـاكم بها باتت ترعى النجوم وبالتسهـيد اقتاتت[3]
وأسـهم البين صـابتنى ولا فـاتت وسلوتى -عظم الله أجركم- ماتت

ثم قال: ومن الذى يسمونه ذو بيت:

قـد أقـسم من أحـبـه بـالبـارى أن يبـعث طيـفـه مع الأسـحـار
يا نار أشـواقى به فـاتـقـدى ليـلا عـسـاه يهـتـدى بـالنار

واعلم أن الذوق من معرفة البلاغة منها كلها إنما يحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبـته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلناه فى اللغة العربيـة فلا يشعر الأندلسى بالبلاغة التى فى شـعر أهل المغرب ولا المغربى بالبلاغة التى فى شعر أهل الأندلس والمشرق ولا المشرقى بالبلاغة التى

(١) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٣.
(٢) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٣.
(٣) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٣.
(٤) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٣٤.

فى شعر أهل الأندلس والمغـرب لأن اللسان الحضرى وتركيـبته مختلفـة فيهم وكل واحد منهم مدرك بلاغـة لغته وذائق محاسن الـشعر من أهل بلدته وفى خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات للعالمين.

انتهى كلام ابن خلدون فى ديوان العبر ببعض الاختصار.

قلت: كأن بمنتـقد ليس له خبـره يسدد سهـام الاعتراض ويتولى كـبره ويقول: ما لنا وإدخـال الهزل فى معرض الجد الـصراح؟ والذى أحوجنا إلى ذكر هذا المنحى والأليق طرحه كل الاطراح؟ فنقول فى جوابه على الإنصاف:

لم تزل كتب الأعـلام مشحونة بمثل هذه الأوصاف وليـس مرادهم إيثار الهزل على غيره، وإنما ذلك من باب تـرويح القلب، وهو أعون على خيره، وللسلف فى مثل ذلك حكايات يطول جلبهـا، ولا يقدح ذلك فى سكينتهم، ولا يتوهم لسببه سلبها ويرحم الله تعالى عياض إذ قال:

قل للأحـبـة والحـديث شـجـون مـا ضر أن شـاب الوقـار مجـون

الأبيات الآتية فى محلها.

وليس قصـدنا نحن بهذا، عَلِمَ الله غـرضا فاسدا، نـنفق منه فى سوق الهزل كاسـدا، وإنما غرضنا صحيح، وزنـدنا غير شحيح. علـى أن المقصود الأعظم مدح النبى ﷺ بهذه الأوزان، وكل مـا سيق وسيلة إلى ذلك مما راق أوزان.

واعلم أيهـا الناظر، أذهب الله عن ساحـتك الأشجـان، أنَّ كثـيرا من الأئمة مدحوا بذلك المبعوث رحمة إلى الإنس والجان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاما يتضوع نشرهما فى المشارق والمغارب، ويتألق نورهما فيهتـدى به قائلهما لقضاء الأغراض والمآرب. فـمن ذلك قول بعض من كرع من منهل حبه العذب المشارب، من موشح لم أقف منه إلاّ على قوله:

البلبل فى الرياض لما نشدا بالقول شدا
والغصن له يميل حتى سجد مما وجدا
قد مَدّ له الأكف من غير ندا يمتاح ندى
والورق شدت بصوتها الملحان دون العلق
لمّا ذكر بأطيب الألحان رب الفلق
يا أشرف مرسل به الله هدى من رام هدى
بالمدح لديك عبد وهاب غدا يرجوك غدا
يا من مديحه جلا كل صدا ممن رصدا
يا ملجأ كل خائف أو جانى بالذنب شقى
لا زال حماك روضة للجانى والمنتشق
يا عُرْبَ تهامة حماكم أربى فيه العربى
فالسعى لغير أرضكم لم يجب حث النجب
فالفضل لكم مع كمال الحسب عند النسب
من مدحكم تصرمت أحزانى والفرح بقى
عندى أبدا وفوحت أوزانى مسك العبق

ومن ذلك قول بعض العدول من أهل العصر القريب من عصرنا رحمهم الله تعالى[1]:

يا عُرَيْبَ الحىّ من حى الحمى أنتم عيدى وأنتم عرسى

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٦٢.

لم يحل عنك ودادى بعدما حلت لا وحياة الأنفس
من عذيرى فى الذى أحببته ملك القلب شديد البرحا
بدر تم أرسلت مقلته سهم لحظ لفؤادى جرحا
إن تبدى أو تثنى خلته غصن بان فوقه شمس ضحى
تطلع الشمس عشاء عندما تتحلى منه أبهى ملبس
وترى الليل أضاء منهزما وترى الصبح أضاء فى الغلس
يا حياة النفس صل بعد النوى وألها مضنى شديد الشغف
قد براه السقم حتى ذا الهوى كاد أن يفضى به للتلف
آه من ذكرى حبيب باللوى وزمان بالمنى لم يسعف
كنت أرجو الطيف يأتى حلما عائدا يا نفس من ذا فَا يْأَسى
هل يعود الطيف الصبا مغرما ساهرا أجفانه لم تنعس
همت فى أطلال ليلى وأنا ليس فى الأطلال لى من أرب
ما مرادى رامة والمنحى لا ولا ليلى وسعدى مطلبى
إنما سؤلى وقصدى والمنى سيد العجم وتاج العرب
[أحمد المختار طه من سما الشريف ابن الشريف الكيس][1]
خاتم الرسل الكريم المنتمى طاهر الأصل زكى النفس

ولم أقف من هذه الموشحة على غير هذا القدر، وهو عجيب، عارض موشحتى ابن سهل وابن الخطيب السابقتى الذكر.

(١) ما بين الحاصرتين من نفح الطيب ج٧ ص ٦٣.

ومن ذلك جملة موشحات، انتقيتها من كلام الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى، أبى عبد الله محمّد بن أحمد بن الصباغ الجذامى، وقد ألف ذلك بعض الأئمة فى تأليف رفعه للسلطان المرتضى صاحب مراكش، وأطال فيه من موشحات هذا الشيخ وسائر نظمه، ولم أذكر من موشحاته إلاّ الغرر، على أنها كلها غرر، فمن ذلك قوله رحمه الله:

ألف المضنى الشجونا وارتضى الأحزان دينا
فوق صفح الوجنتين أهمل الدمع الهتونا
يقطع الأيام حزنا وبكاء وعويلا
فارحموا صبا معنى قلبه يذكى غليلا
ملهب الأحشاء مضنى بالنوى أضحى عليلا
ذاب شوقا وحنينا وسقاما وأنينا
يا له من حلف بين يرتضى فيك المنونا
أترى عهدا تقضى منكم هل لى يعود
فمتى عنى ترضى قد بَرَى جسمى الصدود
لم أطق والله نهضا فبحق الحق جودوا
وارحموا صبا مهينا كم شكى البين سنينا
وشئون المقلتين تسكب الدمع المعينا
قد ذوى غصن الشباب ومضى عمرى وولى
آن لى وقت الإياب كم أسلى النفس جهلا

هذه عـــــرس المتـــــاب فى قـــباب الوصـل تجلى
حـــسنوا فـيـــهـا الـظنونا وادخـلـــوهـا آمـــنـيـــنـا
قـــــد وصلـنا كـل بيـن وعـــفـــونا ورضـــيـنا
نحـــــو هـاتيـك الربـوع فـاجـهـدوا كـد الحـمـول
وإلى قـــبـــر الـشـــفـــيع أعـــملوا سـيـــر الرحـــيل
إن تكـن خلى مـطيـــــعى يَمِّـــمَنْ خـــيـــر رســـول
كن لـى يا رب مـــعـــيـنا وصل الـصب الحـــــزيـنا
قـــبل أن يحـــيـن حـــينى وأرى المـوت يقـــــــــينـا
نم ريحـــــان الـتـــــدانى وســـــرت ريح الوصـــال
قـد صـــفـا ورد الأمـــانى فـانتـــهض نحـو المـعـالى
صـــاح كم هذا الـتـــوانى فـاسـتـمـع عـذب المقـال
وبـلـــيـنـا وابـــتـلـيـــنـا وِاشْ يقـــول النـاس فـــينا
قم بـنا يـا نور عـــــــينى نجـــعـل الشك يـقـــيـنا

وقوله فى التشوق إلى مكة وطيبة، على ساكنها الصلاة والسلام:

زهر شـــــيب المـفـــــارق تفـــتـــحت عنـه الكمـــام
فـــابك الـزمـــان المفـــارق وحـاك فى النـوح الحـمـام
عـوضت بالصـبح الأصـيل وقـد عـرا البـدر انكسـاف
ألم بـالغـــــصن الـذبول وكـــــان لدنـا ذا انعـطاف

ريح الصبـــا كـــان تميل كأن سـقى صرف الـسلاف

حـــتـى رمى القلـب راشق وفـــوقت نحـــو السـهـــام

ولســـــان الحـــال نـاطق يخـــبـــــرنى أن لا دوام

يا بـدر أيام الشـــــبـــاب هل للأفـــول منك طـلوع

أضـحى فـــؤادى ذا المذاب حليـف أشـجـــان فـــزوع

ونار حـــزنى فى ألتـــهـاب تـذكى بـأحـنـاء الضـلـوع

فـإن هـفـا البـرق خـــافق ذكـرت عـهـــدى بالخـيـام

وإن تـأوه عـــــــــاشـق ساجلـت فى دمعى الغـمام

ولى الشـبـاب وانقـضى فـدمع عـينـى فى انهـمـال

وفى الحـشى جمـر الغضـا لفـــقـــد هاتيك الـلـيـال

يا عـــهـــد أيام الـرضـــا هل رَجْـعَـةٌ تُدْنى الوصـال

تحـيـــا بهـــا نـفس وامق مـضنى الفـؤاد مـسـتـهـام

نحـــو العـــذيـب وبارق يحـــدو به حـادى الغـــرام

يهـيـــجـــه لمع البـــوارق من طيـبـة حـين تشـــام

فـــإن تـعـــقنى العـــوائق ألصـــقت خـدى بالـرغـام

يـا دار هـل يـــدنـو المـزار فـيـعـقب اللـيل الصـبـاح

لهـــفى علـى بعـــد الديار وقـص أريـــاش الجـنـــاح

مـــتى أرى أحـــدو الـقطار فـــقـــد برانى الانـتـــزاح

أشـــدو المـطايا الســـوابق مـــزمـــزمـــا عنـد المقـــام
ثغـــــر الزمـــان المـوافق حـــيـــاك منه بـابتـســـام

وقوله رحمه الله:

رســـــوم ظـاهر الـبلـى بـكل رسـم طاسـمْ عنـوانْ
وربعـــــهم مـــا أشـكلا منهـــا لك حـازم تبـيـان
قف بالـديار واعـــتـــبـــر إن كنت مـن أهل العـــبـــر
وانظـر لهـــا وازدجـــر فـــإنَّ فـــيـــهـــا الأجـــر
كم مـــعلـم قـــد دثر فـــلـم يـــبن مـــنـه أثـــر
تبـكيـــــه ورق الـفـــــلا وفى بُكَا الحـمـام أشـجـان
فلـننتـــــــدب إلى الـطلا فـفى فـؤاد الهـائم أحـزان
ســمـــاعـــا من الوجـــود عنه تـفـــاهم العـــقـــول
فـــغـيـــبـــيـــة وشـهـــود كـــلاهمـــا عـــين الـدليل
حـــتـى مـــتى يا مـــريد تختـتـال فى ثوب الخـمـول
تـشـكـــو لـنـا الـعـــلـلا وأنت بـالمآثـم جـــــذلان
فلـذ بعـــــز الـعـــــلا فـــعندنا للنـادم إحســـان
فـنـــاء أهـل الـــطـريـــق هـو الوجـــــود المـطلـق
فكـل مـــعـنى دقـــيق بوصـــفـــهم يـحـــقق
أنـوارهم فـى شـــــريـق بهـــا اســتـــضـــا الموفق

قـد أوضـحـوا السُّـبُـلا فـهم لنا فى الـعـالم برهان

فـاجنح إلـيـهم ولا تُغْـفِل للـمـواسـم إبان

يا نـاسـيـا لـوصلـنا أيقظ مـن النوم الجـفـون

سـلم إلـينـا فـعـلنـا مـا كـان منه أو يـكون

لا حـول إلا حـولـنا فـانـف الشكوك والـظنون

يا غـادرا قـد سـلا أقـصر فليس يجـمل سلوان

لله مـا أجـمـلا من بات وهو بالهوى نشوان

يـا طالـبـا لـلنـدى يبـغى السـمـاحـة والنوال

يمم - فـديـت - أحـمـدا بدر العـلا شـمس الكمـال

وعـد عـمـن شـدا واسـتـغـرق المدح وقـال:

إن جـئـت أرض سـلا تلقـاك بالمكارم فـتـيـان

هـم سطـور الـعـلا ويوسف بن القـاسم عنوان

وقوله رحمه الله:

بأرض طيـبـة مـعـهـد شـوقى إلـيـه مـجـدد

هـل لى بـتـلـك الطـلـول

من زورة ومـقـيـل

يا قـبـر خـيـر رسـول

مـتى يراك فـيـسـعـد صب ببـعـدك مكمـد

مـــذ قـــد براه انتـــزاح

وقـــص مـــنـه الجـــنـــاح

لـه إليـك ارتـيـــــــاح

بالغـرب أضـحـى مـقـيـد والضـعف والشـيب يشهـد

ربع الـتـــواصل أقـــوى

فـمن على الهـجـر يقـوى

قـد صـيـر الجـسم نضـوا

ســهم بـعـــاد مـســـدد لقـــد رمـانى فـــأقـصـــد

مـــتى يتـــاح التـــدانى

لمكـمـــد القلـب عـــانى

يشـــــدو بكـل لســـــان

عـسى الذى كـنت أعـهـد مما تـقـــضى يـجـــدد

يا بغـــيـــتى يـا مـــرادى

أشكـوك فـــرط بعـــادى

فـــى كـــل وَادٍ أنـــادى:

مـالى غـــيـرك مـقـــصـد فكيف بـالهـجـر أقـــصـد

فـــوضت أمـــرى إليـكا

فـــــذاك وقـف علـيكـا

مـــالـى شـــفـــيع لـديكا

إلاّ بكـائى ســـــرمـــــد فمن عـلى الحزن[1] يسـعد

بى فـــافـــعـل مـــا تشـــا

أضـــحى لى منك الرجـــا

فـــــــكـــــــل داء دوا

وكل رأيـى مـــــســـــدد وكل أمـــــر مـــــرشـــــد

وقوله رحمه الله:

قـم وناج الله فـى داجى الـغلـس تنـتـــــــشى الأرواح

والتـمس للعـــفـو فـيـه ملتـمس وانتـبـــه قـد فـــاح

عـرف أزهار الرضـا ثـم اقـتـبس نـور رشـــــــد لاح

وانتـشق يا صـاح أرواح السـحـر يا لهـــا مـــشـمـــوم

عـــرفـــــه إن هب فى إثـر الزهر ينـعش المـزكـــــــوم

مـــرغ الخـــد ونادى بالـنحـــيب واهمـل الأجـــفـــــان

قف بمغناهـم وقـوف مـسـتـريب حـــالف الأشـجـــان

واشك إن وافقـت إصغاء الطـبيب علـة الهـــــجـــران

فـعـــسى بالوصل تحـيـى مـا دثر ويطـيب الـنعـــــيم

فـالنوى مـــا إن عليـه مـصـطبـر والبـــــعـــــاد أليم

يا رحـيم الخلـق رحـمـاك فـقـد جـئت مـغنى رحـيب

(١) فى سائر الأصول: «الحسن» ولعل ما أثبتناه أولى.

ليس لـلعـبـــد على النـار جلد وهو عـبـد مـريب

عـبـد سـوء لحمـاك قـد قـصـد يشـــتـكى بالـذنوب

من لـه يوم تـرامى بـالشـــــرر زفـرات الجـحـيم

فـيـهاب الخـلق من خيـر البـشـر عـــافـنى يا رحـــيم

أنا مـــا بين مـقـــامـين مـقـيم أورثانـى شـــجـــا

فى فـــؤادى من دمـــوعـى كلوم قـلمـــــــا ترتجى

واعـــتـــــلاقى بـجناب الكـريم مـــشـعـــر بالنجـا

هأنا فـى الحـــالتـــين فى خـطر والـفـــــؤاد سـليـم

سلك التـــوحـيـــد فـيـه بـالنظر ســبـل نهج قـــويم

أحليف الحـــزن تشكـو بالعـبـــاد لـذ بمجـــــد أثيـل

فى قـــبـاب المجـد تحـظى بالمراد حـيث حـل الرسـول

عنده يـشـــفى صـــداه الـفـــؤاد واسـألن مـن يقـول:

«ليتنـــى رملـة الحَرَّهْ»

وقوله رحمه الله:

نـــأت بـى الأوطـــان عن حـضرة الإحـسان ولا مـــــعـــــين

فـــمن لـذى أحـــزان لطيـبـــة قـــد كـــان لـــه حـــنـــيـــن

شـطـــت بـى الـــدار فـيـــا شـــوقـــاه لـيـــــثـــــرب

أحـــبـــابه ســـاروا والبـــين أقـصـــاه بـالمـغـــــــــرب

فى قلبه نار تذكيه أمراه فلتعجب

لو سابق الإخوان فى ذلك الميدان أضحى مكين

فحالف الأشجان واصحب مع الأحيان قلبا حزين

للمورد العذب والمنهل السلسل شدوا الرحيل

فيا ظما قلبى لذلك المنهل هل من مقيل

بساحة القرب فيبرد السلسل حر الغليل

إنَّ أمكن الإمكان أنْ يكرع الظمآن من المعين

فى مشرب الرضوان فذاك سعد دان للرائدين

يا حادى الظعن وسائق الركب إلى العقيق

أسفت للبين فهل إلى القرب يلفى طريق

متى النوى تدنى من مطلع الشهب قلبا خفوق

فيشرب بستان للروح والريحان فيه فنون

ودوحه المزدان تحيا به الأكوان فى كل حين

يا خير مرسول للحر والعبد بالمعجزات

نداء مخبول نادى على بعد خوف الممات

أنتم منى سولى وأنتم قصمدى ولى صفات

تمجها الآذان وتقتضى الهجران فما يكون

من ذى شجونٍ عان يحكى بدوح البان شادى الغصون

يا صـــاح والقـصـــد أنْ يـظفـــــــر الأواه بـقـــــــصـــــــده

إنَّ شـــفك البـــعـــد فـــثـق بعـــفـــو الله عـن عـــــــبـــــــده

ودع فـــــتى يشـــــدو واللهـــو قـــد ألهـــاه عـن رشـــــــــــده

جـنـــان يـا جـــنـــان اِجْنِ من البـــستـــان اليـــــاســـمـــــين

وخـل الريـحـــــــان بحـــرمـــة الرحـــمن للـعـــــاشـــقـــــين

وقوله رحمه الله تعالى:

لأحـــمـــــد المصطفى مـــــقـــام

جـل عـــــــلا فـــــــلا يـرام

بـنوره يـهـــــــــتـــــــدى الأنـام

فـــــــأى شـــــــمس وأى بـدر قـــد أطلعـــتـــه لـنا السـعـــود

بنـوره تشـــــرق الشـــــمـــــوس

فى حـــــبـــــه تخـلع النفـــــوس

يأيّـهـــــا المســـــمـع الرئـيس

أدر علينـا كـــئـــــوس فـــخـــــر من ذكـــــــره تعـط مـــــا تـريد

أمـــدح خـــيـــر الروى نـعـــيم

نحـن أناس بـهـــــا نـهـــــيم

يا مـــادحـــيـــــه بالله قـــومـــوا

خـوضـوا بنا مـوج بحـر فـخـر من مـات فـيـه فـهـو شـــهـيـد

الشـطح فـى حله مـــبـــاح

ونحـن قـــوم لـنا ارتـيـــاح

قلـوبنا حـــشـــوها جـــراح

من نأى مـــغـناه ليت شـــعـــرى مـــتى يرى قـــبـــره العـــمـيـــد

إنْ ســـمح الدهـر بالوصـــول

لقـــبـر خـــيـر الورى الرســـول

الســـــيـــــد الأرفـع الجلـيل

فـــشم نـخلع ثـيـــاب طهـــر وتـــوفـى روحِـــى لمـــن تـريـــد

وقوله أيضًا:

لهفى على عمرى مضى والشيب فـى الفود بدا ومـا قضـيت الغرضـا

أيام ريعـــان الشـــبـــاب ولـت ولـم تـــنـو الإيـاب

فنار حـــزنى فى التـــهـاب ودمع عـــينى فى انـسكاب

يا عـهـــد أيام الرضـا هل رجعة تشفى الصدى حـقـا وتبـقى المْرَضَـا

إنْ كنت من أهـل الصـفـــا دع عنك أوصـــاف الجـفـــا

واذكـــر لرسم قـــد عـفـــا وهِـمْ بمـدح المـصـــطـفـى

الهـــاشـمـى المرتضى تاج العلا شـمس الهدى لا تبغ مـنه عـــوضـــا

وشم ربوعـــا للحـــبـــيب وانزل بمـغنـاه الرحـــــيب

ولذ بمرعـــاه الخـــصـــيب فـــهـو لما تـشكو الطبـيب

ناد به مـــعـــرضـــا هل تقـبلون مكمـــدا قد كان عنـكم اعرضا

رمـت فـــــؤادى النـوى وغـصن عـمـرى قـد ذوى

والشـــوق قلبى قـــد كـوى واهًا على فـــقـدى القـوى

قضى النوى ما قد قضى هل يســـتطيـع الجلدا قلب على جمر الغضى

لـقـــــــد تـنـاءت الـديـار وشـط بـى عنـهـــــــا المـزار

لو كـــان لى حـكم اخـــتـيـــار مـــا قـــر بى عنهـــا قـــرار

ما شـاءه حكم القـضا يجـرى ولو طال المدى فـلا تكن مـعـتـرضـا

وقوله رحمه الله:

أطلع الـصـــبح رايـة الفـــجـــر فـــتـبـــدى المكتـــوم من ســـرى

إنْ تكن بـاحـــثـــا عن الأســـرار فـانتـشق صـاح نفـحة الأسـحـار

وأطل فـى الأصـــائل الأذكـــار فـــهى أذكى مـن عـــاطر الأزهار

أين طـيب المسـك شـــذا الـزهر فى دجى اللـيل من شـذا الـذكـر

آه من أدمـــــعى ومن حـــــزنى فـجـــعـة الـبـين كم تـرى تضنى

جـــسم مـشـــتـاق دمى الجـفن يا عـــــذولـى علـيـــــهم عـنى

عـــبـــراتى تـنهل كـــالقـطر وفـــؤادى يـذكى على الجـــمـــر

شـفنى الوجد فـاجـبروا صـدعى يوم بنـتم عن ســـاحـــتى سـلع

خـــدد الخـــد ســـاكب الـدمع إنْ تعـــودوا مـــتـــيم الجـــزع

بدل العـــســـر منه بالـيـــســـر وأتتـــه الـســـعـــود بالـبـــشـــر

ليس للعبد منكم بُدُّ قد برانى وشفنى البعد
من لصب أذابه الوجد بات فى دوح حزنه يشدو
فى هواكم لقد فنى عمرى فالطفوا بى وأمنوا ذعرى
سيدى أنت ملجأ الصب فَأَجِرْ مِنْ ضنى النوى قلبى
إنْ تكن لى أو إنْ تكن حَسْبِى فيك أشدو مقال ذى عجب
جرر الذليل أيما جر وصل الشكر منك بالشكر

وقوله رحمه الله تعالى:

لأحمد بهجهْ كالقمر الزاهر فى أبراج السعد
علاؤها يسبى بنوره الباهر كل سنى مجد
فى عالم القدس قدس علياه ففاق فى الحمد
بالبدر والشمس يزرى محياه فجل عن ند
للجن والإنس أرسله الله يهدى إلى الرشد
أذل بالحجهْ وأمره الظاهر من خان للعهد
بالشرق والغرب ثناؤه العاطر أندى من الند
يا خير مرسول من خيرة الخلق أذابنى البعد
إليك يا سُوْلِى قد قادنى شوقى فكم أرى أشدو
بصوت مخبول حكى غنا ورق هيجا الوجد
غرقت فى لجهْ وليس لى ناصر على جوى البعد

إلا يا حـــســـبى وأدمـــع الـــنـــاظـــر تـنهـل فى الخـــــد

إنَّ عـــــاقـنى ذنـبى عـن ذلـك المـغـنـى فلـيس لـى حـــول

وكـــيف بالقـــرب للـهـــائـم المُضْنَى وبـيـنـنـا ســـــبـل

تـذيـب بـالـكـرب جـسـمـا ذوى حـزنًا وشـــفـــه الخـــبل

إلـيكـم وجـــــه وجـهـا غـدا حـائر والدمـع فى الخـــد

ينهـل كـالســحب وزفـــرة الخـــاطر تـلهـب بالـوقـــد

يا ســامع الـنجـوى إلـيك أوصـــابـى تشكو بـأوجـــالى

تركـــتنى نـضـــوا ألـوذ بالـبـــاب مـــقـــسـم البـــال

إنْ كـــان بـالبـلوى لطـول أغـيـــابى أســـأتم حـــالى

فـــقـلبكـم رَجَّـــهْ بهـا أرى حـاسـر إنْ لـم تـكـن نـدى

أعـــــوذ بالحـب من أمـــرك الآمـــر بالبـعـد لـلعـبـد

بحـب من تحـــدى لقـــبـره النـجب الســـيـــد الطـاهر

هم دائـمـا وجـــدًا يـأيّهـــــا الصـب وعـــد عن خـــاطر

من قـــال إذ أودى بـقـلبـــــه الحـب قـولا غـد سـائر

بدائع الـبـهـــجـهْ ونـزهـة الـنـاظـر وجـنـة الخـلـد

وبغـــيـــة القـلب وراحـــة الخـــاطر فـى ذلك الخـــد

وقوله، رحمه الله تعالى:

لأحمد تعنو الأقمار فعدد فخاره
وانظم ثناه أشعار ولازم وقاره
لأحمد بدر الأفق وشمس المعالى
تأجج نار الشوق وكيف احتيالى
لئن فاز أهل السبق بذاك الكمال
وحلوا بهاتيك الدار وحازوا جواره
ففى القلب نار الأفكار قد أذكت أواره
حادى الركب بلغ عنى سلاما كثيرًا
وقل مغرم ذو حزن قد أضحى أسيرا
أصمته سهام البين لم يلف نصيرا
وقد أبعدته الأقدار والحزن أثاره
فى القلب تنائى الأقطار يضرم ناره
إذا لاح لمع البرق من اكناف نجد
دعانى إليه شوقى وإفراط وجدى
إلى قبر خير الخلق سأجهد جهدى
لعلى أقضى الأوطار وأعطى مزاره
فعنى تمحى الأوزار إذا زرت داره

يا حـــادى شـوقى زمـــزم بذكـــر الحبـــيب
يا حـــر وجـــدى ضـــرم نيـــران الوجـــيب
يـا دمع عـــــينى ارقـم بخـــد الكـثـــيب
رســـوم سطور التـــذكـــار لـــربـــع أنـــاره
سنا نـور وجـه المخـــتـــار قـــد أعلـى مناره
أيا رب بـالمخـــــتـــــار والصـحب الكرام
قـــرب قـــرب نـائى الدار من ذلـك المقـــام
واغـفـر قـــول ذى إصـرار غنـى فى هيـــام
مـن يـرونى دار الـعـطـار بـــذرا المـــنـــاره
ثيـــابى ومـا تَحْـــوِى الدار نعطـه البـــشـــاره

وقوله رحمه الله تعالى:

آه من فـــرط الوجـــيب أورثت قـلبى خـــبـــلا
زفـــرات شـــوق مـــدنف منـكم لم يـعط وصـــلا
قـــد أذابتـــه الشـــجـــون والـــبـــكـــاء والأنـــيـــن
نـحـــــوكـم له حـنيـن أبـــدا بـــه يـــديـــن
دمع خـــديه الهـــتـــون دمـــيـت منه الجـــفـــون
يا ســقـامى يـا طبـيـبى عـــفـــوكم عنـى أولى
لم تـزل باللـطف تـوصف فـــأنل عـبـدك فـضـــلا

لم تـزل بى فى أمـــــورى سـيـدى مـــولى لطيـفـــا
أنت مـــولاى نصـيـــرى فـاجبـر العـبد الضـعـيفـا
من عـذيرى أو مـــجـيـرى إن أطلت بـى الوقـــوفـــا
يا ليـــومى العـــصـــيب وســجل الصـــحف يـتلى
وقـلـوب الخلـق تـرجـف ولنـار الخـــــوف تصـلى
بـالـــنـبـــى بـالـــعـلـــى بالرفـيع القـــدر أحـمـــد
وعـــــتـــــيق الـرضى وأبى حـــفص الممـــجـد
والشـــهـــيـــد وعـلى غـــرر الفـــجـــر المـؤبد
نحـو سـاحـــات الحـبـيب فلتـيـــســر لى ســبـــلا
فـمـــتى بالقـرب أســعف أو أرى لـــــذاك أهـــــلا
يا حـــــداة العـــيس عنى فـاحـملوا نـحـو العـقـيق
أســـفى وطـول حـــزنى وبكـائى وشـــهـــيـــقى
علـنى بـالخـــــيف أجـنى زهـر إبان الـلحـــــــوق
هل لـصب من نـصـــيب فـيـعـود الـهـجـر وصـلا
يا زمـــان القـــرب اِعْطِفْ وأنل مـضـنـاك شـمـــلا
سـيـــدى قـد ذبت حـــزنا لا تخـيب فـيك قـصـدى
وأنلـنى مـنك حـــــسـنى قـــد بـرانى طول بعـــدى
واغـــتـفـــر قـول مـــعنَّى هائمـــا يشكو بـوجـــدى

يا فـــلان إنَّ زرت حِـــبِّى اِفْـــتِل اذنو وبـالرســـيـــلا
ليش أخـذ عنـق الخـشـيف وســـرق فم الحـــجـــيـــلا

انتهى ما قصدته من موشحة هذا الشيخ النبوية.

وأما نظمه فى غير الموشحات، فمنه قوله رحمه الله:

هب النسـيم بـطيب ذكـر الهـادى فـتـأرجت نفـحـات عـرف النادى
يا شـاديا يشـــدو بمدح مـحـمّـد كـرر فـديتك مـــدحـه يا شـادى
كـرر على الأسمـاع ذكر مـحمّـد فلـذكـــره برد عـلى الأكـــبـــاد
وأعـد علينا نظم فـخـر هلال من بهـر الورى مـن حـاضـر أو بادى
هو ذروة المجـــد الأثيـل وقطبـــه هو صـفـوة الأشـراف والأمـجـاد
هو بحـر جود فـاض عـذب نواله وصـــفت مـــوارده لـدى الوراد
هو خـيـر خلق الله والمختـار من أعـلى نجـــــار جـل عن أنـداد
هو منتـهى أملى وملجـأ مفـزعى هو شـمس إيمـانى وبدر رشـادى
هو عـصـمتـى مما أخاف وحـبـه يوم القـيـامـة للخطوب عـمـادى
إشـراق كل الـنيـرات وحـسـنهـا من نور حـــسن شـهـابـه الوقـاد
لا تعـجـبـوا فعنايـة المختـار قـد خـرقت قيـاس العـقل فى المعتـاد
شـــوقى إلى ذاك المـقـــام أثاره حـــزن تلهب لفـــحـــه بفـــؤادى
يا ويح مكتـــئب ومـا قـد شـفـه من فـــرط أحـــزان وطول بعـــاد
كم رام قـرب الدار مـن أحـبـابه لو أســعف المقـــدور بالإسـعـــاد

كم رام أن يشفى بزورته ظَمأ ... قلب إلى تلك المعاهد صادى
أيام أطلع بدر حسن شبابه ... من فوق ناعم غصنه الميادِ
فالآن قد لعبت به أيامه ... وعدت عليه للمشيب عوادى
شيب وضعف وانتزاح مواطن ... فمتى الدهر نيل مرادى
لهفى على عمر تصرم وانقضى ... أفنيت فيه طارفى وتلادى
فلأنزحن مدافعى أسفا على ... ما قدمته يدى ليوم معادى
يا حادى الأضعان يأمل طيبةً ... اقصص فديتك قصتى يا حادى
وانزل بهاتيك الربوع وقف على ... نادى الندامى إن عرضت وناد:
هذا أسير بعادكم أجفانه ... تجلى بفيض الدمع سحب عهاد
فمتى على بعد الديار وشحطها ... يحظى بوصلكم حلف سهاد
فعليكم منى سلام طيب ... ما ناح غريد بسرحة وادى

وقوله رحمه الله:

سأنظم من فخر النبى محمّد ... لآلئ لا يبلى جديد نظامها
تضوع طيبا عرفها فكأنه ... تضوع أزهار بدت من كمامها
سجايا أبت إلاّ السماكين منزلا ... ففاق على العلياء علق مقامها
خلال إذا لاحت قباب لدى علا ... تنيف فتعلوها قباب خيامها
إذا يمموا يوما إمام مكارم ... فأحمد قد أضحى إمام إمامها
فكم ذو علا أو ما لدرك مقامها ... فمر ولم يدرك مرامى مرامها

وكم ظامِئٍ قـــد رام يروى بريهـــا فـآب وقد أضـحى عليـل أوامهـا
لذاك العـلا قلبى مشـوق بحبـهم وقد شـوقت نفسى بطول مـقامـها
فلله عـــيـــن لا تمـل بكـــاءها وقـد حـرمت فـيـه لذيذ منامـها
ونفس علـى بعـد الدار قـــريحـة تطارح فى البلوى حمـام حمامـها
وعـمر مـضت أيام شـرخ شبـابه وَقَدْ قَدَّ صرف الدهر غـصن قوامها
فيا نسمة الأسـحار من نحو يثرب ألمى بنفس قـــد ذوت بضـرامـهـا
ويا حـادى الأظعان نحـو قبـابهم أَلاَ فاخصص العليـا بطيب سلامها

ومن ذلك قوله رحمه الله مخمسا شعرا لغيره:

ألا هل إلى وادى العـقـــيق طريق
فـقد هاج شـوقـا للديار مشـوق
يقـول وفى الأكـباد منـه خفـوق
دموعى على وادى العـقيق عـقيق ولى زفـــرة تحـدو بـهـا وتســـوق
إذا مـا حدا فى ظلمـة الليل دالج
تحـركنـى نحـو العـقـــيق لواعج
وعندى من الشـــوق المبـرح هائج
وفى كبـدى من لوعة البـين لاعج يهـــيج بهـــا بين الضلوع حـــريق
وَلَمَّا جرت بى نحو طيـبة أسعدى
وبلغت آمـالى وأوتيت مـقصـدى

وأوردنى التـــوفـيق أعظـم مـورد

نظرت فـقالوا إنَّ ذا قـبـر أحمـد وذاك أبو حـــفص وذاك عـــتـــيق

فـما ذاك إلاّ أننى شـممت بارقـا

ففت الجـوى منى ضلوعا خوافـقا

وأبديت وجـدا للـعـوائد خـارقـا

فمـا ملكت عينى دمـوعا سـوابقا ولا هدأت لى زفـــرة وشـــهـــيق

بذكـــرك يا خـيـــر الأنام تلذذى

وباسمك من خطب البـعاد تعوذى

وما زال قلبى بامـتداحك يَغْـتَذِى

ألا يا رسـول الله حـبـك منقـذى وإنى لفـى بحـــر الذنوب غـــريق

عليك مدى الأحيـان تنهل أدمعى

وفيك وإن أبعدت مـا زال مطمعى

شـــفـيـــعى حـــبى للنبـى المرفع

وهل تحـرقن النار قلـبى وأضلعى وحـــبك فـى قلبى وأنـت رفـــيق

ثناؤك ريحـانى ومـسـكى ومندلى

عليك رســـول الله كل مـعـــولى

حنانـيك للقلـب المتـــيم فـــابذل

فكم فـيه من مـثقـال حبـة خردل وربك بالوعـــد الكريـم حـقـــيق

قلت: ولنجعل آخر ما أوردناه من أمداحه النبوية قوله:

تركت امتداح العالمين ولذت من مدائح خير الخلق بالعروة الوثقى

سأجعلها كهفى وحصنى وملجئى لعلى بالأمداح أستوجب العتقا

نسأل الله بجاه هذا النبى الشرف القدر العظيم المزية أن يعتقنا من النار ويجيرنا فى الدنيا والآخرة من كل مصيبة ورزية وأن يسهل علينا زيارته العظيمة البركات وأن يلطف بنا فى السكنات والحركات.

***

وقد عن لى لمّا ذكرت كلام ابن خلدون فى الموشحات أن أذكر كلام الإمام ابن خاتمة.

قال رحمه الله تعالى فى كتابه «مزية ألمرية» فى باب محمّد ما نصه:

«محمّد بن عبادة يكنى أبا بكر ويعرف بالقزاز، وأحسبه من أهل مالقة، كان من صدور الأدباء، ومشاهير الشعراء والألباء، وممن له باع فسيح، فى طريقة التوشيح، حتى طار اسمه فيها كل مطار، واشتهر بها نظمه أى اشتهار. وهذه الطريقة من مخترعات أهل الأندلس، ومبتدعاتهم الآخذة بالأنفس، هم الذين نهجوا سبيلها ووضعوا محصولها.

قال أبو الحسن بن بسام: وأوّل من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغنى محمّد بن محمود القبرى الضرير، وكان يصنعها على أعاريض أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة، غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامى أو العجمى، يسميه المَرْكَزْ ويضع عليه

الموشحة، من غير تضمين فيها ولا أغصان. وقيل إنَّ أبا عمر بن عبد ربه صاحب كتاب العقد هو أوّل من سبق إلى هذا النوع من الموشحات.

وحكى الكاتب أبو الحسن على بن سعيد العنسى فى كتابه «المقتطف من أزهار الطرف» أنَّ الحجارى ذكر فى كتابه «المسهب فى غرائب المغرب» أنَّ المخترع لها بجزيرة الأندلس المقدم بن معافى القبرى من شعراء الأمير عبد الله المروانى وأخذه عنه أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد ثم غلبهما عليه المتأخرون. وأوّل من برع فيه منهم عبادة بن القزاز شاعر المعتصم صاحب ألمرية.

قال الأستاذ أبو الحسن على بى سعد الخير البَلَنْسِىّ فى كتابه: «نزهة الأنفس وروضة التأنس فى توشيح أهل الأندلس» ضمنه عشرين وشاحا على طريقاتهم فى الإجادة والإحسان.

العُباديون ثلاثة: ابن ماء السماء، وهو عبادة بن عبد الله بن محمّد بن عبادة بن ماء السماء بن أفلح بن الحسين بن سعيد بن قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى، من أهل مالقة. وعبادة بن محمّد بن عبادة بن الأقرع ومحمّد بن عبادة القزاز هذا.

قال الأستاذ أبو جعفر: وكان محمّد بن عبادة من شعراء المعتصم، فوشحه منها بكل در منتظم، وعقد بمعنى البلاغة والبراعة ملتم. ومن أظرف ما وقع له فى المديح من التوشيح موشحته التى أولها:

كم فى قدود البان تحت اللمم من أقمار عواطى

ومن أظرف ما وقع له من خلالها من حسن الالتئام وسهولة النظام، ما يندر وجود مثله فى منثور الكلام، وذلك فى أحد مراكزها حيث يقول:

لما غـــــدا قـــــادرا أضـــحى قليـل المعـــذله

يا حـــاكـــمـــا جـــائرا قـــتلت من لا ذنـب له

سطوت بالهيـمان ظـلمـــــا ولـم تســتـبـصـر يـا ســـــاطـى

خفف سطـوة الرحمن إذا حـــكـــم بـين الـبـــرى والخـــــاطـى

ويخرج فى هذه الموشحة على قوله:

ما أملح المهـرجان وفـــل يـــنـــم كـــالعـنبـــر لـلســـــواطـى

والفلك كالعـقبان والمعـــتـــصم بـالعـــــسكـر فى الـشـــاطى

ثم قال ابن خاتمة: «ومن شعره ما أنشـد أبو أحمد جعفر بن إبراهيم بن الحاج المعافرى فى كتابه محك الشعر ونسبه إليه:

أودع فـــؤادى حـــرقـــا أو دع ذاتـك تردى أنـت فـى أضـلعـى

وارم ســهـــام اللحظ أو كـفـــهـا أنت بما تـرمى مـــصـــاب مـــعى

مـــوقـــعـــهـــا قلبـى وأنت الذى مـــــســكنـه فى ذلـك الموضـع

وله رحمه الله[1]:

انظر إلـى البـــدر الـذى لاح لك فى وسـط اللجـــة تحت الحـلك

قـد جـــعل البـــحـر ســمـــاء له واتخـــــذ الفـلك مـكان الفـلك

وحضر مجلس المعتصم ابن صمادح وبين أيديهم ورد مصبوب فبرز من داخل وردة منها الحيـوان الأخضر الموجود فى الورد وتسـميه العرب القـيقزان فقال له المعتصم: صفه فقال:

(١) فى النـفح لم ينسـب له إلا الشطر الأول أمـــا باقـى الأشطر (فى وسط الـلجـــة تحت الحلك... مكان الفلك) فهو لابن قابلة السبتى.

وأخـضر حـمـادى فى الورد لائح على صـفح ورد حـسـنه مـتناهى
كـمـا أخذت حـسناء فص زمـرد بصـفـرة مسـواك وحـمـرة شفـاه

وكتب يوما إلى المعتصم وقد تأخرت صلات شعرائه:

يأيهـا الملك الذى حـاز العـلا مـعـن أبوه وخـاله المنـصـور
بفناء قـصـرك عـصـبـة أدبـيـة لا زال وهو بشـملهم مـعـمـور
زفـوا إليـك بنـات أفكـارهم واسـتـبطئـوك فـهم لهن قـصـور

انتهى كلام ابن خاتمة رحمه الله تعالى.

* * *